البلاغ المبين

الجزء الأول

تصديـــــــر

يقول الله ﷻ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ۞ وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ ۞ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ ۞ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۞ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[١] صدق الله العظيم.

---

(١) الأنفال، آيات: ٢٠-٢٩.

المقدمـــة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره ونعــوذ بــه مــن شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهد الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له وليًا مرشدًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شــريك لــه، وأشــهد أن محمدًا عبده ورسوله، أدى الأمانة وبلَّغ الرسالة ونصح للأمة وتركها على المحجَّة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلاَّ هالك.

أما بعد...

فهذه آيات بينات من كتاب ربنا عزَّ وجلّ بين يدي هذا الكتاب أعتصم بها من الضلالة والغواية في وقت تتتابع فيه الفتن كقطع الليل المظلم يرقــق بعضها بعضًا يُمسي فيها المرء مؤمنًا ويُصبح كافرًا، ويصبح مؤمنًا ويمسي كافرًا يبيع دينه بعرضٍ من الدنيا، تزيغ فيه القلوب عن الحق بعد ما تبــيّن لقلة الصبر على وعثاء الطريق وبُعد السفر وبطش العدو وحيلــه ومكــره وتمكنه وعلوه وقهره... فتضعف القلوب عن الثبات على الحق والاعتــصام بالهدى، وتبحث عن المخارج والتأويلات والاجتهادات والتوفيقات والتلفيقات تعايشاً مع الواقع وهروبًا من المواجهة وخداعًا للنفس.

يقول ربُّنا ﷻ: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الــصَّابِرِين ۝ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّــتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ۝ فَآتَاهُمْ اللَّهُ ثَوَابَ الــدُّنْيَا وَحُــسْنَ ثَوَابِ الأْخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُــوا الَّــذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ۝ بَلْ اللَّهُ مَوْلاَكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ۝ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمْ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾[١].

---

(١) آل عمران، آيات: ١٤٦-١٥١.

ويقول ﷺ: ﴿قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾(١).

ويقول المولى ﷻ: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنْ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ۝ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمْ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝ الَّذِينَ قَالَ لَهُمْ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ۝ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنْ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ إِنَّمَا ذَلِكُمْ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِي إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۝ وَلاَ يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلاَ يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوْا الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ۝ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنْ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾(٢).

---

(١) الأنعام، آيات: ٧١-٧٣.

(٢) آل عمران، آيات: ١٧١- ١٧٩.

ويقول الله ﷻ: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٍ﴾[1]، ويقول ﷻ: ﴿وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالأَخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[2]، ويقول ﷻ: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[3]، ويقول ﷻ: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ۞ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[4]، ويقول ﷻ: ﴿وَلاَ تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ﴾[5]، ويقول ربُّنا ﷻ: ﴿وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُنِيرٍ ۞ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ۞ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَمٍ لِلْعَبِيدِ ۞ وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ

---

(١) البقرة، آية: ١٠٩.
(٢) البقرة، آية: ٢١٧.
(٣) آل عمران، الآيتان: ٧١-٧٢.
(٤) آل عمران، آيات: ٩٩-١٠٢.
(٥) هود، آية: ١١٣.

اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالأْخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُ وَمَا لاَ يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ ۞ يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ ۞ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأْنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ۞ مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالأْخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ﴾(١).

ويقول ﷻ: ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقّ﴾(٢)، ويقول ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ ۞ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأْمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ۞ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمْ الْمَلاَئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ۞ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُم﴾(٣).

قد أخذ علينا ربُّنا عزَّ وجلَّ الميثاقَ أن نبيِّن الحقَّ ولا نكتمه ولا نلبس الحقَّ بالباطلِ وألا نَقْلِبَ الحقائق ولا نشتري بآياتِ الله ثمنًا قليلاً ولا نخشَي في الله لومةَ لائمٍ وأن نظل قوامين لله شهداء بالقسط وذلك بالبلاغ والبيان في مواقف الإشهاد بين الناس.

يقول الإمام أحمد ﷺ (٤): «الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون مَنْ ضلَّ إلى الهدى ويصبرون منهم على الأذى، يحيون بكتاب الله الموتى ويبصّرون بنور الله أهل

(١) الحج، آيات: ٨-١٦.
(٢) غافر، آية: ٥.
(٣) محمد، آيات: ٢٥-٢٨.
(٤) مجموع الفتاوي، ج٤، ص١٥.

العمى، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه وكم من ضال تائه قد هدوه فما أحسن أثرهم على الناس وما أقبح أثر الناس عليهم ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين الذين عقدوا ألوية البدعة وأطلقوا عنان الفتنة فهم مخالفون للكتاب مختلفون في الكتاب مجتمعون على مفارقة الكتاب يقولون على الله وفي الله وفي كتاب الله بغير علم، يتكلمون بالمتشابه من الكلام ويخدعون جهَّال النَّاس بما يشبهون عليهم فنعوذ بالله من فتن المضلين».

والمسألة بوضوح أن الغرب الصليبي يضيق بمن يُسميهم الأصوليين تارة أو المتطرفين والمتشددين تارة أخرى الذين يرفضون العلمانية والقومية وفصل الدين عن الدولة باعتبار أنها تمثل رغبة عن شرع الله إلى غيره مع إباحة المحرمات واتخاذ الوليّ من دون الله... وكل هذا من الكفر والشرك الذي يتنافى مع الإيمان والإسلام، والذين يُطالبون بالعودة إلى ما كان عليه القرون الثلاثة الأولى قبل تشعب الأهواء ونشأة الفرق وعلم الكلام، واختلاط مباحث العقيدة بمذاهب الفلسفة، وهو ما قال عنه الإمام أحمد بن حنبل ﷺ(١): «أصول السنة عندنا التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ».

وهذه القضايا التي نتكلم فيها هى من المسلمات الشائعة في هذه الأصول ومن المعلوم من الدين بالضرورة عند عوام المسلمين، وكان أئمة الخير والحق يرشدون الناس ممن يغويهم علم الكلام ومباحث الفلسفة بترك هذه الأمور والعودة إلى دين العوام الذي تواتر لهم بالقول والعمل من أصحاب رسول الله ﷺ إلى التابعين وتابعي التابعين حتى عصر الأئمة المجتهدين.

---

(١) سنن الدارمي.

جاء في سنن الدارمي[1]: أخبرنا محمد بن يوسف عن سفيان عن جعفر ابن برقان عن عمر بن عبد العزيز قال: سأله رجل عن شيء من الأهواء؟ فقال: عليك بدين الأعرابي والغلام في الكتاب والْه عما سوى ذلك.

ويقول الدارمي أيضًا[2]: أخبرنا يحيي بن حسان حدثنا عبد الله بن إدريس عن إسماعيل ابن أبي حكيم قال سمعت عمر بن عبد العزيز يقول: "من جعل دينه غرضًا للخصومات أكثر التنقل". وهذا أبو المعالي الجويني من أقطاب علم الكلام يقول عند موته: "وددت لو أموت على دين عجائز نيسابور"[3].

ولكن جرثومة الإرجاء الخبيثة التي كمنت في تراث الخلف خلافًا لما كان عليه السلف مع أهواء معاصرة فيما يسمى بالصحوة الإسلامية أعطت الفرصة لأجهزة القمع أن تطرح الصفقة على من يريد أن يعمل في الساحة الإسلامية وأن ينتشر دون تضييق الخناق منهم عليه أن يتحرك في نطاق المسموح وأن يتجنب القضايا الساخنة وأن يواجه الأصوليين[4] ويُبدّعهم ويُفسِّقهم ويحذِّر الناس منهم ويُشغِّب عليهم حتى يلتبس الحق بالباطل ويكتم الحق ولا يصل إلى الناس.

فرضَوا بهذه الصفقة واطمأنوا بها، وهذا من حرب الدين بالدين، وهذا دور أجهزة القمع في تفاهماتها مع الساحة الإسلامية استجابة لتوجيهات حكوماتها التي تستجيب بدورها لتوجيهات الغرب الصليبي ـ وهو ما يسمونه الآن بعد حرب الخليج "الشرعية الدولية" و"الخط الدولي" ـ بعد سقوط روسيا والكتلة الشرقية وخضوع دول العالم الثالث

(١) سنن الدارمي، طبعة المغني، الرياض، ج١، ص ٣٤٣.
(٢) المصدر السابق، ج١، ص ٢٤٢.
(٣) مجموع الفتاوى، ج٤، ص٧٣.
(٤) كما يُسَمُّونَهم.

التي ترزح تحت التخلف والتبعية والديون والمجاعات. وإذعان أهل الإسلام وغياب صحوة الإسلام السياسية التي أثارها سيد قطب والمودودي والدكتور محمد محمد حسين وأمثالهم وبزوغ الإرجاء والعقلانية لهدم الأصولية بتحريف الكلم عن مواضعه. والخروج من كل أهداف ومواقف المواجهة مع العلمانية والتبعية للاستعمار الغربي الصليبي... وهكذا تسعى أوروبا وأمريكا أن تؤخر الوراثة الإسلامية للحضارة بديلاً عن الغرب المتداعي بالإيدز والإباحية والتصدّع الأخلاقي والاجتماعي بل والاقتصادي والسياسي إن لم يكن لأوروبا الآن فهو لأمريكا على الأقل رغم كل مظاهر القوة والجبروت.

ولهذا وبالرغم من كل هذه التحديات والمواجهات الصعبة التي تتهاوى لها الجبال لا مناص من الوقوف مع الحق وإن كرهَ الكافرون... وإنْ كره الكافرون... وإنْ كره الكافرون، واللهُ غالبٌ على أمره وسوف ينتصر الإسلام ويظهره الله على الدين كله ولو كره المشركون.

يقول تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾[1]، ويقول ﷻ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۞ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۞ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾[2].

(١) إبراهيم، آية: ٢٧.
(٢) سورة النصر.

تمهـــيد

يتناول هذا الكتاب موضوع الإسلام والإيمان والتوحيد والشرك والحد الفاصل بين الإيمان والكفر وتأثير العوارض من إكراه وخطأ وتأويل وجهل وعته وضعف إدراك، إضافة إلى أهل الفترات والولدان. ثم ينتقل بعد ذلك إلى أحكام الديار وأوضاعها و الأقوال فيها والأحكام في واقعنا المعاصر وما يترتب عليها من فقه حركة وأهداف دعوة وشرعيات وتصحيح مفاهيم متعلقة بالجذور التاريخية وواقع الصراع السياسي المعاصر.

لينتقل إلى الرد على الشبهات تفريطاً و إفراطاً؛ استقامة على الجادة وتمسكاً بالدين القيم والعروة الوثقى، وقد استهدف الكتاب الرد على بدع الإرجاء منذ بزوغها إلى يومنا هذا، ولم أشأ أن أجعل هذا الرد منفصلاً، فجاء في ثنايا الكتاب من المقدمة إلى نهاية الكلام عن الإرجاء وبداية الرد على الغلو والإفراط.

- ولقد بدأت مواجهة الإرجاء من الإمام الشافعي والإمام أحمد وشيوخهما وتلاميذهما، فكانت هذه المواجهة لتقرير أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص. وقد تقرر هذا والحمد لله.

- ثم انتقلت إلى المرحلة الثانية على يد الإمام ابن تيمية والإمام ابن القيم وتلاميذهما، فكانت هذه المواجهة لتقرير أن التوحيد توحيدان: توحيد في الربوبية، وتوحيد في الألوهية، وأنه لابد للمسلم ليكون مسلماً من الأصلين معاً وهما الإيمان والإسلام، وأن الإيمان بمعناه الخاص هو توحيد الربوبية وهو التوحيد في الخبر والعلم والمعرفة، وأن الإسلام بمعناه الخاص هو توحيد الألوهية وهو التوحيد في الإرادة والقصد والطلب، ولابد من ترك الشركين الأعظمين: شرك الاعتقاد وشرك العبادة، وان المسلم لا يمكن أن يكون مشركاً بأي حال من الأحوال، ثم يبقى مسلماً، وأن المشرك ليس مسلماً بأي حال من الأحوال لتنافي الحقيقتين؛ ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا

وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[1]، وأن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة ولا يدخلها إلا نفس مؤمنة.

● ثم جاءت المرحلة الثالثة من المواجهة مع الشيخ محمد بن عبد الوهاب وتلاميذه ومدرسته، فقال له ولهم علماءُ المشركينَ ــ كما كان يسميهم الشيخ رحمه الله* ــ

١- لا نقول شيئاً فيمن قال لا إله إلا الله وإن قال ما قال وفعل ما فعل.

٢- أن شيخ الإسلام ابن تيمية لا يُكَفِّر مرتكب الشرك الأكبر إذا كان جاهلاً.

٣- أن شيخ الإسلام ابن تيمية لا يُكَفِّر المعين.

٤- أن مرتكب الشرك الأعظم لا يَكْفُر به إذا كان حريصاً على الانتساب إلى الإسلام، ويؤدي الفرائض وبعض الأعمال الصالحة.

٥- أن مرتكب الشرك الأعظم لا يكفر به ليس فقط إذا كان جاهلاً بل أيضاً إذا كان مقلداً أو متأولاً، ولا يكفر إلا المعاند.

٦- أن قول لا إله إلا الله حصانة من الكفر لمرتكب الشرك الأعظم.

٧- ثم جاءوا إلى البدعة الشنيعة والفرية العظيمة وهو ما ذكره شيخ الإسلام عنهم في كتابه"مفيد المستفيد في كفر تارك التوحيد"، **وهو أن الشرك الأكبر لا يكفر به إلا من أنكر الإسلام جملة وكذّب الرسول والقرآن واتبع يهودية أونصرانية أو غيرهما**. ويقول شيخ الإسلام ابن عبد الوهاب في الرد عليهم «فإذا كان من انتسب إلى الإسلام لا يكفر إذا أشرك الشرك الأكبر لأنه مسلم يقول لا إله إلا الله ويصلي ويفعل كذا وكذا، لم يكن للشرك وعبادة الأوثان تأثير بل يكون ذلك كالسواد في الخلقة أو العمى أو العرج فإن كان صاحبها يدعي الإسلام فهو مسلم، وإن ادعى ملة غيرها فهو كافر، وهذه فضيحة عظيمة كافية في

---

(١) آل عمران، آية: ٦٧.

* المراجع داخل الكتاب لكل ما ذكر في المقدمة

رد هذا القول الفظيع... إلخ». وقد تولى الشيخ وتلاميذه ومدرسته الرد على هذه البدع كلها في إطار دعوتهم إلى التوحيد.

● ثم جاءت المرحلة الرابعة من المواجهة، فانطلقت أبواق الإرجاء في السبعينيات من القرن الماضي بكل أقوال المرجئة في القديم البعيد والقديم القريب، وفي التسعينات من القرن الماضي؛ نبغت بدعة تأسست على ما وصفه شيخ الإسلام ابن عبد الوهاب بالفضيحة العظيمة والقول الفظيع، تقول إن البراءة الإجمالية من الشرك، والإقرار الإجمالي بالتوحيد. حصانة من الكفر لمرتكب الشرك الأكبر، وأنه لا يكفر حتى ينقض عقد الإسلام، ولا يكفر بمفردات الشرك الأكبر، وأن مرتكب الشرك الأكبر لا يكفر به إلا بعد أمرين: الأول أن يتبين له أنه شرك أعظم، والثاني: أن يبقى بعد ذلك مصراً عليه عناداً لربه ونقضاً لميثاقيه معه بالبراءة الإجمالية من الشرك والإقرار الإجمالي بالتوحيد. ولكن إذا أتى الشرك الأكبر بعد ما تبيَّن له أنه شرك أكبر على وجه الضعف البشري وتغليباً للأهواء والمصالح وليس على وجه العناد ونقض الميثاق فإنه لا يكفر بالشرك الأكبر، ويكون شأنه شأن المعاصي حتى يأتيه على وجه العناد ونقض الميثاق ليس إلاَّ [1].

وبعد بداية القرن الحالي (سنة ألفين) وعودة الوجه الاستعماري القبيح وفرض التعايش وثقافة السلام وتجديد الخطاب الديني على المسلمين وتفكيك الدولة القومية واختراق السيادة الوطنية، وتفتيت المفتت، وتجزئة المجزأ... ركز رموز العولمة والعاملون في خدمتها على إحياء المدرسة التأويلية والتخلص من المدرسة النصوصية ووصفها بالسلفية على سبيل الذم، ووصمها بالتخلف والجمود، وأن المدرسة التأويلية هي الاتجاه العقلاني العصراني الذي سينقل المسلمين إلى مواكبة الحضارة وإلى أن

---

(١) حسبما تحمله الألفاظ من معاني وربما يكون مقصود أصحابها دون ذلك. والله سبحانه و تعالى أعلم

يعيشوا العصر وثقافته وآلياته، وللمسلمين تراث في ذلك، هو تراث المعتزلة فرسان العقل، وتراث الفلسفة الإسلامية وفلسفة التصوف الإسلامي، التي أفادت الغرب في وثبته الحضارية، وهذا التراث هو الذي يُمْكِنُ أن يُكَوِّن عوامل ثقافية مشتركة، تقربهم إلى الغرب المسيحي.

ومخططو الغرب يعلمون من دراستهم الإستشراقية سيكولوجية الشيعة، واقترابها من سيكولوجية الكاثوليك، بعصمة المرجعيات الدينية هنا وعصمة الإكليروس هناك، ويعلمون سيكولوجية السنة واقترابهم من سيكولوجية الإنجيليين، برفضهم للكهنوت هنا وهناك. ومن ثمَّ ركزوا على وضع التأويل في يد المرجعيات عند الشيعة، وفي تحويل الإسلام إلى دين فردي عند السنة، كما هو الشأن عند الإنجيليين.

ومن ثمَّ برزت الدراسات عند السنة بتعريف المصالح المرسلة بالاستحسان المجرد وأحيوا ما يقوله الطوفي وغيره في هذا الشأن للاستئناس به. وبتخصيص الشرع بالعقل. وبإمكان استلهام روح الشريعة ومقاصدها الكلية دون النصوص الجزئية. وأن كل مجتهد مصيب كما يقول الجاحظ — وإن لم يكن من أهل السنة — وأن المتأول المخطيء مغفور له خطؤه كائناً ما كان. وهذا كله من الباطل الذي يجادلون به لدحض الحق. ومما لاشك فيه أن الفتوى والفقه يتغيران بتغير الزمان والمكان والظروف والملابسات، ولكن لابد من أمرين:

- التمسك بالنصوص كلية وجزئية.
- فهم النصوص والاجتهاد عليها حسب قواعد أصول الفقه.وإلا كان الزيغ والضلال.

وفي إطار هذه الدعوة الإرجائية، تقارب مع الأنظمة والتوجهات العلمانية بدعوى إزالة التعارض بين الديمقراطية والإسلام، كما تقول

أحزاب العدالة والتنمية في العالم الإسلامي للدخول في تعدديات علمانيـــة، على أساس ان العلمانية نظام دولي لا يمكن تجاوزه.

وتنطلق الأبواق لتأكد هنا وهناك ــ على طــول وعــرض العـــالم الإسلامي من المغرب إلى تركيا إلى الشرق الأوسط إلى وسط آسيا إلـــى الشرق الأقصى ــ أن الرغبة عن شرع الله إلى غيـــره كفـــر دون كفـــر، وليست بأي حال كفراً ينقل عن الملة وأن موالاة الكافرين ليست كفراً ينقل عن الملة، بل وليست حراماً، بل إنها تكون مستحبة أحياناً، وواجبة أحياناً أخري ــ خلافاً لما يؤكده القرآن الكريم في سياقاته المتعددة ــ أمـــا مـــن اتخذوا من دون الله أولياء يقربونهم إلى الله زلفى، فما قصدوا غير عبـــادة الله وإن أخطأوا في التوجه... هكذا!!! ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ولا بأس من انتهاج سياسات عملية يحصل من خلالها التكيـــف مـــع الواقع، ولكن معرفة الحق المجرد بعيداً عن الالتباسات وبعيداً عن الإفراط و التفريط أمر واجب لتحديد صلة الإنسان بربه سبحانه وتعالى وهو كذلك أمر عملي يساعد كثيراً في الخروج من النفق المظلم والركوع الذليل.

وفي إطار هذه المواجهة الرابعة جاء هذا الكتاب كإسهام متواضع في ركب مضيء.

ولقد راعيت في هذا الكتاب خمسة أمور:

١- صحة الاستدلالات وأن تكون على منهاج أهـــل الـــسنة فـــي البحـــث والاستدلال.

٢- صحة المسائل وأن تأتي موافقة لتوحيد الأئمة وسلف الأمة وما دلـــت عليه نصوص الكتاب والسنة.

٣- أن يأتي العرض مرتباً على حسب تسلسل المعاني، وإفضائها بعـــضها لبعض من أول الكتاب حتى آخره، وأن يتم التبويب والعنونة الرئيسية والفرعية على حسب المعاني وتسلسلها.

٤- ذكر المصادر.

٥- الأحاديث التي أستدل بها صحيحة مع ذكر السند، وأما التي تأتي في سياق نقول عن العلماء والمفسرين والشراح، بعضها صحيح وهو عمدتهم في الإستدلال، وبعضها حسن يأتي كمتابعات وشواهد. وإستدلالي هو بما ينتهي إليه رأي العالم أو المفسر أو الشارح فهماً للنصوص واجتهاداً عليها.

تعمدتُ ألاّ أراعى طريقة إعداد الرسائل الجامعية الأكاديمية؛ تجنباً للثقافة الباردة. وحرصت على أن يكون الكتاب على طريقة العلم للعمل ــ على طريقة السلف في الكتابة ــ والدراسات المتأنية الدقيقة للترشيد والانطلاق، وألاّ يخلو مع ذلك من العواطف و الانفعالات والوجدان الحي الذي يعيش قضايا أمته، تجربة الماضي، ومعاناة الحاضر ومرارته، وآفاق المستقبل.

تعرضت للأقوال ولم أتعرض للأشخاص بعداً عن الخصومة والتجريح الشخصي وتسامياً عليهما.

وبعد...

فهذا الكتاب للتأصيل وليس للدعوة، وإن جاءت به بعض ملامح الدعوة، وهو للدراسة المتعمقة المليئة بالتفصيل، وليس للتشويق والإمتاع الذهني السريع، وإن لم يخلُ من عناصر التشويق والإمتاع.

وبعد...

فأسأل الله العليّ القدير ان يجعل عملي خالصاً لوجهه الكريم، ولله علينا الفضل والمنة من قبل ومن بعد، نسأله العزيمة على الرشد والثبات في الأمر، وان يسبغ علينا نعمته وستره في الدنيا والآخرة. وإن كانت ثمة تقصير أو إساءة فهو الغفور الرحيم. وبالله التوفيق.

الباب الأول

حـــــد الإســـلام

حقيقة الإسلام هى توحيد الألوهية المتضمن لتوحيد الربوبية، وهــذا هو الذي قال عنه رسول الله ﷺ: «نحن معاشر الأنبياء أخوة لعلات ديننــا واحد»(١)، وهو الدين الذي لا يقبل الله غيره من الأولين، والآخرين ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾(٢). وهو الكلمة السواء التي دعــا الله إليها أهل الكتاب ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَ نَعْبُدَ إِلاَ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾(٣).

وحكم الإسلام يثبت بالنص والدلالة والتبعية، تبعية الدار أو الوالدين أو أفضلهما ديناً(٤).

أمران متغايران لكنهما مرتبطان، عدم إدراك الفرق بينهما أو تجاهله ــ تلبيسًا وتخليطًا وقلبًا للحقائق وكتمانًا للحق ــ يُدخل على الناس ممــن يدعوهم أو يتصدى لتعليمهم ضلالاً يغرقهم في ظلمات الشرك.

وإذا كان الأمر كذلك فنتكلم أولاً عن حقيقة الإسلام ثم نتكلم بعد ذلك عن حكمه. وفي "صحيح البخاري"، "باب إذا لم يكن الإسلام على الحقيقة وكان على الاستسلام أو الخوف من القتل"(٥).

ويقول شيخ الإســلام(٦): «وقد نطق القرآن بكفر المنافقين في غيــر موضع وجعلهم أسوأ حالاً من الكافرين، وأنهم في الدرك الأسفل من النار، وأنهم يوم القيامة يقولون للذين آمنوا ﴿انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ﴾ الآيــة.

---

(١) مجموع الفتاوى، ج٣، ص٩٠.
(٢) آل عمران، آية: ٨٥.
(٣) آل عمران، آية: ٦٤.
(٤) الشوكانى.
(٥) صحيح البخاري، ج١، ص٩٩، طبعة دار الريان للتراث.
(٦) الصارم المسلول، ص٣٢-٣٣، مطبعة العاصمة بالقاهرة.

إلى قولــــه ﷻ: ﴿فَالْيَوْمَ لاَ يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلاَ مِنْ الَّذِينَ كَفَــرُوا﴾(١) وأمر نبيه في آخر الأمر بأن لا يصلي على أحد منهم وأخبر أنه لن يغفر لهم وأمره بجهادهم والإغلاظ عليهم، وأخبر أنهم إن لم ينتهوا ليغرين الله بهم نبيه حتى يُقتلوا في كل موضع» "ومع ذلك يُجرى عليهم حكم الإسلام حتى يُحكم عليهم بالردة".

قالوا: حدّ الإسلام لفظ محدث.

ونقول: حد الإسلام هو حقيقته وهو معنى اللفظ ودلالته، وهو تعريفه، وهو مسمى الاسم، واللفظ قديم ليس محدث ولا مبتدع بخلاف غيــره مــن الألفاظ التي تستعمل وليس لها أصل في الكتاب أو الــسنة لا ألفاظهــا ولا معانيها ومع ذلك لا نعترض عليها لأنه لا مشاحة في الاصطلاح.

- **حد الإسلام من حيث اللفظ:**

حد الشيء:

يقول ابن القيم رحمه الله(٢): «لا يختلف الناس أن حد الشيء ما يمنع دخول غيره فيه، ويمنع خروج بعضه منه».

وجوب معرفة حدود الأسماء:

يقول الشيخ عبد الله أبو بطين(٣): «مما يتعين الاعتناء بـــه: معرفـــة حدود ما أنزل الله على رسوله لأن الله سبحانه ذم مَنْ لا يعرف حدود مـــا أنزل الله على رسوله، فقال تعالى: ﴿الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْــدَرُ أَلاَ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾(٤)».

---

(١) الحديد، آيات: ١٢-١٥.

(٢) أعلام الموقعين، ج١، ص٢٦٦.

(٣) الانتصار لحزب الله الموحدين: ص١٦.

(٤) التوبة، آية: ٩٧.

قال شيخ الإسلام[1]: «ومعرفة حدود الأسماء واجبة، لأن بهـا قيـام مصلحة الآدميين في المنطق الذي جعله الله رحمة لهم، لاسيما حدود مـا أنزل الله على رسوله من الأسماء، كالخمر والربا، وهـذه الحـدود هـي المميزة بين ما يدخل في المسمى وما يدل عليه من الصفات، وبين ما ليس كذلك، وقد ذمَّ الله سبحانه مَنْ لم يعلم حدود ما أنزل الله على رسوله».

ويقول ابن القيم رحمه الله [2]: «ومعلوم أن الله سبحانه حدَّ لعبـاده حدود الحلال والحرام بكلامه، وذمَّ مَنْ لم يعلم حدود ما أنزل الله علـى رسوله والذي أنزله هو كلامه، فحدود ما أنزله الله هو الوقوف عند حـد الاسم الذي علَّق عليه الحِلَ والحرمة فإنه هو المنزل على رسوله وحـدَّه بما وُضع له لغة أو شرعًا بحيث لا يدخل فيه غير موضوعه ولا يخرج منه شيء من موضوعه».

يقول ابن القيم رحمه الله: «والأسماء التي لها حدود فـي كـلام الله ورسوله ثلاثة أنواع: نوع له حد في اللغة كالشمس والقمر والبر والبحـر والليل والنهار، فمن حمل هذه الأسماء على غير مسماها أو خصَّها ببعضه أو أخرج منها بعضه فقد تعدى حدودها.

ونوع له حد في الشرع كالصلاة والصيام والحج والزكاة والإيمـان والإسلام والتقوي ونظائرها، فحكمها في تناولها لمسمياتها الشرعية كحكم النوع الأول في تناوله لمسماه اللغوي.

ونوع له حد في العرف لم يحده الله ورسوله بحد غيـر المتعـارف عليه، ولا حد له في اللغة كالسفر والمرض المبـيح للتـرخص والـسفه والجنون الموجب للحجر».

---

(١) الانتصار لحزب الله الموحدين، ص٤٩.

(٢) أعلام الموقعين، ج١، ص٢٦٦.

حد الإسلام وحد الشرك:

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1]: «الأسماء التي علق الله بها الأحكام في الكتاب والسنة منها ما يُعرف حده ومسماه بالشرع فقد بيَّنه الله ورسوله: كاسم الصلاة والزكاة والصيام والحج والإيمان والإسلام والكفر والنفاق».

ويقول شيخ الإسلام[2]: «والنبيّ ﷺ فسَّر الإسلام والإيمان بما أجاب به كما يجاب عن المحدود بالحد، إذا قيل: ما كذا؟ قيل: كذا وكذا، كما في الحديث الصحيح لمَّا قيل ما الغيبة؟ قال: «ذكرك أخاك بما يكره»، وفي الحديث الآخر «الكِبرُ بطر الحق وغمط الناس».

يقول الشيخ عبد الله أبو بطين[3]: «ففرض على المكلف معرفة حد العبادة وحقيقتها التي خلقه الله لأجلها ومعرفة حد الشرك وحقيقته الذي هو أكبر الكبائر».

يقول ابن القيم رحمه الله [4]: «فالأولى بنا أن نذكر منازل العبودية الواردة في القرآن والسنة ونشير إلى معرفة حدودها ومراتبها: إذ معرفة ذلك من تمام معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله، وقد وصف الله تعالى مَنْ لم يعرفها بالجهل والنفاق، فقال تعالى: ﴿الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلاَ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾[5]. فبمعرفة حدودها دراية والقيام بها رعاية يستكمل العبد الإيمان ويكون من أهل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾».

---

(١) مجموع الفتاوى، ج١٦، ص٢٣٥.

(٢) المصدر السابق، ج٧، ص١١.

(٣) الانتصار لحزب الله الموحدين، ص٤٩.

(٤) مدارج السالكين، ج١، ص١٠٧.

(٥) التوبة، آية: ٩٧.

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية [1]: «وإذا ثبت أن كل سب ــ تصريحًا أو تعريضًا ــ موجب للقتل فالذي يجب أن يُعتنى به الفرق بين السبِّ الذي لا تُقبل منه التوبة والكفر الذي تُقبل منه التوبة، فنقول هذا الحكم قد نيط في الكتاب والسنة باسم أذى الله ورسوله، وفي بعض الأحاديث ذكر الشتم والسب، وكذلك جاء في ألفاظ الصحابة والفقهاء ذكر السب والشتم.

والاسم إذا لم يكن له حد في اللغة كاسم الأرض والسماء والبحر والشمس والقمر ولا في الشرع كاسم الصلاة والزكاة والحج والإيمان والكفر فإنه يُرجع في حده إلى العرف كالقبض والحرز والبيع والرهن والكرى ونحوها، فيجب أن يُرجع في الأذى والسب والشتم إلى العرف فما عده أهل العرف سبًّا أو انتقاصًا أو عيبًا أو طعنًا ونحو ذلك فهو من السبِّ، وما لم يكن كذلك فهو كفر فيكون كفرًا ليس بسب حكم صاحبه حكم المرتد إن كان مظهرًا له وإلاَّ فهو زندقة».

- **حد الإسلام من حيث المعنى:**

مراتب الإيمان والفرق بين الترك والإتيان:

في "صحيح مسلم" [2] حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وأبو كريب قالا حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر قال أتى: النبيَّ ﷺ رجل فقال: يا رسول الله ما الموجبتان؟ فقال: «مَنْ مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة ومن مات يشرك بالله شيئًا دخل النار».++

ومن المعلوم أن الدين ثلاث مراتب أو الإيمان ثلاث مراتب، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[3]، وهذه المراتب الثلاث هى:

(١) الصارم المسلول، ص ٤٦٨-٤٦٩.
(٢) صحيح مسلم، ص٦٦، طبعة دار ابن رجب.
(٣) فاطر، آية: ٣٢.

١- مرتبة الإسلام أو الإيمان المجمل "الظالم لنفسه".

٢- الإيمان الواجب "المقتصد".

٣- الإحسان أو الإيمان الكامل المستحب "السابق بالخيرات".

وهذه المرتبة يجتمع فيها الدين كله فيشمل التوحيد وما زاد على ذلك من العمل بفعل الواجب وترك المحرم وما زاد على ذلك من العمل بفعل المندوب وترك المكروه والمسابقة إلى الخيرات والتوغل في التطوعات والإكثار من الحسنات والتقرب إلى الله بأوجه القربات والخيرات.

فإذا ذهب بعض الإحسان بقى بعضه، وقد يذهب كله[١] فيبقى الإيمان، وقد يذهب بعض الإيمان ويبقى بعضه، وقد يذهب كله[٢] ويبقى الإسلام أو التوحيد، والتوحيد يقع فيه التفاوت أو التفاضل بالكمالات وقد يذهب بعضها ويبقى بعضها أو تذهب كلها ويبقى ترك الشرك الأعظم، وهذا الترك لا يذهب بعضه ويبقى بعضه لأن التوحيد أن يكون الدين كله لله، والشرك أن يكون بعض الدين لله وبعضه لغيره.

وترك الشرك الأعظم لا تفاوت فيه ولا تفاضل ولا تبعيض ولا يذهب بعضه ويبقى بعضه ولا يصلح فيه الالتزام بدلاً من الفعل ولا الإجمال بدلاً من التفصيل، فمن التزم بترك الشرك الأعظم وترك جملة منه إلا أنه وقع في شرك أعظم، في فرد واحد من أفراد الشرك الأعظم، فقد مات يشرك بالله شيئًا وأوجب له ذلك الخلود في النار.

وقد حدَّد رسول الله ﷺ هذا الحد الفاصل بين الإيمان والكفر بالترك لأن الترك اجتناب والاجتناب ليس فيه تفاوت إما أن يقع أو لا يقع والتقوى فيه أن تجعل بين ما لا بأس به وما به بأس حِمى، فلا يقرب ما به بأس، وقلة التقوى

---

(١) للألفاظ عموم وخصوص، والمقصود هنا بكلمة "كله" ما زاد على الإيمان من عمل.

(٢) المقصود أيضا ما زاد على الإسلام من عمل.

أن يقع في المتشابه بين الحلال والحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه، ولكن من وقع في الحرام فقد وقع، ومن لم يقع فيه لم يقع، «إذا نهيتكم عن شيء فانتهوا، وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم».

فالإتيان يتفاوت ويتفاضل والترك يتماثل والتفاضل إذا وقع في الترك إنما هو في الباعث لا في نفس الترك، ولذلك حدد رسول الله ﷺ هذا الأمر بالترك، ولذا فهذه الموجبة موجبة: "من مات لا يشرك بالله شيئًا" متحققة في الملائكة والرسل والأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين من المقربين والأبرار وأصحاب اليمين وأهل الوعد والوعيد، والجهنميين عتقاء الرحمن أصحاب الخواتيم ممن لم يعملوا خيرًا قط زيادة على التوحيد، وهذا التحقق وإن لم يكن منفصلاً متميزًا عن غيره من العمل في حق كل هذه الفئات إلاَّ أنه ينفصل ويتميز في حق فئة منها وهي فئة الجهنميين أصحاب الخواتيم عتقاء الرحمن لأنهم ليس لهم عمل غير التوحيد أو ترك الشرك، فالكل متفق في هذه الموجبة إذ ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل، وليس وراء ترك الشرك إلا الكفر المخرج من الملة ﴿وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلاَئِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾(١) متفاوتون متفاضلون فيما زاد على ذلك، وفي الحديث «ثم تأتي هذه الأمة ممن يعبد الله من برٍّ أو فاجر».

وإذا قيل هذا نفيٌ فأين الإثبات؟ نقول: إن ترك الشرك الأعظم لا يمكن أن يتحقق إلا بما ينفي الشرك من التوحيد وهذا أمر وضحه شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره من العلماء وسيأتي بيان هذا، ووضحه توضيحًا مشهودًا جليًا الإمام عبد الرحمن بن حسن رحمه الله في شروط لا إله إلا الله، فلابد من أقل قدر من العلم ينفي الجهالة، وأقل قدر من اليقين يكفي

---

(١) آل عمران، آية: ٨٠.

لنفي الشك، وأقل قدر من الإخلاص يكفي لنفي الشرك، وأقل قدر من الصدق يكفي لنفي النفاق، وأقل قدر من الانقياد يكفي لنفي الترك، وأقل قدر من القبول يكفي لنفي الرد، وأقل قدر من المحبة يكفي لنفي ما يضادها من المحادة والمشاقة والمعاداة.

وهذا الأمر لا يجزئ فيه الالتزام أو البراءة الإجمالية أو الإقرار الإجمالي أو ما سوى ذلك من العبارات عن الإتيان والترك ولا يجزئ فيه الجملة عن التفصيل، ولا فرق فيه بين بدء واستمرار. فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَ نَعْبُدَ إِلاَ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[1]. فهذا ترك تفصيلي للشرك نبَّه على فرد من أفراده ﴿لاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ لأهميته ولمناسبته للمخاطبين.

وتفسير العلماء ﴿كَلِمَةٍ سَوَاءٍ﴾ لا نختلف فيها نحن ولا أنتم، تفسيرها ما بعدها ﴿أَلاَ نَعْبُدَ إِلاَ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي لا نقول عزير بن الله ولا المسيح بن الله ولا نعبد الملائكة ولا الأنبياء ولا الأصنام، ولا الطواغيت ولا نطيع الأحبار والرهبان فيما أحدثوا من التحريم والتحليل لأن كلاً منهم ﴿بَعْضُنَا﴾ بشر مثلنا يقول العلماء ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي عن التوحيد ــ لم يقولوا عن الالتزام بالتوحيد ولا عن البراءة الإجمالية ولا الإقرار الإجمالي ــ ﴿فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أي لزمتكم الحجة فاعترفوا بأننا مسلمون دونكم وأنكم كفرتم بما نطقت به الكتب وتتابعت عليه الرسل.

---

(١) آل عمران، آية: ٦٤.

وتفسير الكلمة بالتوحيد، ولا يفسر التوحيد بالكلمة هذا[1] هــو نــص القرآن، ومن قال بخلاف ذلك فقد قلَب حقائق القرآن وحرَّف نصّ القرآن، فالتوحيد تحقيق الكلمة، وليست الكلمة تحقيقًا للتوحيــد ولا تفــسيرًا لــه، فالتوحيد يحقق الكلمة ويفسرها، وتفسيرها ما بعدها ﴿أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّــهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّــهِ﴾ ومــن قلــب الحقائق أن يُقال أن التوحيد يتحقق بالكلمة أو يُفسر بالكلمة، ولهذا الأمــر مزيد بيان سيأتي ذكره.

وهذه هى حقيقة الإسلام ﴿فإنْ تولوا﴾ أي عــن التوحيــد ﴿فَقُولُــوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أي أننا مسلمون دونكم وأنكم كفرتم بما نطقــت بــه الكتب وتطابقت عليه الرسل، فمن حقق التوحيد فقد حقق الإســلام، ومــن تولي عن التوحيد فقد كفر بما نطقت به الكتب وتتابعت عليه الرسل، يقول رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة إلا نفسٌ مسلمة» و«لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة»[2]، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾، ويقول سبحانه وتعالى على لسان يعقوب: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلاَ تَمُــوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾. فالمعنى في الآيات كما ذكره المفــسرون أن المــسلم يحافظ على التوحيد وترك الشرك في كل أوقاته لأنه لا يدري متي يموت، حتى إذا جاءه الموت في أي وقت، مات موحدًا، أي مات مسلمًا.

ومن هذا نعلم أنه لا فرق في التوحيد وتــرك الــشرك، بــين بــدء واستمرار، في حقيقة الإسلام ولا تكفي براءة أو إقرار، وإنما لابــد مــن الإتيان والترك جملة وتفصيلاً وهذا هو التوحيد وهذه هى حقيقة الإسلام.

---

(١) المراد أن الكلمة السواء مُفَسَّرة بالتوحيد، ولا يُفَسَّر التوحيد بالتلفظ بالشهادتين دون ترك الشرك الأكبر بكل صوره.

(٢) صحيح مسلم، ص ٧٤.

حقيقة الشرك لا تجتمع مع حقيقة التوحيد:

فالنفس المسلمة والنفس المؤمنة هى التي تموت لا تشرك بالله شيئًا، وترك الشرك مستلزم للتوحيد، والتوحيد أن يكون الدين كله لله، والشرك أن يكون بعض الدين لله وبعضه لغيره، وعلى هذا فترك الشرك لا يمكن أن يذهب بعضه ويبقى بعضه، وإذا كان ترك الشرك أو "التوحيد" هو الإسلام فإن حقيقة الشرك الأعظم تنافي حقيقة الإسلام ولا تجامعه، ولا يمكن أن يجتمع إسلام وشرك ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنْ الْمُشْرِكِينَ﴾(١)، ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ﴾(٢)، ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾(٣). فلا تجتمع أصول الإسلام والتوحيد مع أصول الشرك لتنافي الحقيقتين، ولكن قد تجتمع فروع الإيمان وهي الطاعات مع فروع الكفر وهي المعاصي دون أن تجتمع أصول الإيمان مع أصول الكفر لتنافي الحقيقتين، والمشرك لا يسمى مسلما والكافر لا يسمي مؤمنًا، ومن آمن ببعض الكتاب وكفر ببعض فهو كافر، ومن فرَّق بين الله ورسله فقال أؤمن ببعض وأكفر ببعض فهو كافر.

لا يكفي الالتزام في ترك الشرك:

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ مِنْ إِمْلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُوا

(١) الأنعام، آية: ١٤.
(٢) آل عمران، آية: ٦٧.
(٣) الأنعام، آية: ١٦٢.

النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِــهِ لَعَلَّكُــمْ تَعْقِلُــونَ ۞ وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُــغَ أَشُــدَّهُ وَأَوْفُــوا الْكَيْــلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَــوْ كَــانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(١).

فمن قتل النفس فهو قاتل وإن التزم بترك القتل، ومن وقع في الشرك فهو مشرك وإن التزم بترك الشرك، ولكن حقيقة القتل لا تنـــافي حقيقـــة الإسلام بينما حقيقة الشرك تنافي حقيقة الإسلام، وبالنسبة للقتل تـــــرك أو لا ترك لا منزلة بينهما، وبالنسبة للشرك ترك أو لا ترك لا منزلة بينهما، وفي الاثنين عبَّر عن النهي بصيغة الفعل وليس بصيغة اسم الفاعل، فمــن وقع في الشرك فقد أشرك، ومن وقع في القتل مــرة واحــدة فقــد قتــل، والشرك رأس المحرمات ومن مات يُشرك بالله شيئًا دخل النار ومن مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة، ولا يدخل الجنة إلا نفسٌ مسلمة وإلاَّ نفــسٌ مؤمنة، ونحن مأمورون بألا نموت إلا ونحن مسلمون ولا نــدري متــى نموت فوجب أن نحافظ على الترك للشرك في كل أوقاتنا جملة وتفــصيلاً حتى إذا جاءنا الموت جاءنا مسلمين ﴿أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَــوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾(٢).

والنهي لا يتحقق إلاَّ بالاجتناب والاجتناب لا يتحقق إلا بالترك وليس بالتزام الترك أو البراءة من الشرك.

الفرق بين الشرك والمعاصي:

وفي "صحيح البخاري" (٣)، "باب المعاصي من أمر الجاهليـــة ولا يُكفّر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك" لقول النبيّ ﷺ: «إنَّك امــرؤ فيــك

(١) الأنعام، الآيتان: ١٥١-١٥٢.
(٢) يوسف، آية: ١٠١.
(٣) صحيح البخاري، ج١، ص ١٠٦.

جاهلية»، وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾(١).

وفي تفسير القسطلاني: "ولا يَكْفُر" بفتح الياء وسكون الكاف. "ولا يُكَفَّر" بضم الياء وفتح الكاف وتشديد الفاء المفتوحة "صاحبها بارتكابها" أي لا يُنسب إلى الكفر باكتساب المعاصي والإتيان بها "إلا بالشرك" أي بارتكابه، خلافًا للخوارج القائلين بتكفيره بالكبيرة، والمعتزلة القائلين أنه لا مؤمن ولا كافر واحترز بالارتكاب عن الاعتقاد، فلو اعتقد حل حرام معلوم من الدين بالضرورة كفر قطعًا، ثم استدل المؤلف لما ذكر فقال لقول النبيّ ﷺ: «إنَّك امرؤ فيك جاهلية» أي أنك في تعييره على خلق من أخلاق الجاهلية ولست جاهليًا محضًا وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ أي يكفر به ولو بتكذيب نبيه لأن من جحد نبوة الرسول مثلاً فهو كافر ولو لم يجعل مع الله إلهًا آخر والمغفرة منتفية عنه بلا خلاف ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء فصير ما دون الشرك تحت إمكان المغفرة، فمن مات على التوحيد غير مخلد في النار، وإنْ ارتكب من الكبائر غير الشرك ما عساه أن يرتكب. أهـ.

وواضح هنا بجلاء أن المسلم لا يكفر بارتكاب المعصية، ويكفر باعتقاد حل المحرم ويكفر بارتكاب الشرك دون اعتقاد حله، والشرك رأس المحرمات والشاهد اختلاف أحكام الشرك عن المعاصي.

وواضح أيضًا الفرق بين الشرك والمعاصي في الأحكام فمن تناول قضايا الشرك والتوحيد تناول المعاصي والطاعات فهو مخطئ لفروق الأحكام بينهما واختلاف أحكامهما، وواضح كفر من ارتكب الشرك بمجرد الارتكاب لا يمنع عنه ذلك اعتقاد ولا التزام ولا براءة إجمالية ولا أي شيء آخر، وليس الشأن هكذا في المعاصي فوضح الفرق.

---

(١) النساء، آية: ٤٨.

وفي "صحيح البخاري" (١) حدثنا أبو اليمان قال: أخبرنا شعيب عن الزهري قال: أخبرني أبو إدريس عائذ الله بن عبد الله أن عبادة بن الصامت ﷺ وكان شهد بدرًا وهو أحد النقباء ليلة العقبة أن رسول الله قال وحوله عصابة من أصحابه: «بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئًا ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصوا في معروف فمن وفَّي منكم فأجره على الله ومن أصاب مِنْ ذلك شيئًا فعوقب في الدنيا فهو كفارة له ومن أصاب من ذلك شيئًا ثم ستره الله فهو إلى الله إنْ شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه، فبايعناه على ذلك».

قال ابن حجر في التفسير(٢): «فإن قيل لمَ اقتصر على المنهيات ولم يذكر المأمورات؟ فالجواب، أنه لم يهملها بل ذكرها على طريق الإجمال في قوله ﷺ: «لا تعصوا» إذ العصيان مخالفة الأمر، والحكمة في التنصيص على كثير من المنهيات دون المأمورات، أن الكف أيسر من إنشاء الفعل، لأن اجتناب المفاسد مقدم على اجتلاب المصالح والتخلي عن الرذائل قبل التحلي بالفضائل قوله ﷺ «ومن أصاب من ذلك شيئًا فعوقب» زاد أحمد في روايته قوله ﷺ «فهو» أي العقاب كفارة زاد أحمد «له» وكذا هو للمصنف من وجه آخر في باب "المشيئة" من كتاب "التوحيد" وزاد «وطهور».

قال النووي: عموم هذا الحديث مخصوص بقوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾. فالمرتد إذا قتل على ارتداده لا يكون القتل له كفارة قلت وهذا بناء على أن قوله ﷺ «من ذلك شيئًا» يتناول جميع ما ذكر وهو ظاهر، وقد قيل يحتمل أن يكون المراد ما ذكر بعد الشرك بقرينة أن المخاطب بذلك المسلمون فلا يدخل حتى يحتاج إلى إخراجه ويؤيده رواية مسلم من طريق أبي الأشعث عن عبادة في هذا الحديث

(١) فتح الباري في شرح صحيح البخاري، ج١، ص ٨١-٨٣.
(٢) المصدر السابق، ص ٨١-٨٣.

«ومن أتى منكم حدًا» إذ القتل على الشرك لا يسمي حدًا، لكــن يعكــر على هذا القائل أن الفاء في قوله «فمن» لترتب ما بعدها على ما قبلها، وخطاب المسلمين بذلك لا يمنع التحذير من الإشراك وما ذكر في الحدّ عرف حادث فالصواب ما قال النووي. وقال الطيبي: الحق أن المــراد بالشرك: الشرك الأصغر وهو الرياء وتعقب بأن عــرف الــشارع إذا أطلق الشرك إنما يريد ما يقابل التوحيد، وقد تكرر هذا اللفظ في الكتاب والأحاديث حيث لا يُراد به إلا ذلك ويجاب بأن طلب الجمــع يقتــضي ارتكاب المجاز، فما قاله محتمل وإن كان ضعيفاً ولكن يعكر عليه أيضًا أنه عقب الإصابة بالعقوبة في الدنيا، والرياء لا عقوبة فيه فوضــح أن المراد هو الشرك وأنه مخصوص».

ويقول القسطلاني في الشرح(١): «ومقول قولــه ﷺ «بــايعوني» أي عاقدوني «على» التوحيد «أن لا تشركوا بالله شيئًا» أي على ترك الإشراك وهو عام لأنه نكرة في سياق النهي كالنفي وقدَّمه على ما بعده لأنه الأصل، على أن «لا تسرقوا» فيه حذف المفعول ليدل على العموم «ولا تزنــوا ولا تقتلوا أولادكم» خصهم بالذكر لأنهم كانوا فــي الغالــب يقتلــونهم خــشية الإملاق، ولأن قتلهم أكبر من قتل غيرهم وهو الوأد وهو أشنع القتل أو أنــه قتل وقطيعة رحم، فصرف العناية إليه أكثر «ولا تأتوا» بحذف النون ولغير الأربعة ولا تأتون «ببهتان» أي بكذب يبهت سامعه أي يدهــشه لفظاعتــه كالرمي بالزنا والفضيحة والعار وقوله ﷺ «تفترونــه» مــن الافتــراء أي تختلقونه «بين أيديكم وأرجلكم» أي من قبل أنفسكم فكنَّى باليد والرجل عــن الذات لأن معظم الأفعال بهما. إلى أن يقول: «ومن أصــاب» مــنكم أيهــا المؤمنون «من ذلك شيئًا» غير الشرك... إلخ. كما ذكر ابن حجر». أهـــ.

---

(١) إرشاد الساري إلى شرح صحيح البخاري، ج١، ص ١٣٣-١٣٤.

وواضح هنا أن الالتزام بترك المعاصي لا ينقضه الوقوع فيها ولا ينقض الالتزام إلا التزام بشرع آخر غير شرع الله سبحانه وتعالى حكمًا أو تحاكمًا أو تحكيمًا أو تشريعًا أو قبولاً لتشريع غير شرع الله أو رداً للشريعة، باستحلال المحرمات أو الإباء من قبول الفرائض أي إما رجوع إلى شرع آخر غير الشرع ـ أو برد الشرع دون رجوع إلى غيره ـ رجوعًا إلى مطلق الهوى.

أما الوقوع في المعاصي مع بقاء الالتزام بشرع الله سبحانه وتعالى لا يرغب عنه إلى غيره ولا يعدل به غيره فليس في هذا نقض للالتزام والميثاق مع الله ورسوله، أما من أصاب الشرك فهذا هو الكفر والذنب الذي لا يغفره الله سواء أكان ملتزمًا بترك الشرك أو غير ملتزم، فهذا التخصيص الذي ذكره العلماء ينفي تمامًا التسوية بين الشرك والمعاصي، ولو كان كذلك لاتفقت أحكامهما بأن تكون عقوبة الردة كفارة وأن يغفر الله الشرك بلا توبة، شأن المعاصي، فلما اختلف هذان الحكمان دلَّ على اختلاف الحكم الثالث وهو أن بقاء الالتزام لا ينفي الكفر عن المرتكب في حالة الشرك وينفيه في حالة المعصية، وقد نصَّ العلماء على أن الشرك لا يغفر إلا بالتوبة، أما المعاصي فتغفر بالتوبة والاستغفار والحسنات الماحية واجتناب الكبائر والمصائب المكفرة، وعذاب القبر وأهوال يوم القيامة ورجحان الحسنات على السيئات وشفاعة الغير والدعاء بظهر الغيب، وهبة الثواب وشفاعة الرسول ﷺ في أمته وفضل الله على عباده.

ومن اختلاف الشرك عن المعاصي أيضًا ما ذكره البخاري(١) وغيره من حديث رسول الله ﷺ في "باب ظلم دون ظلم" يقول البخاري: حدثنا أبو الوليد قال: حدثنا شعبة قال: حدثني بشر قال: حدثنا محمد بن شعبة عن

---

(١) إرشاد الساري إلى شرح صحيح البخاري، ص ١٥٦.

سليمان عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال: لما نزلت ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾[1] قال أصحاب رسول الله ﷺ أيُّنا لم يظلم فأنزل الله ﴿إنَّ الشرك لظلمٌ عظيمٌ﴾. يقول القسطلاني في التفسير بعد ذكر السند عن عبد الله بن مسعود ﷺ (لما نزلت) زاد الأصيلي قال: لما نزلت هذه الآية ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ وقوله بظلم أي بظلم عظيم أي لم يخلطوه بشرك إذ لا أعظم من الشرك، وقد ورد التصريح بذلك عند المؤلف من طريق حفص بن غياث عن الأعمش ولفظه قلنا: يا رسول الله أينا لم يظلم نفسه؟! قال: ليس كما تقولون، بل لم يلبسوا إيمانهم بظلم بشرك، ألم تسمعوا إلى قول لقمان، الآية.

لكن منع التيمي تصور[2] خلط الإيمان بالشرك وحمله على عدم حصول الصفتين لهم[3]. كفر متأخر عن إيمان متقدم أي لم يرتدوا، أو المراد أنهم لم يجمعوا بينهما ظاهرًا وباطنًا أي لم ينافقوا وهذا أوجه (قال أصحاب رسول الله ﷺ) وللأصيلي: النبيّ ﷺ أينا لم يظلم نفسه مبتدأ وخبر والجملة مقول القول فأنزل الله ولأبي ذر والأصيلي فأنزل الله عزَّ وجلّ عقب ذلك ﴿إنَّ الشرك لظلمٌ عظيمٌ﴾ .إلى أن يقول: والمراد بالظلم أعلى أنواعه وهو الشرك، وإنما فهموا حصر الأمن والاهتداء فيمن لم يلبس إيمانه حتى ينتفيا عمن لبس من تقديم لهم على الأمن في قوله﴿ لَهُمُ الأَمْنُ﴾ أي لهم لا غيرهم ومن تقديم ﴿وَهُم﴾ على ﴿مُّهْتَدُونَ﴾ .

---

(١) الأنعام، آية: ٨٢.

(٢) بل هو صحيح لأن المقصود بالإيمان هنا ليس معناه الشرعي المستلزم لترك الشرك، إذ لو كان كذلك لكان المنع صحيحًا والتأويلان المذكوران صحيحان ولكن الإيمان هنا هو بالمعنى اللغوي أو الشرعي المقيد الذي لا يتم بمفرده دخول الملة حتى ينضاف لازمه وهو الإسلام وهو ترك الشرك فتكون الآية نصًا في وجوب ذلك. قال ابن عباس: "إيمانهم إقرارهم وشركهم أنهم يعبدون مع الله غيره".

(٣) لأنهما ضدان لا يجتمعان وأحدهما ينفى الآخر.

وفي الحديث أن المعاصي لا تسمي شركًا وأن مَنْ لم يشرك بالله شيئًا(١) فله الأمن وهو مهتدي لا يُقال أن العاصي قد يُعذب في هذا الأمن والاهتداء الذي حصل له لأنه أجيب أنه أمن من الخلود في النَّار مهتد إلى طريق الجنة. أهـ.

وفيه أيضًا أن درجات الظلم متفاوتة(٢) كما تُرجم وأن العام يطلق ويراد به الخاص فحمل الصحابة ذلك على جميع أنواع الظلم فبين الله تعالى أن المراد نوع منه وأن المفسر يقضي على المجمل وأن النكرة في سياق النفي تعم وأن اللفظ يُحمل على خلاف ظاهره لمصلحة دفع التعارض (٣). أهـ.

---

(١) ذكر المفسر شيئًا لأن الرسول الكريم ﷺ فسر "ظلم " وهى نكرة بشرك وهى نكرة. فأصبحت لفظة "شرك" بدلاً من لفظة "ظلم" نكرة فى سياق النفى تفيد العموم وهو حجة فى ان المجزئ فى ترك الشرك هو تركه جملة وتفصيلاً ليس مجرد الالتزام بالترك او البراءة الإجمالية.

(٢) واعلى درجات الظلم هو نهاية التفاوت فلا تفاوت فيه.

(٣) للإمام الشاطبى فى ذلك: ألاً تخصيص فى اللفظ لأن المعنى المستفاد من السياق هو ظلم الشرك وأن الصحابة رضوان الله عليهم تخوفوا من عمومه لما دون الشرك من فرط التقوى وفى الآية ما يفيد أن ما دون الشرك له حظ من نقص الأمن والهداية لمشاركته مع الشرك فى لفظ الظلم ولكن لا يختص بالحكم وهو نفى الأمن والهداية بإطلاق فذلك لا يكون إلا للشرك فالإيمان إذا كان بمعنى الإقرار والتصديق فقط فإذا اختلط به واجتمع معه الشرك فإن صاحبه لا يكون مسلمًا وإذا كان الإيمان بمعنى الإقرار والتصديق وترك الشرك ثم ورد عليه شرك فإن صاحبه يصير كافرًا ففى الحالتين لا يجتمع إيمان بمعناه الشرعى الذى تتحقق معه حقيقة الإسلام ودخول الملة فى الحقيقة وفى نفس الأمر مع الشرك فى وقت واحد فإن الشرك إما أن يمنع حقيقة الإسلام ويوجب الكفر وإما أن يرد عليها فيصير صاحبه كافرًا بهذا الورود ولا فرق فى ذلك بين بدء واستمرار فلا يوجد وقت يكون مسموحًا فيه بهذا الاختلاط مع بقاء حقيقة الإسلام ثم يوجد وقت آخر لا يكون مسموحًا فيه بهذا الاختلاط، بل هذا الاختلاط فى كل الأوقات يمنع حقيقة الإسلام أو يغيرها إلى الكفر.

وهنا واضح أن وقوع الشرك أيْ الشرك الأعظم أيُّ فرد من أفــراد الشرك الأعظم ينفي الأمن والهداية بإطلاق، أي يوجب الخلود في النـــار ولو كان ملتزمًا بترك الشرك تاركًا لجملة منه، وهذا هو تفسير رسول الله ﷺ بظلم بشركٍ، نكرة في سياق النفي تفيد العموم وذلك مثل كلمة "شــيئًا" التي تفيد الاستغراق في غالبية النصوص التي تحرم الشرك ﴿ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾، «من مات يشرك بالله شيئًا دخل النار»، وقــول الله ﷻ: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُــمْ إِنَّــهُ مَــنْ يُشْــرِكْ[١] بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّــالِمِينَ مِــنْ أَنصَارٍ﴾[٢] حقيقة الشرك تنافي توحيد العبــادة وتوحيــد الاعتقــاد الــذي يستلزمه توحيد العبادة، ولا تجتمع معه وهي تنافي حقيقــة الإســلام لأن حقيقة التوحيد وحقيقة الإسلام واحدة وهي منافية لحقيقة الشرك ولا تجتمع معها، والمشرك لا يكون مسلمًا أبدًا والمسلم لا يكون مشركًا أبدًا لتنــافي الحقيقتين، كالطول والقصر والنور والظلمــة والحيــاة والمــوت... إلــخ ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنْ الْمُشْرِكِينَ﴾[٣]، ﴿حَنِيفًــا وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ﴾[٤].

وإذا كان اختلاط الإيمان مع أي فرد من أفــراد الــشرك "بــشرك" يصير به المؤمن كافرًا وينتفي عنه الأمن والهداية بإطلاق، فكيف يجتمــع مع ما يسمونه الإقرار الإجمالي والبراءة الإجمالية وعقد الإسلام وهو مــا يسمونه إيمانًا إنكارُ البعث، والشك في قدرة الله تعالى، والشك في علمــه

---

(١) صيغة الفعل تفيد المرة الواحدة.

(٢) المائدة، آية: ٧٢.

(٣) الأنعام، آية: ١٤.

(٤) النحل، آية: ١٢٣.

وعبادة غير الله وإهانة المقدسات ثم يبقي مع ذلك مسلمًا مؤمنًا بهذه الحصانة من الكفر مع الاستغراق في كل صور الشرك حتى أذنيه، هل هذا إلا مصادمة النصوص كفاحًا.

والمرجئة ــ وهي لم تبلغ هذا ــ لا يفرقون بين المعاصي والشرك ولا شيء عندهم غير التلفظ والانتساب وما سوى ذلك فهو معاصي.

والخوارج تجعل الجميع شركًا، وأهل السنة يفرقون بين الشرك والمعاصي فلا يسوون بينهما في الأحكام فيقولون:

- التوحيد وضده الشرك.
- السنة وضدها البدعة.
- الطاعة وضدها المعصية.

فالتوحيد غير السنة، والسنة غير الطاعة، والشرك غير البدعة والبدعة غير المعصية.

وعند المرجئة كله طاعات ومعاصي بعد الانتساب والتلفظ.

وكل المخالفات حتى المعصية عند الخوارج كله شرك.

والتمييز بين هذه الأمور في حدودها وأحكامها وقواعدها يتميز به أهل السنة عن غيرهم.

الباب الثانـي

حقيقـــة الإســـلام

الإسلام هو التوحيد أو التوحيد هو الإسلام والكلمة السواء والدين الواحد والدين الذي لا يقبل الله غيره، ودين الأنبياء وأصل الدين.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية[١]:«... ولما كان الكبر مستلزمًا للشرك والشرك ضد الإسلام، وهو الذنب الذي لا يغفره الله قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[٢]. كان الأنبياء جميعًا مبعوثين بدين الإسلام، فهو الدين الذي لا يقبل الله غيره لا من الأولين ولا من الآخرين. قال نوح عليه السلام: ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنْ الْمُسْلِمِينَ﴾[٣]، وقال تعالى في حق إبراهيم:﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَابَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلاَتَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[٤]، وقال موسى عليه السلام: ﴿يَاقَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾[٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾[٦]، وقالت بلقيس: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾[٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ﴾[٩]، وقال جل جلاله: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾[١٠]». أهـ.

---

(١) رسالة العبودية، ص٣٤.
(٢) النساء، آية: ٤٨.
(٣) يونس، آية: ٧٢.
(٤) البقرة، الآيتان: ١٣١-١٣٢.
(٥) يونس، آية: ٨٤.
(٦) المائدة، آية: ٤٤.
(٧) النمل، آية: ٤٤.
(٨) المائدة، آية: ١١١.
(٩) آل عمران، آية: ١٩.
(١٠) آل عمران، آية: ٨٣.

حقيقة واحدة ــ وإن تنوعت الانتسابات وتنوعت الشرائع ــ بُعث بها الأنبياء وهي الانقياد لله سبحانه وتعالى الذي انقادت له السموات والأرض طوعًا وكرهًا وهي حقيقة الاستسلام لله سبحانه بترك الشرك والكبر، وهو مستلزم للشرك، ولذلك كان الشرك ذنبًا لا يغفره الله وكان الإسلام المتحقق بترك الشرك هو الدين الذي لا يقبل الله غيره من الأولين والآخرين ــ فلا إسلام يقبل مع الشرك لا من الأولين ولا من الآخرين ــ ولا إسلام يتحقق مع الشرك، ولا إسلام بالانتساب إنما الإسلام بالاستسلام الذي لا يتحقق إلا بترك الشرك والكبر.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية(١): «وأما الكتب السماوية المتواترة عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فقاطعة بأن الله لا يقبل من أحد دينًا سوى الحنيفية وهي الإسلام العام: عبادة الله وحده لا شريك له والإيمان بكتبه ورسله واليوم الآخر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(٢). وبذلك أخبرنا عن الأنبياء المتقدمين وأئمتهم، قال نوح: ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنْ الْمُسْلِمِينَ﴾(٣)، وقال في آل إبراهيم: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِى الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِى الآخِرَةِ لَمِنْ الصَّالِحِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَابَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾(٤)، وقال ﷻ: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾(٥)،

(١) الفتاوى الكبرى، ص٣٣٥، مسألة٣٣٣.
(٢) البقرة، آية: ٦٢.
(٣) يونس، آية: ٧٢.
(٤) البقرة، الآيتان: ١٣١-١٣٢.
(٥) المائدة، آية: ٤٤.

وقال فى الحواريين: ﴿أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾(١)، وقد قال مطلقًا: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۞ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ﴾(٢)، وقال ﷻ: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ۞ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى الآخِرَةِ مِنْ الْخَاسِرِينَ﴾(٣)». أهـ.

هذا شيخ الإسلام ابن تيمية يقول بوضوح نقلاً عن السلف والقرون الثلاثة الأولى أن الكتب السماوية المتواترة عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فقاطعة بأن الله لا يقبل من أحد سوى الحنيفية وهي الإسلام العام عبادة الله وحده لا شريك له والإيمان بكتبه ورسله واليوم الآخر.

وهؤلاء يقولون أن الله يقبل من العبد كل صور الشرك والكفر من عبادة غير الله كسجود معاذ، والشك فى قدرة الله كسؤال الحواريين ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾(٤)، والشك فى علم الله كسؤال عائشة عن علم الله بما فى نفسها، وإنكار البعث كالرجل الذي ذرى نفسه، وإهانة المقدسات كفعل موسى كليم الله عندما ألقي الألواح(٥)، فلا بأس على المسلم إذا أهان المصحف وألقاه فى الحش كل هذا لا ينقض حقيقة الإسلام ولا يتنافى معه ولا بأس منه على المسلم إذا كانت معه البراءة الإجمالية من الشرك والإقرار الإجمالي بالتوحيد وعقد الإسلام، وإذا مات على كل هذا الشرك مع هذه الحصانات مات مسلمًا ودخل الجنة... إلى آخر هذا الهراء.

---

(١) المائدة، آية: ١١١.
(٢) آل عمران، الآيتان: ١٨-١٩.
(٣) آل عمران، آية: ٨٤.
(٤) المائدة، آية: ١١٢.
(٥) كل هذا بزعمهم وكل المذكورين مبرءون مما نسبوه إليهم.

سبحانك هذا بهتانٌ عظيمٌ، فالحواريون وموسى كليم الله وهو واحد من أولي العزم من الرسل لا ينجيه من الكفر إلا الجهل، وكذلك عائشة ومعاذ والله سبحانه وتعالى يقبل من العبد كل صور الشرك والكفر... هكذا!! وإذا مات على ذلك مات مسلمًا ودخل الجنة!! من أين جاءوا بهذا الهراء والافتراء على الله يقول ربنا ﷻ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ الأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ۞ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمْ الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ۞ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾(١).

وقريب من هذا عقائد أصحاب "فقه الأقلية" يبشرون بها من زمن ووراءهم كتائب الاعتدال؟! في إطار الاتجاهات الحديثة في الإسلام التي تحررت من الأصولية وواكبت العصر وأطلقت لمجتهديها العنان للبروسترويكا الإسلامية حتى تنطلق الصحوة الإسلامية فى آفاق جديدة وتخرج عن الجمود؟؟ (كما يقال).

ولكن لم تبلغ من الجرأة أن يُدَّعى أن هذا الهراء هو مذهب السلف وهو دلالة نصوص الكتاب والسنة، أما هؤلاء فلا يختلف قولهم، ولكنهم أكثر جرأة على الله منهم وإذا سهل عندهم افتراء الكذب على الله فما الذي يحول بينهم وبين الافتراء على السلف وعلى شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ ﴿أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾(٢) وصدق رسول الله ﷺ: «مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت» رواه البخاري.

---

(١) محمد، آيات: ٢٥-٢٨.

(٢) هود، آية: ٩٢.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية[١]: «وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[٢] أمر مع القسط بالتوحيد الذي هو عبادة الله وحده لا شريك له وهذا أصل الدين، وضده الذنب الذي لا يُغفر قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[٣]، وهو الدين الذي أمر الله به جميع الرسل وأرسلهم به إلى جميع الأمم قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنْ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[٥]، وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنْ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[٦]، وقال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۞ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾[٧].

ولهذا ترجم البخاري فى صحيحه "باب ما جاء فى أن دين الأنبياء واحد" وذكر الحديث الصحيح فى ذلك. وهو الإسلام العام[٨] الذي اتفق عليه جميع النبيين قال نوحٌ عليه السلام: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنْ الْمُسْلِمِينَ﴾[٩]، وإبراهيم عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَابَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ

---

(١) الفتاوى الكبرى، ج١، ص٣٤٨، مسألة ٢٣٤.
(٢) الأعراف، آية: ٢٩.
(٣) النساء، آية: ٤٨.
(٤) الأنبياء، آية: ٢٥.
(٥) النحل، آية: ٣٦.
(٦) الشورى، آية: ١٣.
(٧) المؤمنون، آية: ٥١.
(٨) التوحيد هو الإسلام العام، والتوحيد هو عبادة الله وحده لا شريك له وضده الشرك الذى لا يغفره الله والإسلام العام هو أصل الدين الذى أرسلت به جميع الرسل إلى جميع الأمم.
(٩) يونس، آية: ٧٢.

مُسْلِمُونَ﴾[١]، وقال موسى عليه السلام: ﴿يَاقَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾[٢]، وعن عيسى عليه السلام ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[٣]، وقالت بلقيس: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾[٥].

وهذا التوحيد الذي هو أصل الدين هو أعظم العدل وضده وهو الشرك أعظم الظلم كما أخرج الشيخان فى الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال لما نزلت هذه الآية ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾[٦]. شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: أينا لم يظلم نفسه؟ فقال: ألم تسمعوا إلى قول العبد الصالح ﴿إنَّ الشرك لظلمٌ عظيمٌ﴾». أهـ.

هذا ما يقوله شيخ الإسلام ابن تيمية الإسلام هو التوحيد، لم يقل الإسلام هو التلفظ، ولم يقل الإسلام هو الانتساب، ولم يقل الإسلام هو عقد الإسلام، والإسلام والتوحيد وهما شيء واحد معناهما أن نعبد الله ولا نشرك به شيئًا كما جاءت بها النصوص، وشيئًا نكرة فى سياق النهي تفيد الاستغراق، فمن التزم بالتوحيد والبراءة من الشرك وترك جملة من الشرك وأقر بالتوحيد وأشرك مع ذلك بالله شيئًا لم يكن قد عبد الله وحده ولم يشرك به شيئًا، ويكون قد أتى بالشرك الذي هو أعظم الظلم والذنب الذي لا يغفره الله ــ عمومًا ليس له تخصيص ــ وهو ضد التوحيد وضد الإسلام لأن الإسلام والتوحيد شيء واحد ووقوع الشرك ينفي التوحيد وينفي الإسلام والمشرك لا يكون مسلمًا بأي حال من الأحوال، والأنبياء عندما جاءوا بدين

---

(١) البقرة، الآيتان: ١٣١-١٣٢.
(٢) يونس، آية: ٨٤.
(٣) آل عمران، آية: ٥٢.
(٤) النمل، آية: ٤٤.
(٥) المائدة، آية: ٤٤.
(٦) الأنعام، آية: ٨٢.

الإسلام لم يشتركوا فى مجرد الاسم، ولم يشتركوا فى انتساب ولا تلفظ، بل انتساباتهم[1] مختلفة وتلفظاتهم مختلفة وشرائعهم متنوعة، ولم تجمعهم غير حقيقة واحدة هى الإسلام أن نعبد الله ولا نشرك به شيئًا، ونؤمن بالله والكتب والرسل والملائكة واليوم الآخر والقدر خيره وشره، فمن فرق بين الله ورسله وقال نؤمن ببعض ونكفر ببعض ليس مسلمًا، ومن كان عدوًا لجبريل وميكال فإنَّ الله عدوٌ للكافرين، ومن فرَّق بين أحكام الله وأخباره فقبل بعضها ورد البعض الآخر فقد آمن ببعض الكتاب وكفر ببعض، ومن صدَّق بعض أخباره وكذَّب البعض الآخر فقد كذب الله سبحانه فى كل ما قال وجعل القرآن عضين. هذه بديهيات كان يعلمها الغلام فى الكُتَّاب والجارية فى خدرها والراعي يسوق غنمه وإبله فماذا حدث فى آخر الزمان، ويلٌ للعرب من شرٍ قد اقترب ولا حول ولا قوة إلا بالله.

يقول ابن كثير[2] ﷺ فى تفسير قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[3]: «هذا إخبار عن الأمم المختلفة الأديان باعتبار ما بعث الله به رسله الكرام من الشرائع المختلفة فى الأحكام المتفقة فى التوحيد كما ثبت فى "صحيح البخاري" عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «نحن معاشر الأنبياء أخوة لعلات ديننا واحد» يعني بذلك التوحيد الذي بعث الله به كل رسول أرسله وضمنه كل كتاب أنزله كما قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فى كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنْ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[5].

---

(١) يقول الله عز وجل: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِؤُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وعَمِلَ صَالِحًا فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (المائدة، آية: ٦٩).
(٢) تفسير ابن كثير، ج٢، ص٦٦.
(٣) المائدة، آية: ٤٨.
(٤) الأنبياء، آية: ٢٥.
(٥) النحل، آية: ٣٦.

وأمَّا الشرائع فمختلفة فى الأوامر والنواهي فقد يكون الشيء فى هذه الشريعة حرامًا ثم يُحل فى الأخرى وبالعكس وخفيفًا فيزداد فى الشدة فى هذه دون هذه لما له تعالى من الحجة الدامغة والحكمة البالغة، قال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[1]. يقول سبيلاً وسنة، والسنن مختلفة هى فى التوراة شريعة وفي الإنجيل شريعة وفي الفرقان شريعة يحل الله ما يشاء ويحرم ما يشاء ليعلم من يطيعه ممن يعصيه، والدين الذي لا يقبل الله غيره: التوحيد والإخلاص لله تعالى الذي جاء به جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام». أهـ.

ويقول البيضاوي[2]: فى تفسير قوله تعالى ﴿قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[3] يقول: «﴿كَلِمَةٍ سَوَاءٍ﴾.لا يختلف فيها الرسل والكتب وتفسيرها ما بعدها ﴿أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ﴾. ولا نقول عزيرٌ بن الله ولا المسيح بن الله ولا نطيع الأحبار أو الرهبان فيما أحدثوا من التحريم والتحليل لأن كلاً منهم بشر مثلنا روى أنه لما نزلت ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾[4]. قال عدي بن حاتم: ما كنا نعبدهم يا رسول الله قال: أليس كانوا يحلون لكم ويحرمون فتأخذون بقولهم قال: نعم قال: (هو ذاك) فإن تولوا عن التوحيد ﴿فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾، أي لزمتكم الحجة أو اعترفوا بأننا مسلمون دونكم أو اعترفوا بأنكم كفرتم بما نطقت به الكتب وتطابقت عليه الرسل». أهـ.

---

(١) المائدة، آية: ٤٨.

(٢) تفسير البيضاوى.

(٣) آل عمران، آية: ٦٤.

(٤) التوبة، آية: ٣١.

هذا هو الإسلام، وهذه هى حقيقة الإسلام، تحقيق الكلمة بالتوحيد مَنْ يأت الله بغير هذا لأي سبب كان ولأي عذر كان فلن يُقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين، ومن يرد أن يتقرب إلى الله بغير هذا فلن يُقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين.

وإذا كان الدين هو مطلق الطاعة والانقياد فإن الله لا يقبل أي انقياد كان وأي طاعة كانت وإنما يقبل فقط طاعة معينة محددة هى الإسلام الذي لا يتحقق إلا بتحقيق الكلمة بالتوحيد إتيانًا وتركًا وليس التزامًا وإقرارًا بالتوحيد أو براءة إجمالية أو عقد انتساب يُعفيه من جريمة الشرك، ويُخصص عموم قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾(١)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ﴾(٢)، ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فى الآخِرَةِ مِنْ الْخَاسِرِينَ﴾(٣) لأن هذه العمومات قطعية لا تخصيص لها البتة بأي حال من الأحوال، والعمومات المكية إذا كانت عارية عن التخصيص لأنها قواعد الدين الكلية، فالعمومات الراجعة إلى أصل الدين وأصل التوحيد أولى منها بذلك.

أما الانتسابات فمتنوعة وعقود هذه الانتسابات متنوعة وكل هذا ليس له تأثير فى الحقيقة، فالله سبحانه يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(٤).

ويقول عن النصارى فى سياق المدح: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ

---

(١) النساء، آية: ٤٨.
(٢) آل عمران، آية: ١٩.
(٣) آل عمران، آية: ٨٥.
(٤) البقرة، آية: ٦٢.

قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ ۞ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنْ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنْ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾(١).

وهؤلاء هم الذين قال عنهم فى سورة القصص: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ۞ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ۞ أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۞ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لاَ نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾(٢).

وقال عن اليهود فى سياق المدح: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾(٣)، ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾(٤)، ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾(٥).

وقال عن الاثنين فى سياق الذم: ﴿وَقَالَتْ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ۞ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(٦)، وقال سبحانه: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾(٧). والمغضوب عليهم هم اليهود والضالون هم النصارى، وقال

---

(١) المائدة، الآيتان: ٨٢-٨٣.
(٢) القصص، الآيات: ٥٢-٥٥.
(٣) الأعراف، آية: ١٣٧.
(٤) الأعراف، آية: ١٥٩.
(٥) الأعراف، آية: ١٥٦.
(٦) التوبة، الآيتان: ٣٠-٣١.
(٧) الفاتحة، آية: ٧.

ﷻ: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾(١).

فالانتساب متحقق لليهود والنصارى حتى اليوم، ولم يكن فى يوم من الأيام حصانة من الشرك يمنع منافاته للإسلام ويمنع وقوع الكفر به ويمنع الخلود فى النار به يوم القيامة، وكذلك عقد هذا الانتساب مع أنبيائهم متحقق حتى اليوم وليس له أيضًا هذا التأثير، وكذلك إقرارهم الإجمالي بالتوحيد وبراءتهم الإجمالية من الشرك متحقق هم يقولون ثلاثة، وإذا سألتهم قالوا لا نعبد إلا إلهًا واحدًا وليس للمخلوقات إلا خالق واحد، وإذا كانت هذه الأشياء المتحققة لهم حتى اليوم من الانتساب وعقد الانتساب والإقرار الإجمالي بالتوحيد والبراءة الإجمالية من الشرك تمنع وقوع كفرهم بارتكابهم لمفردات الشرك والجحود وما إلى ذلك فإن إنكارهم لرسالة محمد ﷺ هو فرد من مفردات الشرك والكفر فيجب بناءً على هذا ألا يكفروا به، وهذا معلوم بطلانه من ديننا بالضرورة «ما يسمع بي يهوديٌ أو نصرانيٌ ثم لا يؤمن بي إلا وجبت له النار» والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ﴾(٢).

والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ۞ وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلاَئِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾(٣).

---

(١) المائدة، آية: ٧٢.
(٢) آل عمران، آية: ٦٧.
(٣) آل عمران، الآيتان: ٧٩-٨٠.

يقول ابن كثير فى تفسيره[1]: «أي لا يأمركم بعبادة أحد غير الله لا نبي مرسل ولا ملك مقرب ﴿أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾. أي لا يفعل ذلك إلا من دعا إلى عبادة غير الله ومن دعا إلى عبادة غير الله فقد دعا إلى الكفر، والأنبياء إنما يأمرون بالإيمان وهو عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[2] وقال إخبارًا عن الملائكة: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ [3]». أهـ.

يقول الله سبحانه وتعالى:﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ﴾[4].

وكل ردة وقعت على مدار التاريخ البشري كله إنما كانت بعد انتساب ومع وجود عقد الانتساب ومع الإقرار بالتوحيد والبراءة من الشرك وإنما وقعت بمفردات الشرك أو الشك أو الجحود وتتابع الأمر حتى أصبحوا يورّثون أبناءهم ما هم عليه، وأصبح الحق فى غربة، فكانت الجاهلية هكذا دومًا على مدار التاريخ البشري كله مع كل الرسل يقول الله ﷻ: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمْ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنْ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[5].

يقول شيخ الإسلام[6]: «قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ يعني فاختلفوا كما فى سورة يونس وكذلك فى قراءة بعض الصحابة، وهذا على

---

(١) تفسير ابن كثير، ج١، ص٣٧٧.
(٢) الأنبياء، آية: ٢٥.
(٣) الأنبياء، آية: ٢٩.
(٤) المائدة، آية: ٧٣.
(٥) البقرة، آية: ٢١٣.
(٦) منهاج السنة، ج٣، ص٦٥.

قراءة الجمهور من الصحابة والتابعين أنهم كانوا على دين الإسلام وفي تفسير ابن عطية أنهم كانوا على الكفر وليس هذا بشيء وتفسير ابن عطية عن ابن عباس ليس بثابت عن ابن عباس بل قد ثبت عنه أنه قال: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام. وقد قال تعالى في سورة يونس ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾ فذمهم على الاختلاف بعد أن كانوا على دين واحد فعلم أنه كان حقًا». أهـ.

وكلامنا عن الشرك وليس عن المعاصي وكما قال البخاري: "المعاصي من أمر الجاهلية ولا يَكْفُر أو يُكَفَّر بارتكابها إلا بالشرك". فالشرك يُكَفِّر المسلم ويَكْفُر بارتكابه، وأمَّا المعاصي فلا يُكَفِّر بارتكابها إلا الخوارج، ومن لم ير الشرك كفرًا يكفر المسلم بمجرد ارتكابه كان مكذبًا لصريح القرآن منكرًا لمعلوم من الدين بالضرورة والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلاَئِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾(١).

وإذا كان ارتكاب اليهود والنصارى للشرك ينفي عنهم الإسلام ويوجب لهم الكفر بانتفاء الإسلام رغم انتسابهم لدين الإسلام ورغم إقرارهم الإجمالي بالتوحيد وبراءتهم الإجمالية من الشرك فإن نفس القاعدة تسري علينا، فالذين آمنوا، والنصارى، واليهود والصابئون، سواء في هذه القاعدة لأن دين الأنبياء واحد يتحقق بالتوحيد وينتفي بالشرك والكبر، ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾(٢) ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾(٣)، وكلامنا إنما هو على حقيقة الإسلام، والإمام البخاري يقول: باب "إذا لم يكن الإسلام على الحقيقة

---

(١) آل عمران، آية: ٨٠.
(٢) الزمر، آية: ٦٥.
(٣) الأحزاب، آية: ٤.

وكان على الاستسلام أو الخوف من القتل لقوله تعالى: ﴿قَالَتْ الأعْـرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا ولَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾" [١]. فإذا كان على الحقيقة فهو على قوله جلَّ ذكره ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ﴾[٢].

• **حقيقة الإسلام من حيث اللفظ:**

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية[٣]: «وكـل واحـد مـن المـستكبرين والمشركين ليسوا مسلمين... بل الإسلام هو الاستسلام لله وحـده، ولفـظ الإسلام يتضمن الاستسلام لله ويتضمن إخلاصه لله، وقد ذكر ذلـك غيـر واحد من أهل العربية كأبي بكر بن الأنباري وغيره، ومن المفسرين مـن يجعلهما قولين كما يذكر طائفة منهم البغوي: إن المسلم هو المستـسلم لله، وقيل هو المخلص، والتحقيق أن المسلم يجمع بين هذا وهذا فمن لم يستسلم لله لم يكن مسلمًا، ومن استسلم لغيره كما يستسلم له لم يكن مسلمًا، ومـن استسلم له وحده فهو المسلم، كما فى القرآن ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْـلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾[٤] والاستسلام له يتضمن الاستسلام لقضائه وأمره ونهيه ﴿إِنَّـهُ مَـنْ يَتَّـقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[٥]». أهـ.

وهؤلاء يقولون المشركون مسلمون إذا كان معهم عقد الإسـلام لـم ينتسبوا مع وقوعهم فى الشرك إلى دين آخر أو يرفـضوا الانتـساب لأي دين، ويقولون هم مسلمون وإن كانوا مشركين إذا كـان معهـم الإقـرار الإجمالي بالتوحيد والبراءة الإجمالية مـن الـشرك دون أن يكـون لهـذا الإقرار الإجمالي وهذه البراءة الإجمالية حقيقة يمكن أن يقف أحد عليها أو

(١) الحجرات، آية: ١٤.
(٢) آل عمران، آية: ١٩.
(٣) رسالة النبوات، ص٧٣-٧٤.
(٤) النساء، آية: ١٢٥.
(٥) يوسف، آية: ٩٠.

يمكن لأحد تحصيل معناها وحدّها، وليس لها في الواقع إلا معنى الانتساب، فمن ظل منتسبًا إلى الإسلام عندهم فهو المسلم فى الحقيقة وإن مات على ذلك دخل الجنة لمجرد الانتساب وإن كان "مشركًا"، "شاكًا"، "مكذبًا" ينكر البعث ويعبد غير الله ويشك فى علم الله وقدرته، ويهين المقدسات ويقول[١] إن لله صاحبة وولدًا وأنه سبحانه يلد ويولد وأنه اتخذ الملائكة إناثًا، وأن بينه وبين الجِنَّةِ نسبًا، أي لو جمع كل الكفريات والشركيات قولاً وعملاً واعتقادًا فإنه مسلم فى الحقيقة لمجرد الانتساب، هذه هى حقيقة دعواهم وعقيدتهم، ومسألة الانتساب لها حقيقة يمكن الوقوف عليها وإن كانت باطلاً، أما الإقرار الإجمالي بالتوحيد والبراءة الإجمالية من الشرك فقولان ليس لهما حقيقة يمكن الوقوف عليها، والمعروف عن التوحيد وترك الشرك أنه لا يتحقق إلا بالإتيان والترك قولاً وعملاً، ظاهرًا، وباطنًا، وليس غريبًا أن يلجأ البعض إلى ألفاظ لا حقيقة لها يلبس بها على الناس دينهم فقد وقع هذا قديمًا وقديمًا قالوا:

مما يقال ولا حقيقة عنده ... معقولة تدنو إلى الإفهام

الكسب عند الأشعري والحال ... عند البهشمي وطفرة النظام

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية[٢]: «والله أرسل رسوله بالإسلام والإيمان بعبادة الله[٣] وحده، وتصديق الرسول فيما أخبر[٤]. فالأعمال عبادة الله، والعلوم تصديق الرسول وكان النبيّ يقرأ فى ركعتي الفجر تارة بسورتي الإخلاص، وتارة ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ الآية، فإنها تتضمن: الإيمان والإسلام، وبالآية ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ﴾ الآية».

---

(١) حسب قواعدهم التي أصَّلوها، وأحيانا يصرحون ببعض هذا.
(٢) رسالة النبوات، ص٨٦.
(٣) وهى الإسلام.
(٤) وهو الإيمان.

ويقول[١]: «والإرادة إرادة ما أمروا به، وذلك عبادة الله وحده لا شريك له فهذه هى السعادة وذلك إنما يكون بتصديق رسله وطاعتهم فلهـذا كانـت السعادة متضمنة لهذين الأصلين: الإسلام والإيمان، عبادة الله وحده وتصديق رسوله، وهو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله قال تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾[٢]. قـال أبـو العاليـة همـا خصلتان يسأل عنهما كل واحد: من كنت تعبد؟ وبماذا أجبت المرسلين؟».

إلى أن يقول: وقد قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فى الآخِرَةِ مِنْ الْخَاسِرِينَ﴾[٣]. والإسلام هو دين جميع الأنبيـاء والمرسلين ومن اتبعهم من الأمم كما أخبر الله بنحو ذلك فى غير موضـع فى كتابه. فأخبر عن نوح وإبراهيم وإسرائيل أنهم كانوا مسلمين وكـذلك عن أتباع عيسى وموسى وغيرهم، والإسلام هو أن يستـسلم لله لا لغيـره فيعبد الله ولا يشرك به شيئًا ويتوكل عليه وحده، ويرجوه ويخافه وحـده، ويحب الله المحبة التامة لا يحب مخلوقًا كما يحب الله ويبغض ويـوالي لله ويعادي لله، فمن استكبر عن عبادة الله لم يكن مسلمًا، ومن عبـد مـع الله غيره لم يكن مسلمًا، وإنما تكون عبادته بطاعته وطاعة رسوله ﴿مَنْ يُطِعْ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾[٤]. فكل رسول بعث بشريعة فالعمل بها فى وقتها هو دين الإسلام، وأما ما بُدِّلَ منها فليس من دين الإسلام.

وإذا نسخ منها ما نسخ، لم يبق من دين الإسـلام، كاسـتقبال بيـت المقدس فى أول الهجرة بضعة عشر شهرًا، ثم الأمـر باسـتقبال الكعبـة وكلاهما فى وقته دين الإسلام، فبعد النسخ لم يبق دين الإسلام إلا أن يولي

(١) رسالة النبوات، ٩١-٩٤.
(٢) الأعراف، آية: ٦.
(٣) آل عمران، آية: ٨٥.
(٤) النساء، آية: ٨٠.

وجهه شطر المسجد الحرام فمن قصد أن يصلي إلى غير تلك الجهة لم يكن على دين الإسلام لأنه يريد أن يعبد الله بما لم يأمر به».

يقول شيخ الإسلام[1]: «والإسلام يتضمن الاستسلام لله وحده فمن استسلم له ولغيره كان مشركًا، ومن لم يستسلم له كان مستكبرًا عن عبادته والمشرك به والمستكبر عن عبادته كافرٌ، والاستسلام له وحده يتضمن عبادته وحده وطاعته وحده، فهذا دين الإسلام الذي لا يقبل الله غيره، وذلك بأن يطاع فى كل وقت بفعل ما أمر به فى ذلك الوقت، فإذا أمر فى أول الأمر باستقبال الصخرة ثم أمرنا ثانيًا باستقبال الكعبة كان كل من الفعلين ــ حين أمر به ــ داخلاً فى الإسلام، فالدين هو الطاعة والعبادة له فى الفعلين، وإنما يتنوع بعض صور الفعل وهو جهة المصلي فكذلك الرسل وإن تنوعت الشرعة والمنهاج والوجه والنسك فإن ذلك لا يمنع أن يكون الدين واحدًا، كما لم يمنع ذلك فى شريعة الرسول الواحد». أهـ.

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية[2]: «دين الإسلام مبنيٌّ على أصلين: أن يُعبد الله وحده لا شريك له، وأن نعبده بما شرعه من دينه وهو ما أمرت به الرسل أمر إيجاب أو استحباب، فيعبد فى كل زمان بما أمر به فى ذلك الزمان، فلما كانت شريعة التوراة محكمة كان العاملون بها مسلمين، وكذلك شريعة الإنجيل، وكذلك فى أول الإسلام، لما كان النبيّ ﷺ يصلي إلى بيت المقدس كانت صلاته إليه من الإسلام، ولما أمر بالتوجه إلى الكعبة كانت الصلاة إليها من الإسلام والعدول عنها إلى الصخرة خروجًا عن دين الإسلام، فكل من لم يعبد الله بعد بعثة محمد ﷺ بما شرعه الله من واجب ومستحب فليس بمسلم». أهـ.

---

(١) الرسالة التدمرية، ص٥٢.

(٢) قاعدة جليلة فى التوسل والوسيلة، ص٥٠.

ويقول شيخ الإسلام[1]: «والحقيقة، حقيقة الدين، دين ربّ العالمين هى ما اتفق عليه الأنبياء والمرسلون، وإن كان لكل منهم شرعة ومنهاجًا، فالشرعة هى الشريعة. قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[2] وقال ﷻ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنْ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ۞ إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنكَ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾[3]. والمنهاج هو الطريق، قال تعالى: ﴿وَأَلَّوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾[4]. فالشرعة بمنزلة الشريعة للنهر، والمنهاج هو الطريق الذي يسلك فيه والغاية المقصودة هى حقيقة الدين وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وهي حقيقة دين الإسلام، وهو أن يستسلم العبد لله ربِّ العالمين لا يستسلم لغيره، فمن استسلم لغيره كان مشركًا، والله لا يغفر أن يشرك به، ومن لم يستسلم لله بل استكبر عن عبادته كان ممن قال الله فيه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[5]، ودين الإسلام هو دين الأولين والآخرين من النبيين والمرسلين، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى الآخِرَةِ مِنْ الْخَاسِرِينَ﴾[6] عام فى كل زمان ومكان». أهـ.

ويقول[7]: «وكذلك فى العبادات فالنصارى يعبدونه ببدع ابتدعوها ما أنزل الله بها من سلطان، واليهود معرضون عن العبادات حتى فى يوم السبت الذي أمرهم الله أن يتفرغوا فيه لعبادته، إنما يشتغلون فيه بالشهوات، فالنصارى مشركون واليهود مستكبرون عن عبادته،

---

(١) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة، ص٩٧- ٩٨، مكتبة القاهرة، (على يوسف سلمان) حققه وصحح أصوله طه الزينى.
(٢) المائدة، آية: ٤٨.
(٣) الجاثية، الآيتان: ١٨-١٩.
(٤) الجن، آية: ١٦.
(٥) غافر، آية: ٦٠.
(٦) آل عمران، آية: ٨٥.
(٧) منهاج السنة، ج٣، ص٤٣.

والمسلمون عبدوا الله وحده بما شرع ولم يعبدوه بالبدع وهذا هو دين الإسلام الذي بعث الله به جميع النبيين، وهو أن يستسلم العبد لله لا لغيره، وهو الحنيفية دين إبراهيم، فمن استسلم لله ولغيره كان مشركًا، ومن لم يستسلم له فهو مستكبر، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[1]، وقال ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[2]. أهـ.

ويقول أيضًا [3]: «فإن الله إنما خلق الخلق لعبادته وخلق فيهم الشهوات ليتناولوا بها ما يستعينون به على عبادته، ومن لم يعبد الله فإنه فاسد هالك، والله لا يغفر أن يشرك به، فيُعبد معه غيره، فكيف بمن عطَّل عبادته فلم يعبده البتة كفرعون وأمثاله وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[4] والتعطيل ليس دون الشرك بل أعظم منه فالمستكبرون عن عبادته أعظم جرمًا من الذين يعبدونه ويعبدون معه غيره، وهؤلاء لا يغفر لهم فأولئك أولى». أهـ.

ويقول شيخ الإسلام [5]: «والله سبحانه له حقوق لا يشركه فيها غيره، وللرسل حقوق لا يشركهم فيها غيرهم وللمؤمنين على المؤمنين حقوق مشتركة، ففي الصحيحين عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: كنت رديف النبيّ ﷺ فقال لي: «يا معاذ: أتدري ما حق الله على العباد؟ فقلت الله ورسوله أعلم. قال: حقه عليهم، أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، يا معاذ أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: حقهم عليه أن لا يعذبهم».

---

(١) النساء، آية: ٤٨.
(٢) غافر، آية: ٦٠.
(٣)منهاج السنة، ج٣، ص٤٣.
(٤) النساء، آية: ٤٨.
(٥) اقتضاء الصراط المستقيم، ص٤٤٠-٤٦٤.

فالله مستحق أن يعبد لا يشرك به شيء، وهذا هو أصل التوحيد الذي بعث الله به الرسل وأنزلت به الكتب، قال تعالى: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنْ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[٣].

ويدخل فى ذلك أن لا تخاف إلا إياه ولا تتقي إلا إياه، وكذلك قال الله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾[٤]. يقول ابن تيمية: فجعل التحسب بالله وحده، وجعل الفضل لله وجعل الرغبة إلى الله دون ما سواه إلى أن يقول: فالله هو الذي يُتوكل عليه ويُستعان به ويُستغاث به، ويخاف ويرجى ويعبد، وتنيب القلوب إليه، ولا حول ولا قوة إلا به، ولا منجي منه إلا إليه، والقرآن كله يحقق هذا الأصل.

والرسول ﷺ يطاع ويحب ويرضى به، ويُسلم إليه حكمه، ويعزَّر ويوقَّر ويتبع ويؤمن به وبما جاء به، قال تعالى: ﴿مَنْ يُطِعْ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾[٥]، وقال تعالى:﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[٦]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ﴾[٧]. وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ

---

(١) الزخرف، آية: ٤٥.
(٢) الأنبياء، آية: ٢٥.
(٣) النحل، آية: ٣٦.
(٤) التوبة، آية: ٥٩.
(٥) النساء، آية: ٨٠.
(٦) النساء، آية: ٦٤.
(٧) التوبة، آية: ٦٢.

اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾(١).

وفي الصحيحين عنه قال ﷺ: «ثلاث مَنْ كُنَّ فيه وجد حلاوةَ الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله ، ومن كان يكره أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقي فى النار»، وقال ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين». وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمْ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۞ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾(٣). فالإيمان بالله والرسول، والتعزير والتوقير للرسول والتسبيح لله وحده.

والعبادات التي شرعها الله كلها تتضمن إخلاص الدين كله لله تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾(٤).

فالصلاة لله وحده، والصدقة لله وحده، والصيام لله وحده، والحج لله وحده، إلى بيت الله وحده، فالمقصود من الحج عبادة الله وحده فى البقاع التي أمر الله بعبادته فيها، ولهذا كان الحج شعار الحنيفية حتى قال طائفة من السلف حنفاء الله: أي حجاجًا، فإن اليهود والنصارى لا يحجون البيت. قال طائفة من السلف لما أنزل الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾(٥).

---

(١) التوبة، آية: ٢٤.
(٢) آل عمران، آية: ٣١.
(٣) الفتح، الآيتان: ٨-٩.
(٤) البينة، آية: ٥.
(٥) آل عمران، آية: ٨٥.

قالت اليهود والنصارى: نحن مسلمون فأنزل الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾(١)، فقالوا لا نحج، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْ الْعَالَمِينَ﴾(٢)، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا...﴾ الآية. عام فى الأولين والآخرين بأن دين الإسلام هو دين الله الذي جاء به أنبياؤه وعليه عباده المؤمنون، كما ذكر الله ذلك فى كتابه من أول رسول بعثه إلى أهل الأرض نوح وإبراهيم وإسرائيل وموسى وسليمان وغيرهم من الأنبياء، قال الله تعالى فى حق نوح: ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنْ الْمُسْلِمِين﴾(٣)، وقال تعالى فى حق إبراهيم وإسرائيل: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فى الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فى الآخِرَةِ لَمِنْ الصَّالِحِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِين ۞ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَابَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ۞ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾(٤)، وقال تعالى عن يوسف: ﴿أَنْتَ وَلِيٍّ فى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾(٥)، وقال تعالى عن موسى: ﴿يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾(٦)، وقال فى أنبياء بني إسرائيل: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا... ﴾(٧) الآية، وقال عن بلقيس: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ

(١) آل عمران، آية: ٩٧.
(٢) آل عمران، آية: ٩٧.
(٣) يونس، آية: ٧٢.
(٤) البقرة، الآيات: ١٣٠-١٣٣.
(٥) يوسف، آية: ١٠٠.
(٦) يونس، آية: ٨٤.
(٧) المائدة، آية: ٤٤.

الْعَالَمِينَ﴾[١]، وقال عن الحواريين: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ [٣]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِين ۞ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٤].

وقد فُسر إسلام الوجه لله بما يتضمن إخلاص قصد العبد لله بالعبادة له وحده، وهو محسنٌ بالعمل الصالح المشروع، وهذان الأصلان: جماع الدين. أن لا نعبد إلا الله، وأن نعبده بما شرع، لا نعبده بالبدع، قال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[٥].

وهذان الأصلان هما تحقيق الشهادتين اللتين هما رأس الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله، وشهادة أن محمدًا رسول الله، فإن الشهادة لله بأنه لا إله إلا هو، تتضمن: إخلاص الألوهية له، فلا يجوز أن يتأله القلب غيره، لا بحب ولا خوف ولا رجاء ولا إجلال ولا إكبار ولا رغبة ولا رهبة بل لابد أن يكون الدين كله لله، كما قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾[٦] فإذا كان بعض الدين لله، وبعضه لغيره كان في ذلك من الشرك بحسب ذلك، وكمال الدين كما جاء في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره «من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل

---

(١) النمل، آية: ٤٤.

(٢) آل عمران، آية: ٥٣.

(٣) النساء، آية: ١٢٥

(٤) البقرة، الآيتان: ١١١-١١٢.

(٥) الكهف، آية: ١١٠.

(٦) الأنفال: ٣٩.

الإيمان». فالمؤمنون يحبون الله ولله، والمشركون يحبون مع الله كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾[١].

والشهادة بأن محمدًا رسول الله ﷺ تتضمن تصديقه فى كل ما أخبر وطاعته فى كل ما أمر فما أثبته وجب إثباته، وما نفاه وجب نفيه، كما يجب على الخلق أن يثبتوا لله ما أثبته الرسول لربِّه من الأسماء والصفات، وينفوا عنه ما نفاه عنه من مماثلة المخلوقات فيخلصون من التمثيل والتعطيل، وعليهم أن يفعلوا ما أمرهم به، وأن ينتهوا عما نهاهم عنه، ويحلوا ما أحله ويحرموا ما حرمه، فلا حرام إلا ما حرمه الله ورسوله ولا دين إلا ما شرعه الله ورسوله، ولهذا ذمَّ الله المشركين فى سورة الأنعام والأعراف وغيرهما من السور، لكونهم حرَّموا ما لم يحرمه الله، ولكونهم شرعوا دينًا لم يأذن به الله ، كما فى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنْ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا...﴾[٢] إلى آخر السورة، وما ذكر الله فى صدر سورة الأعراف، وكذلك قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنْ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾[٣].

وقد قال تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾[٤]، فقرن بعدم إيمانهم بالله واليوم الآخر أنهم لا يحرمون ما حرمه الله ورسوله ولا يدينون دين الحقّ، والمؤمنون صدقوا الرسول فيما أخبر به عن الله واليوم الآخر، فآمنوا بالله

---

(١) البقرة، آية: ١٦٥.
(٢) الأنعام، آية: ١٣٦.
(٣) الشورى، آية:٢١.
(٤) التوبة، آية: ٢٩.

واليوم الآخر وأطاعوه فيما أمرَ ونَهَى وحلَّل وحرَّم، فحرَّموا ما حرَّم الله ورسولُه، ودانوا دينَ الحقِّ، فإنَّ الله بعثَ الرسولَ يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث، فأمرهم بكل معروف ونهاهم عن كل منكر، وأحلَّ لهم كل طيب وحرم عليهم كل خبيث.

ولفظ الإسلام يتضمن الاستسلام، والانقياد ويتضمن الإخلاص مأخوذ من قوله الله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِرَجُلٍ﴾(١) فلابد فى الإسلام من الاستسلام لله وحده وترك الاستسلام لما سواه، وهذا حقيقة قولنا "لا إله إلا الله" فمن استسلم لله ولغير الله فهو مشرك، والله لا يغفر أن يشرك به، ومن لم يستسلم له فهو مستكبر عن عبادته، وقد قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾(٢)، وثبت عنه ﷺ فى الصحيح أنه قال: «لا يدخل الجنة من فى قلبه مثقال ذرة من كبر، ولا يدخل النار من فى قلبه مثقال ذرة من إيمان، فقيل له: يا رسول الله: الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا، ونعله حسنًا، أفمن الكبر ذاك؟ قال: لا إن الله جميلٌ يحبُّ الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس» بطر الحق جحوده ودفعه وغمط الناس ازدراءهم واحتقارهم، فاليهود موصوفون بالكبر والنصاري موصوفون بالشرك قال تعالى فى نعت اليهود: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ﴾(٣)، وقال في نعت النصارى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(٤)، ولهذا قال فى سياق الكلام على النصارى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ

(١) الزمر، آية: ٢٩.
(٢) غافر، آية: ٦٠.
(٣) البقرة، آية: ٨٧.
(٤) التوبة، آية: ٣١.

سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[١].

وقال تعالى في سياق تقريره للإسلام وخطابه لأهل الكتاب: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ۞ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[٢]. ولما كان أصل الدين[٣] الذي هو دين الإسلام واحدًا وإن تنوعت شرائعه قال النبيّ ﷺ فى الحديث الصحيح: «إنَّا معاشر الأنبياء ديننا واحد» و«الأنبياء أخوة لعلات» و«إنَّ أولى الناس بابن مريم لأنا فليس بيني وبينه نبيّ» فدينهم واحد وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وهو يعبد فى كل وقت بما أمر به فى ذلك الوقت، وذلك هو دين الإسلام فى ذلك الوقت، وتنوع الشرائع فى الناسخ والمنسوخ من المشروع كتنوع الشريعة الواحدة، وكما أن دين الإسلام الذي بعث الله به محمدًا ﷺ هو دين واحد مع أنه كان فى وقت يجب استقبال بيت المقدس فى الصلاة كما أمر النبيُّ ﷺ المسلمين بذلك بعد الهجرة لبضعة عشر شهرًا، وبعد ذلك يجب استقبال الكعبة، ويحرم استقبال الصخرة، فالدين واحد وإن تنوعت القبلة فى وقتين من أوقاته، ولهذا شرع الله تعالى لبني إسرائيل السبت ثم نسخ ذلك وشرع لنا الجمعة، فكان الاجتماع يوم السبت واجبًا إذ ذاك، ثم صار الواجب هو الاجتماع يوم الجمعة، وحرم الاجتماع يوم السبت، فمن خرج عن شريعة موسى قبل النسخ لم يكن مسلمًا، ومن لم يدخل فى شريعة

---

(١) آل عمران، آية: ٦٤.

(٢) البقرة، الآيات: ١٣٦-١٤٠.

(٣) أصل الدين واحد فى كل الرسالات لا تختلف أحكامه.

محمد ﷺ بعد النسخ لم يكن مسلمًا، ولم يشرع الله لنبيٍّ من الأنبياء أن يعبد غير الله البتة(١)، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنْ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾(٢) فأمر الرسل أن يقيموا الدين ولا يتفرقوا فيه، وقال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۞ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾(٤)، ثم قال تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَلاَ تَكُونُوا مِنْ الْمُشْرِكِينَ ۞ مِنْ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾(٥) فأهل الإشراك متفرقون وأهل الإخلاص متفقون قال تعالى: ﴿وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۞ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾(٦) فأهل الرحمة مجتمعون متفقون والمشركون فرّقوا دينهم وكانوا شيعًا.

وقد غلط فى مسمى التوحيد، طوائف من أهل النظر والكلام ومن أهل الإرادة والعبادة حتى قلبوا حقيقته فى نفوسهم، فطائفة ظنت أن التوحيد هو نفي الصفات بل نفي الأسماء الحسنى أيضًا، وسموا أنفسهم أهل التوحيد وأثبتوا ذاتًا مجردة من الصفات ووجودًا مطلقًا بشرط الإطلاق وقد علم بصريح المعقول المطابق لصحيح المنقول أن ذلك لا يكون إلا فى الأذهان لا فى الأعيان وزعموا أن إثبات الصفات يستلزم ما يسمونه تركيبًا وظنوا أن العقل ينفيه.

(١) من العمومات غير المخصوصة شأن أصول الدين كلها.
(٢) الشوري، آية: ١٣.
(٣) المؤمنون، الآيتان: ٥١-٥٢.
(٤) الروم، آية: ٣٠.
(٥) الروم، الآيتان: ٣١-٣٢.
(٦) هود، الآيتان: ١١٨-١١٩.

وطائفة ظنوا أن التوحيد: ليس إلا الإقرار بتوحيد الربوبيــة وأن الله خالق كل شيء وهو الذي يسمونه توحيد الأفعال، ومن أهل الكــلام مــن أطال نظره فى تقرير هذا الموضع إما بدليل أن الاشتراك يوجــب نقــص القدرة وفوات الكمال، وبأن استقلال كل من الفاعلين بالمفعول محال، وإما بغير ذلك من الدلائل ويظن أنه بذلك قرر الوحدانية، وأثبت أنه لا إلــه إلا هو، وأن الإلهية هى القدرة على الاختراع، ونحو ذلك، فإذا ثبــت أنــه لا يقدر على الاختراع إلا الله وأنه لا شريك له فى الخلق، كان هذا عنــدهم هو معنى قولنا "لا إله إلاَّ الله" ولم يعلم أن مشركي العرب كانوا مقــرين بهذا التوحيد، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ الــسَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿قُــلْ لِمَــنْ الأَرْضُ وَمَــنْ فِيهَــا إِنْ كُنــتُمْ تَعْلَمُونَ۞ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ...﴾ الآية(٢)، وقال تعالى: ﴿وَمَــا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾(٣) قال ابن عباس وغيرهم: تــسألهم من خلق السماوات والأرض فيقولون الله، وهم مع هذا يعبدون غيره، وهذا التوحيد هو من التوحيد الواجب لكنه لا يحصل به كل الواجب، ولا يخلص العبد بمجرده عن الإشراك الذي هو أكبر الكبائر الذي لا يغفره الله بل لابد أن يخلص لله الدين والعبادة فلا يعبد إلا إياه ولا يعبده إلا بما شرع فيكون دينه كله لله ثم إن طائفة ممن تكلم فى تحقيق التوحيد على طريقــة أهــل التصوف ظن أن توحيد الربوبية هو الغاية والفناء فيها هو النهاية، وأنه إذا شهد ذلك سقط عنه استحسان الحسن واستقباح القبيح، فآل بهم الأمر إلــى تعطيل الأمر والنهي والوعد والوعيد ولم يفرقوا بين مشيئته الشاملة لجميع المخلوقات وبين محبته ورضاه المختص بالطاعات وبين كلماته الكونيــات

---

(١) لقمان، آية: ٢٥.

(٢) المؤمنون، الآيتان: ٨٤-٨٥.

(٣) يوسف، آية: ١٠٦.

التي لا يجاوزهن برٌ ولا فاجرٌ، لشمول القدرة لكل مخلوق وكلماته الدينيات التي اختص بموافقتها أنبياؤه، وأولياؤه، فالعبد مع شهود الربوبية العامة الشاملة، للمؤمن والكافر والبر والفاجر عليه أن يشهد ألوهيته التي اختص بها عباده المؤمنين الذين عبدوه وأطاعوا أمره واتبعوا رسله قال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فى الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾(٣) ومن لم يفرق بين أولياء الله وأعدائه وبين ما أمر به وأوجبه من الإيمان والأعمال الصالحات وبين ما كرهه ونهى عنه وأبغضه من الكفر والفسوق والعصيان مع شمول قدرته ومشيئته وخلقه لكل شيء، وإلا وقع فى دين المشركين الذين قالوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾(٤) والقدر يؤمن به ولا يحتج به بل العبد مأمور بأن يرجع إلى القدر عند المصائب ويستغفر الله عند الذنوب والمعايب.

ثم إن أولئك المبتدعين الذين أدخلوا فى التوحيد نفي الصفات وهؤلاء الذين أخرجوا عنه متابعة الأمر: إذا حققوا القولين أفضي بهم الأمر إلى أن لا يفرقوا بين الخالق والمخلوق بل يقولون بوحدة الوجود كما قاله أهل الإلحاد القائلين بالوحدة والحلول والاتحاد الذين يعظمون الأصنام وعابديها وفرعون وهامان وقومهما ويجعلون وجود خالق الأرض والسماوات هو وجود كل شيء من الموجودات ويدعون التوحيد والتحقيق والعرفان وهم من أعظم أهل الشرك والتلبيس والبهتان، يقول عارفهم السالك فى أول

---

(١) ص، آية: ٢٨.
(٢) الجاثية، آية: ٢١.
(٣) القلم، آية: ٣٥.
(٤) الأنعام، آية: ١٤٨.

الأمر يفرق بين الطاعة والمعصية ــ أي نظرًا إلى الأمر ــــ ثــم يــرى طاعة بلا معصية ــ أي نظرًا إلى القدر ــ ثم لا طاعة ولا معصية ــ أي نظرًا إلى أن الوجود واحد.

ومن أحكم الأصلين المتقدمين فى الصفات والخلق والأمر يميز بــين الأمر المحبوب المرضي لله وبين غيره مع شمول القدر لهما وأثبت للخالق سبحانه وتعالى الصفات التي توجب مباينته للمخلوقات وأنـــه لــيس فـــى مخلوقاته شيء من ذاته ولا فى ذاته شيء من مخلوقاته، أثبــت التوحيــد الذي بعث الله به رسله وأنزل به كتبه كما نبَّه على ذلــك فـــى ســـورتي الإخلاص﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾.

وسورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فيها التوحيد القولي العلمي الذي تدل عليه الأسماء والصفات ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۞ اللَّهُ الصَّمَدُ ۞ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۞ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾، وسورة ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَـــافِرُون﴾ فيها التوحيد القصدي العملي كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَـــافِرُونَ ۞ لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾. وبهذا يتميز مَنْ يعبد الله ممن يعبد غيره، وإن كان كـــل واحد منهما يقر بأن الله ربٌّ كل شيء ومليكه ويتميز عباد الله المخلصون الذين لم يعبدوا إلا إياه ممن عبدوا غيره وأشركوا به أو نظروا إلى القـــدر الشامل لكل شيء فسوي بين المؤمنين والكفار، كما كان يفعل المـــشركون من العرب ولهذا قال ﷺ: "إنها براءة من الشرك"». أهـــ.

ومن كل ما سبق نقله يتضح أن:

• **الإســــلام: إخلاص:**

١- **والإخلاص:** إخلاص الولاء لله، يقول سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَـــمُ قُـــلْ إِنِّـــي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنْ الْمُشْرِكِينَ﴾(١).

---

(١) الأنعام، آية: ١٤.

ولما كانت العبادة هى غاية الحب مع غاية الذل، والولاء أصله الحب فإن إخلاص الولاء لله هو إخلاص العبادة لله بمعنى إفراد الله بغاية الحب، يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾(١).

- والولاء: ولاء نصرة، وولاء اتباع، وولاء نسك.

أ- وعن ولاء النصرة يقول سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ۞ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمْ الْغَالِبُونَ﴾(٢).

ب- ويقول ﷻ عن ولاء الاتباع: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمْ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنْ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(٣)، ويقول تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمْ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۞ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾(٤)، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿اتبعوا ما أُنزلَ إليكم من ربِّكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تذكرون﴾(٥)، ويقول تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيِّي اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾(٦).

ج- ويقول سبحانه وتعالى عن ولاية النسك: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدْ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّين ۞ أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾(٧).

---

(١) البقرة، آية: ١٦٥.
(٢) المائدة، الآيتان: ٥٥-٥٦.
(٣) البقرة، آية: ٢٥٧.
(٤) آل عمران، الآيتان: ٣١-٣٢.
(٥) الأعراف، آية: ٣.
(٦) الأعراف، آية: ١٩٦.
(٧) الزمر، الآيتان: ٢-٣.

٢- **الإسلام هو الإخلاص:** والإخلاص: إفراد الله سبحانه وتعالى بحقه الخالص، وحق الله الخالص فى العبادات:

أ- بإخلاص قصدها إليه والتوجه بها إليه وحده عزَّ وجل، فالصلاة لله وحده والصدقة لله وحده والصوم لله وحده والحج لله وحده إلى بيت الله وحده.

ب- بقبول شرعه فيها: يعبد فى كل وقت بما أمر به فى ذلك الوقت. وحق الله الخالص فى العادات والمعاملات: بقبول شرعه فيها.

يقول الله عزَّ وجل عن إفراد الله سبحانه وتعالى ـ بحقه الخالص فى العبادات والعادات والمعاملات ـ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَاي وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾(١).

٣- **والإسلام هو الإخلاص:** والإخلاص: إخلاص الطاعة لله وحده وهو يطاع فى كل وقت بما أمر به فى ذلك الوقت وهذا هو معنى تحقيق العبودية لله بقبول شرعه ورفض ما سواه وهذا هو معنى إفراد الله بالعبادة بمعني الطاعة والذل والخضوع والانقياد، ومعني إخلاص الاستسلام لله وحده، وإخلاص الدين لله وحده، يقول ﷻ: ﴿إِنْ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾(٢)، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾(٣)، ويقول ﷻ: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾(٤)، ويقول تبارك وتعالى: ﴿هُوَ الْحَيُّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ۞ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ

---

(١) الأنعام، الآيتان: ١٦٢-١٦٣.
(٢) يوسف، آية: ٤٠.
(٣) البينة، آية: ٥.
(٤) غافر، آية: ١٤.

تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1]، ويقول تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّين ۝ وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِين﴾[2].

- إخلاص الاستسلام: أي إخلاص العبادة والطاعة.

- إخلاص الدين يقول شيخ الإسلام: «الإسلام دين والدين مصدر دان يدين دينًا إذا ذلَّ وخضع، ويقول أن الإسلام من جنس الدين والعمل والطاعة والانقياد والخضوع، فمن ابتغى غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه» أي إخلاص الطاعة لله بقبول شرعه ورفض ما سواه، فمن ابتغي غير ذلك فلن يقبل منه، فمن قبل شرع الله وشرع غيره لم يكن مسلمًا، ومن لم يقبل شرع الله لم يكن مسلمًا.

- وعن إخلاص العبادة لله سبحانه وتعالى وحده بمعنى الطاعة يقول شيخ الإسلام: «وعبادته تتضمن كمال الذل والحب له وذلك يتضمن كمال طاعته ﴿مَنْ يُطعِ الرسولَ فَقَدْ أطاعَ الله﴾، وقد قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُم﴾، وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ».

- **الإسلام هو الاستسلام:**

والاستسلام مع الإخلاص معناه أن يكون الاستسلام خالصًا لله وحده، وهذا يتضمن إفراد الله سبحانه وتعالى بالعبادة.

١- والعبادة معناها: الحب والحب أصل الولاء والولاء، ولاء نصرة أو اتباع أو نسك والتوحيد هو إفراد الله سبحانه وتعالى بالولاء والنسك والاتباع.

٢- والعبادة معناها: الطاعة، وهي لا تتحقق إلا بقبول الأحكام والتوحيد هو إفراد الله بالطاعة بقبول شرعه ورفض ما سواه.

---

(١) غافر، الآيتان: ٦٥-٦٦.
(٢) الزمر، الآيتان: ١١-١٢.

٣- والعبادة معناها: حق الله الخالص، وحق الله الخالص أربعة أمور:

أ- العبادات الظاهرة، وهي توقيفية غير معقولة المعنى تفتقر إلى نية.

ب- الأعمال القلبية المتعلقة بها أو المستقلة عنها التي يتأله بها القلب ربه.

ج- الولاء: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنْ الْمُشْرِكِينَ﴾(١).

د- الحكم: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾(٢).

والتوحيد هو: إفراد الله بحقه الخالص فى النسك الظاهر والأعمال القلبية المتعلقة به أو المستقلة عنه والولاء والحكم.

٤- **والعبادة** معناها: حق الله الخالص فى التعبدات... والتعبدات:

أ- عبادات: وحق الله الخالص فيها بالتوجه إليه وحده وقبول شرعه فيها.

ب- عادات: وهي راجعة إلى محاسن الشيم وحق الله فيها هو قبول شرعه فيها.

ج- معاملات: وهي راجعة إلى أوجه المصالح والحقوق التي يتعاطاها العباد فيما بينهم وحق الله الخالص فيها هو قبول شرعه فيها.

والتوحيد هو: إفراد الله عزَّ وجلَّ بحقه الخالص فى العبادات والعادات والمعاملات، فى العبادات بالتوجه إليه وحده وقبول شرعه فيها وفي العادات والمعاملات إفراد الله بحقه الخالص فيها بقبول شرعه فيها ورفض شريعة غيره، وهو يطاع فى كل وقت بما أمر به فى ذلك الوقت، فالرجوع فى العبادات والعادات والمعاملات إلى غير شرع الله المحكم من

---

(١) الأنعام، آية: ١٤.
(٢) الأنعام، آية: ١١٤.

الدين المبدّل أو المنسوخ أو رد أمر الله الذي جاء بــه الرســول ﷺ فيهــا خروج عن الإسلام بالشرك والكبر.

ومن لم يعبد الله عزَّ وجلَّ بهذه المعاني الأربعة للعبادة فقد خرج عن حقيقة الإسلام بالكبر، ومن عبد غير الله معه فقد خــرج عــن حقيقــة الإســلام بالشرك، ومن عبد الله بغير ما أمر بالدين المبدّل أو المنسوخ فقــد خــرج عن حقيقة الإسلام بالشرك والكبر.

والإسلام هو الاستسلام الذي لا يتحقق إلا بقبول الأحكام ولابــد أن يكون ذلك لله خالصًا.

وهذا هو معنى تحقيق العبودية لله سبحانه وتعــالى بقبــول شــرعه ورفض ما سواه فمن خرج عن شرع الله المحكم الذي جاء به محمــد ﷺ إلى شرع الله المنسوخ أو شرع غير الله سواء فعل ذلك:

أ- تديناً بادعاء موافقة الرسول أو التصريح بمخالفته.

ب-أو غير متدين بهذا الخروج.

فقد خرج عن حقيقة الاستسلام لله وحده. بأن يطاع الله وحده في كل وقت بما أمر به فى ذلك الوقت ومن خرج عن حقيقة الإسلام لله وحده شركًا أو كبرًا لم يكن مسلمًا وقد خرج عن حقيقة الإسلام ومن دين الله الذي لا يقبل غيره وكفر بهذا الخروج فمن رجع إلى شرع غير شرع الله حكمًا أو تحاكمًا أو تحكيمًا أو تشريعًا من دون الله أو قبولاً لشرع غير الله فقد خرج عن حقيقة الاستسلام لله وحده بطاعة غيره بقبول شرع غيره وذلك هو الشرك.

ومن رد أمر الله عليه بالإباء مــن قبــول الفــرائض أو اســتحلال المحرمات أو الطعن فى حكمة التشريع أو الاســتهزاء أو الاســتخفاف أو الاستهانة فقد خرج عن حقيقة الاستسلام لله وحده وذلك هو الكبر.

والمشرك والمستكبر كلاهما كافر لخروجهما عن حقيقة الإسلام ومنافاة حقيقتهما له. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية(١): «... ودين الإسلام مبني على أصلين: أن يعبد الله وحده لا شريك له، وأن نعبده بما شرعه من دينه وهو ما أمرت به الرسل أمر إيجاب أو استحباب، فيعبد فى كل زمان بما أمر به فى ذلك الزمان، فلما كانت شريعة التوراة محكمة كان العاملون بها مسلمين، وكذلك شريعة الإنجيل وكذلك فى أول الإسلام لما كان النبيّ ﷺ يصلي إلى بيت المقدس كانت صلاته إليه من الإسلام ولما أمر بالتوجه إلى الكعبة كانت الصلاة إليها من الإسلام والعدول عنها إلى الصخرة خروجًا عن دين الإسلام. فكل من لم يعبد الله بعد بعثة محمد ﷺ بما شرعه الله من واجب ومستحب فليس بمسلم». أهـ.

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية (٢): «... كما أن "لفظ الشريعة" يتكلم به كثير من الناس ولا يفرق بين الشرع المنزل من عند الله تعالى وهو الكتاب والسنة الذي بعث الله به رسوله فإن هذا الشرع ليس لأحد من الخلق الخروج عنه ولا يخرج عنه إلا كافر. ثم يقول: فلفظ الشرع والشريعة إذا أريد به الكتاب والسنة لم يكن لأحد من الأولياء ولا لغيرهم أن يخرج عنه ومن ظن أن لأحد الأولياء طريقًا إلى الله غير متابعة محمد ﷺ باطنًا وظاهرًا فهو كافر».

ويقول فى نفس الرسالة:«... فإن أصل الأصول: تحقيق الإيمان بما جاء به الرسول ﷺ فلابد من الإيمان بالله ورسوله وبما جاء به الرسول ﷺ فلابد من الإيمان بأن محمدًا رسول الله ﷺ إلى جميع الخلق إنسهم وجنهم، عربهم وعجمهم، علمائهم وعبادهم، ملوكهم وسوقتهم، وأنه لا طريق إلى الله عزَّ وجل لأحد من الخلق إلا بمتابعته ظاهرًا وباطنًا حتى لو أدركه

(١) قاعدة جليلة فى التوسل والوسيلة، ص ٥٠.
(٢) رسالة الفرقان، ص ٦٥.

موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء لوجب عليهم اتباعه كما قـال تعـالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَـاءَكُمْ رَسُـولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ۞ فَمَنْ تَوَلَّى بَعْـدَ ذَلِـكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[1] قال ابن عباس رضى الله عنهما: ما بعث الله نبيًـا إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد ﷺ وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه.

وقد قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيدًا ۞ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا۞ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ۞ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فى أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا ۞ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ۞ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فى أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[2]». أهـ.

يقول البيضاوي فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُـولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[3] «... كأنه احتج بذلك على أن إرسال الرسول لما لـم يكن إلا ليطاع كان من لم يطعه ولم يرض بحكمه لم يقبل رسـالته ومـن كان كذلك كان كافرًا مستوجب القتل». أهـ.

---

(١) آل عمران، الآيتان: ٨١-٨٢.

(٢) النساء، الآيات:٦٠-٦٥.

(٣) النساء، آية: ٦٤.

ويقول النسفي فى تفسير قوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمْ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُبِينًا﴾(١) «... إن كان العصيان عصيان رد وامتناع عن القبول فهو ضلال كفر، وإن كان عصيان فعل مع قبول الأمر واعتقاد الوجوب فهو ضلال خطأ وفسق». أهـ.

ويقول ابن كثير ﷺ فى تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾(٢) «... ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المشتمل على كل خير الناهي عن كل شر وعدل إلى ما سواه من الآراء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات مما يضعونها بأهوائهم وآرائهم وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم جنكيز خان الذي وضع لهم الياسق وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وغيرها، وفيها كثير من الأحكام أخذها بمجرد نظره وهواه فصارت فى بنيه شرعًا متبعًا يقدمونه على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ فمن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله فلا يُحكِّم سواه فى قليل ولا كثير». أهـ.

المناط هو: الخروج عن شرع الله والعدول عنه بالرجوع إلى غيره أو ردِّه دون رجوع إلى غيره، وهذا هو المناط فقط دون أي شيء آخر وهذا هو الشرك والكبر المنافي لحقيقة الاستسلام بأن يطاع الله وحده فى كل وقت بما أمر به فى ذلك الوقت وهو بهذا يتنافى مع حقيقة الإسلام

---

(١) الأحزاب، آية: ٣٦.

(٢) المائدة، آية: ٥٠.

ومنافاة حقيقة الإسلام كفر ﴿وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلاَئِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾(١).

التوحيد في ثلاث آيات من القرآن:

١- قول الله ﷻ: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(٢) "إفراد الله بولاية النسك والنصرة والاتباع".

٢- وقول الله ﷻ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾(٣) "إفراد الله بحقه الخالص فى العبادات بصرفها إليه وحده وبقبول شرعه فيها، وفي العادات والمعاملات بقبول شرعه فيها".

٣- وقول الله ﷻ: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ۞ وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾(٤). "إخلاص الطاعة لله وحده بقبول شرعه ورفض ما سواه".

وهذه هى حقيقة الإسلام فى الآيات الثلاثة:

"الآية الأولي" تستلزم الدخول فى ولاية الإسلام وقبول الشرع وإفراد الله بالنسك. و"الثانية" تستلزم إفراد الله بالنسك وقبول الشرع. و"الثالثة" قبول الشرع. والتكليف مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ﴾ والآيات فيها دلالة لفظ الإسلام بالمطابقة ومعنى الإسلام هو التوحيد المنافي للشرك، وذلك من قوله ﴿ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنْ الْمُشْرِكِينَ﴾. وفيها أن الإسلام هو التوحيد المنافي للشرك لقوله تعالى: ﴿ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنْ الْمُشْرِكِينَ﴾ .

---

(١) آل عمران، آية: ٨٠.
(٢) الأنعام، آية: ١٤.
(٣) الأنعام، الآيتان: ١٦٢-١٦٣.
(٤) الزمر، الآيتان: ١١-١٢.

حقيقة الإسلام وحقيقة توحيد العبادة شيء واحد:

وهي تستلزم توحيد الاعتقاد فتكون حقيقة الإسلام هى "توحيد الألوهية المتضمن لتوحيد الربوبية" .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية بعد أن يذكر المعاني الثلاثة لاسم الله الواحد التي يقصر الأشاعرة التوحيد عليها وهي معاني توحيد الربوبية إذا خلت من البدع ولا تتضمن شيئًا من توحيد الألوهية يقول[1]: «فهذه المعاني الثلاثة هى التي يقولون أنها معنى اسم الله الواحد وهي التوحيد وفيها من البدع التي خولف بها الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة ما قد نبهنا على بعضه.

وأما التوحيد الذي ذكره الله فى كتابه وأنزل كتبه وبعث به رسله واتفق عليه المسلمون من كل ملة فهو كما قال الأئمة شهادة أن لا إله إلا الله وهو عبادة الله وحده لا شريك له كما بين ذلك بقوله ﷻ ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾[2]. فأخبر أن الإله إلهٌ واحد لا يجوز أن يتخذ إله غيره فلا يعبد إلا إياه كما قال فى السورة الأخرى ﴿وَقَالَ اللَّهُ لاَ تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾[3]، وكما قال ﷻ: ﴿لاَ تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولاً﴾ إلى قوله ﴿فَتُلْقَى فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا﴾[4]، وكما قال ﷻ: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۞ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدْ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ۞ أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى

---

(١) الفتاوى الكبرى، طبعة دار المعرفة، بيروت، ج٥، ص ٢٤٨ وما بعدها.

(٢) البقرة، آية: ١٦٣.

(٣) النحل، آية: ٥١.

(٤) الإسراء، الآيات: ٢٢-٣٩.

اللَّهِ زُلْفَى﴾ (١)، وكما قال ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾(٢) وأما الشرك الذي ذكره الله فى كتابه إنما هو عبادة غيره من المخلوقات كعبادة الملائكة أو الكواكب أو الشمس أو القمر أو الأنبياء أو تماثيلهم أو قبورهم أو غيرهم من الآدميين ونحو ذلك مما هو كثير فى هؤلاء الجهمية ونحوهم ممن يزعم أنه محقق فى التوحيد وهو من أعظم الناس إشراكًا، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِي اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾(٣)، وقال ﷻ: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ۞ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۞ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (٤)، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾(٥)، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾(٦)، وقال تعالى: ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ۞ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۞ وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنْ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ۞ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِى الْمِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاَقٌ﴾(٧)، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۞ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾(٨)، وقال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾(٩).

---

(١) الزمر، الآيات: ١-٣.
(٢) الفرقان، آية: ٦٨.
(٣) الزمر، آية: ٣٨.
(٤) الزمر، الآيات: ٦٤-٦٦.
(٥) الزمر، آية: ٤٥.
(٦) الإسراء، آية: ٤٦.
(٧) ص، الآيات: ٤-٧.
(٨) الصافات، الآيتان: ٣٥-٣٦.
(٩) يوسف، آية: ١٠٦.

قال ابن عباس وعطاء وعكرمة ومجاهد يسألهم مَنْ خلق السماوات والأرض فيقولون الله وهم مع هذا يعبدون غيره ويشركون به ويقولون له ولد وثالث ثلاثة فكان الكفَّار يقرون بتوحيد الربوبية وهو نهاية ما يثبته هؤلاء المتكلمون إذا سلموا من البدع فيه وكانوا مع هذا مشركين لأنهم كانوا يعبدون غير الله.

وقال تعالى: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾(٢)، وقال تعالى: وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنْ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلاَلَةُ﴾(٣). فبيَّن سبحانه وتعالى أنه بهذا التوحيد بعث جميع الرسل وأنه بعث إلى كل أمة رسولاً به وهذا هو الإسلام الذي لا يقبل الله لا من الأولين ولا من الآخرين ديناً غيره قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ۞ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ۞ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى الآخِرَةِ مِنْ الْخَاسِرِينَ﴾(٤).

فدين الله(٥) أن يدينه العباد ويدينون له فيعبدونه ويطيعونه وذلك هو الإسلام له فمن ابتغى غير هذا ديناً فلن يقبل منه، وكذلك قال في الآية

---

(١) الزخرف، آية: ٤٥.
(٢) الأنبياء، آية: ٢٥.
(٣) النحل، آية: ٣٦.
(٤) آل عمران، الآيات: ٨٣-٨٥.
(٥) الحق يصرخ في الكلمات: الدين هو قبول شرع الله ورفض ما سواه وهذه هي حقيقة الإسلام ومن ابتغي الانتساب إلى الإسلام بغير حقيقته فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين.

الأخرى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۞ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ ...﴾[1] فذكر أن الدين عند الله الإسلام[2] بعد إخباره بشهادته وشهادة الملائكة وأولو العلم أنه لا إله إلا هو.

والإله هو المستحق للعبادة فأما من اعتقد فى الله أنه ربُّ كل شيء وخالقه وهو مع هذا يعبد غيره فإنه مشرك بربِّه متخذٌ من دونه إلهًا آخر فليست الألوهية هى الخلق أو القدرة على الخلق أو القدم كما يفسرها هؤلاء المبتدعون فى التوحيد من أهل الكلام. إذ المشركون الذين شهد الله ورسوله بأنهم مشركون من العرب وغيرهم لم يكونوا يشكون فى أن الله خالق كل شيء وربه فلو كان هذا هو الألوهية لكانوا قائلين أنه لا إله إلا هو.

فهذا موضع عظيم جدًا ينبغي معرفته لما قد لبس على طوائف من الناس أصل الإسلام حتى صاروا يدخلون فى أمور عظيمة هى شرك ينافي الإسلام لا يحسبونها شركًا وأدخلوا فى التوحيد والإسلام أمورًا باطلة ظنوها من التوحيد وهي تنافيه وأخرجوا من الإسلام والتوحيد أمورًا عظيمة لم يظنوها من التوحيد وهي أصله فأكثر هؤلاء المتكلمين لا يجعلون التوحيد إلا ما يتعلق بالقول والرأي واعتقاد ذلك دون ما يتعلق بالعمل والإرادة واعتقاد ذلك.

---

(١) آل عمران، الآيتان: ١٨-١٩.

(٢) الآيتان يتكاملان غاية التكامل وأجمله وأكمله وأتمه فالإسلام كدين ينتسب إليه لا يتحقق إلا بحقيقته وهي إخلاص الدين لله وحده وإخلاص الطاعة وذلك يتحقق بقبول شرع الله ورفض ما سواه والدين كطريقة متبعة لا يُقبل بغير حقيقة الاستسلام لله وحده وأن يكون ذلك لله خالصًا وذلك بإخلاص الطاعة له وحده وذلك يتحقق بقبول شرع الله ورفض ما سواه وسبحان من أغلق طريق الباطل أمام المرجئة بهذا الإحكام ولكنهم يقتحمونها بالكذب على الله والفرار من المحكمات واللواذ بالمتشابهات لابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله.

بل التوحيد الذي لابد منه لا يكون إلا بتوحيد الإرادة والقصد وهو توحيد العبادة وهو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله: أن يقصد الله بالعبادة ويريده بذلك دون ما سواه وهذا هو الإسلام فإن الإسلام يتضمن أصلين:

أحدهما: الاستسلام لله.

والثاني: أن يكون ذلك له سالمًا فلا يشركه أحد فى الإسلام، وهذا هو الاستسلام لله "دون ما سواه" وسورة ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ تفسر ذلك. ولا ريب أن العمل مسبوق بالعلم. فلابد أن يعلم ويشهد أن لا إله إلا الله. وأما التوحيد القولي الذي هو الخبر عن الله ففي سورة الإخلاص التي تعدل ثلث القرآن وفيها اسمه الأحد الصمد. وكل من هذين الاسمين يدل على نقيض مذهب الجهمية كما بيناه فى موضعه.

وعبادة الله وحده يدخل فيها كمال المحبة لله وحده وكمال الخوف منه وحده والرجاء له والتوكل عليه وحده. فكل ذلك من أصول التوحيد الذي أوجبه الله على عباده وبذلك يكون الدين كله لله كما أمر الله رسله والمؤمنين بالقتال إلى هذه الغاية حيث يقول ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾[(١)]». أهـ.

انظر إلى قول شيخ الإسلام: «لما قد لبس على الناس أصل الإسلام حتى صاروا يدخلون فى أمور عظيمة هى شرك يتنافى مع الإسلام لا يحسبونها شركًا».

فالإسلام له أصل وبعض الناس ينكر هذا والشرك ينافي الإسلام وإن كان صاحبه يجهل ذلك ولا يحسبه كذلك بسبب الاعتقادات الفاسدة.

ثم يقول: «وأدخلوا فى التوحيد والإسلام» فالتوحيد والإسلام مترادفان لحقيقة واحدة وهما كشيء واحد وهو الشاهد على الباب.

---

(١) الأنفال، آية: ٣٩.

ثم يقول: «أمورًا باطلة ظنوها من التوحيد وهي تنافيه». فالتوحيد له ما ينافيه من الشرك «وأخرجوا من التوحيد والإسلام» ــ مرة ثانية التوحيد والإسلام شيء واحد وحقيقة واحدة ــ «أمورًا عظيمة لم يظنوها من التوحيد وهي أصله» أيضًا التوحيد له أصول وتوحيد العبادة هو تحقيق الشهادتين وهو حقيقة الإسلام بالاستسلام لله دون ما سواه أي إسلام الطاعة له دون ما سواه التي لا تتحقق إلا بتحقيق العبودية لله بقبول شرعه ورفض ما سواه والتوحيد الإرادي القصدي الطلبي لا يتحقق إلا بأن يقصد الله بالعبادة ويريده بذلك ليس مجرد إقرار بتوحيد الألوهية بل لابد فيه من العمل وهو الالتزام وترك الشرك. والعمل مسبوق بالعلم فلابد أيضًا من أن يعلم ويشهد ولا يكفي ذلك دون العمل.

والتوحيد الإرادي القصدي الطلبي مستلزم للتوحيد الخبري العلمي المعرفي ولذلك قلنا فى بداية الباب أن حقيقة الإسلام هى توحيد الألوهية المتضمن بالتلازم توحيد الربوبية وهذه هى حقيقة الإسلام المقابلة للكفر وهي أيضًا حقيقة الإيمان المقابلة للكفر.

• **العمومات التي لا تخصص:**

يقول ﷻ: ﴿**مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ**﴾(١)
عموم ليس له تخصيص.

ويقول ﷻ: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ عموم ليس له تخصيص فمن أشرك فى شيء واحد فقد أشرك بالله شيئًا ومن مات يشرك بالله شيئًا كان غير مسلم وخُلِّدَ فى النار عمومًا ليس له تخصيص ولن يغني عنه إقرار إجمالي بالتوحيد ولا عقد إسلام ولا براءة إجمالية من الشرك ولا أي شيء آخر، لأن شيئًا نكرة فى سياق نهي تفيد العموم ثم هذا من أصول الدين والعمومات المكية والمدنية، ومما تقرر كأصول ثابتة للدين فى الأولين والآخرين من الأنبياء والمرسلين ثم هو فى شرعنا مما تكرر فتقرر وانتشر فتأكد وأتي به شواهد على معاني أصولية وفروعية فخرج بذلك الإحكام عن أي تشابه أو استثناء أو تخصيص أو تقييد أو أي شيء آخر يخرجه عن كونه قاعدة محكمة من قواعد التوحيد فى كل زمان ومكان.

وقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ عموم ليس له تخصيص ومن خصصه بالجهل وغيره فقد كذَّب صريح القرآن ولبَّس على العوام دينهم وافترى على الله الكذب وقال عليه بغير علم.

وقد مرَّ تفسير رسول الله ﷺ لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمْ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾(٢) قال رسول الله ﷺ «بظلم» "بظلم: بشرك" نكرة في سياق نفي تفيد العموم وهو أيضًا عموم ليس له تخصيص وإن كان عموم مفهوم كما مرَّ. يقول عبد الله بن

(١) المؤمنون، آية: ٩١.
(٢) الأنعام، آية: ٨٢.

عباس فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾(١)، وقولـه ﷻ: ﴿ وَلاَ يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾(٢)، وأما قول الله ﷻ: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَـا مَـا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، وقوله ﷻ: ﴿وَلاَ يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ فإن الله تعالى يوم القيامة يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم لا يتعاظم عليه ذنب أن يغفره، ولا يغفر شركًا، فلما رأي المشركون ذلك قالوا إنَّ ربَّنَا يغفر الـذنوب ولا يغفر الشرك تعالوا نقول إنَّا كنا أهل ذنوب ولم نكن مشركين فقـال الله تعالى أما إذا كتموا الشرك فأختم على أفواههم فيخـتم علـى أفـواههم فتنطق أيديهم وأرجلهم بما كانوا يكسبون فعند ذلك يعرف المشركون أن الله لا يكتم حديثًا وذلك قوله ﷻ: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَـرُوا وَعَـصَوْا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمْ الأَرْضُ وَلاَ يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾(٣).

هذا خبر وليس وعيدًا يقول عنه المرجئة إن الله يخلـف وعيـده ولا يخلف وعده وخبر الله لا يتخلف "وشركًا" منكّرة، نكرة فى سياق نفي هل بعد هذا من بيان هل بعد هذا من بلاغ.

يا قوم المخالفة بالمعصية مع التزام الشرع ذنب يغفره الله لمن يشاء والخروج عن الشرع فى العبادات أو العاديات أو المعاملات والعدول عنه إلى غيره شرك يتنافي مع حقيقة الإسلام وهو شرك لمن شرع ولمن حكم وتحاكم وحكّم ما شُرع ولمن قبل إجراء حياته على مقتـضى مـا شـرع وكذلك رد أمر الله عليه بالإباء من قبول الفرائض إسـقاطًا للوجـوب أو استحلال المحرمات امتناعًا عن التزام حكم الله بالتحريم أو الطعـن فـى حكمة التشريع أو الاستهزاء به أو الاستخفاف أو الاستهانة به، والعـدول عن الشرع إلى غيره من الدين المبدَّل والمنسوخ كفر برسالة محمد وكفـر

---

(١) الأنعام، آية: ٢٣.
(٢) النساء، آية: ٤٢.
(٣) النساء، آية: ٤٢.

ببعض الكتاب مع الإيمان ببعض، ولابد أن يكون الإيمان بالكتاب متلازمًا بعضه لبعض وإلا كان كفرًا بالكتاب، هذا الأمر بدهي جدًا لا يحتاج إلى استدلال خاص أكثر من معرفة حقيقة الإسلام التي أشرنا إليه.

اللهم هل بلغت اللهم فاشهد.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية[١] فى الفرق بين الخبر والوعيد فى الاستدلال بآيات الكتاب الكريم على كفر شاتم الرسول يقول: وأما الآيات الدالات على كفر الشاتم وقتله أو على أحدهما إذا لم يكن معاهدًا وإن كان مظهرًا للإسلام فكثيرة مع أن هذا مجمع عليه كما تقدم حكاية الإجماع عن غير واحد، منها قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ﴾ إلى قوله ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيم﴾ إلى قوله ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيم﴾[٢].

فعلم أن إيذاء رسول الله محادة لله ولرسوله لأنه ذكر الإيذاء هو الذي اقتضي ذكر المحادة فيجب أن يكون داخلاً فيه ولولا ذلك لم يكن الكلام مؤتلفًا إذا أمكن أن يقال أنه ليس بمحاد ودلَّ ذلك على أن الإيذاء والمحادة كفرٌ لأنه أخبر أن له نار جهنَّم خالدًا فيها ولم يقل "هي جزاوه" وبين الكلامين فرق"﴿فهي جزاوه﴾ وعيدٌ قد يتحقق وقد يتخلف أما ﴿ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ فخبر لا يتخلف وعلي ذلك فهو عموم لا يتخصص وهو فى مظهري الإسلام وفي غير مظهري الإسلام بلا فرق ومثله قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾، ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ۞ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا

---

(١) الصارم المسلول: ص٢٤.

(٢) التوبة، الآيات: ٦١-٦٣.

الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ ﴿في﴾ خبر، ﴿جزاؤهم﴾ وعد وخبر الله لا يتخلف ووعد الله لا يخلف وقد تأتي صيغ مماثلة فى الوعيد ولكن يأتي فيها ما يؤكد أنها للوعيد وليست للخبر مثل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾(١) وهي فى الوعيد وليست فى الخبر لقوله تعالى: ﴿جزاؤه﴾ وكذلك اللعن هنا بصيغة الدعاء وليس بصيغة الخبر ولا يفيد معنى التأبيد فى اللعن و﴿أعدَّ﴾ هنا غير الإعداد فى قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾(٢). وفي المحارب ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فى الأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلاَفٍ أَوْ يُنفَوْا مِنْ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فى الدُّنيَا وَلَهُمْ فى الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(٣) ﴿ذلك لهم﴾ تفيد هنا الوعيد وليس الخبر لذكر إنما جزاء قبل ذلك وربط ﴿لهم﴾ بـ ﴿ذلك﴾.

يقول أبو بطين رحمه الله(٤) والكلام عن شيخ الإسلام ابن تيمية: «لقد جزم رحمه الله فى مواضع كثيرة بكفر من فعل ما ذكره من أنواع الشرك وحكى إجماع المسلمين على ذلك ولم يستثن الجاهل ونحوه وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾(٥)، وقال عن المسيح أنه قال: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾(٦) فمن خصَ ذلك الوعيد بالمعاند فقط وأخرج الجاهل والمتأول والمقلد فقد شاق الله ورسوله وخرج عن سبيل المؤمنين، والفقهاء يصدرون باب "حكم المرتد لمن أشرك بالله" ولم يقيدوا ذلك بالمعاند وهذا أمر واضح ولله الحمد وقد قال الله تعالى:

(١) النساء، آية: ٩٣.
(٢) آل عمران، آية: ١٣١.
(٣) المائدة، آية: ٣٣.
(٤) الانتصار لحزب الله الموحدين، ص ٢٣.
(٥) النساء، آية: ٤٨.
(٦) المائدة، آية: ٧٢.

﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لئلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾[1].
وقد ذكر العلماء من أهل كل مذهب أشياء كثيرة لا يمكن حصرها من الأقوال والأفعال والاعتقادات أنه يكفر صاحبها ولم يقيدوا ذلك بالمعاند».

ويقول أبو بطين ﷺ[2]: «فالمدعي أن مرتكب الكفر متأولاً أو مجتهدًا مخطئًا أو مقلدًا أو جاهلاً معذور مخالف للكتاب والسنة والإجماع بلا شك مع أنه لابد أن ينقض أصله فلو طرد أصله كفر بلا ريب كما لو توقف فى تكفير من شك فى رسالة محمد ﷺ ونحو ذلك».

وهذا استدلال قاطع وحاسم أنه لا فرق بين شرك وشرك ولا بين كفر وكفر فى تخصيصه بالجهل من عموم الوعيد وإن محاولة التفريق بين إنكار البعث والشك فى قدرة الله وعلمه وإهانة المقدسات والشرك بالله فى العبادة وبين الإقرار المجمل بالتوحيد وعقد الإسلام والبراءة الإجمالية من الشرك مع الوقوع فى كل هذه الصور من الشرك تفريق باطل، فقد علم من دين الله بالضرورة أنه لا فرق بين كفر وكفر ولا بين شرك وشرك إذا كان أعظم وكفر ينقل عن الملة.

والقول بأن المشرك مسلم ــ فرية عظيمة وبدعة قبيحة ــ لأن معنى ذلك أن من مات على الشرك الأعظم يكون قد مات مسلمًا. ولقى الله بدين يقبل منه ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فى الآخِرَةِ مِنْ الْخَاسِرِينَ﴾[3] وإذا كان من مات على الشرك قد مات على دين يقبل منه فمعني هذا أن الله سبحانه وتعالى قد أذن أن يعبد معه غيره والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾[4] وهذا باطل فما ترتب عليه مثله.

---
(١) النساء، آية: ١٦٥.
(٢) الانتصار لحزب الله الموحدين، ص ١٤.
(٣) آل عمران، آية: ٨٥.
(٤) الزخرف، آية: ٤٥.

وأبو بطين ﷺ لم يفرق بين كفر وكفر ولا بين شرك وشرك ولا بين شرك وكفر، كما لم يفرق البخاري وشراحه بين الشرك والكفر بل جعلوه كله شيئًا واحدًا فيقول (١): «فإن كان مرتكب الشرك الأكبر معذورًا لجهله فمن هو الذي لا يُعذر ولازم هذه الدعوى: أنه ليس لله حجة على أحد إلا المعاند مع أن صاحب هذه الدعوى لا يمكنه طرد أصله بل لابد أن يتناقض فإنه لا يمكنه أن يتوقف فى تكفير من شك فى رسالة محمد ﷺ أو شك فى البعث أو غير ذلك من أصول الدين والشَّاك جاهل والفقهاء رحمهم الله يذكرون فى كتب الفقه حكم المرتد وأنه المسلم الذي يكفر بعد إسلامه نطقًا أو فعلاً أو شكًا أو اعتقادًا، وسبب الشك: الجهل ولازم هذا أنه لا يكفر جهلة اليهود والنصارى ولا الذين يسجدون للشمس والقمر والأصنام لجهلهم ولا الذين حرقهم عليٌّ بن أبي طالب ﷺ بالنار لأننا نقطع أنهم جُهَّال وقد أجمع العلماء على كفر من لم يكفر اليهود والنصارى أو يشك فى كفرهم ونحن نتيقن أن أكثرهم جهَّال.

وقال الشيخ تقيّ الدين: من سبَّ الصحابة أو واحدًا منهم واقترن بسبه دعوي أن عليًا إلهٌ أو أن جبرائيل غلط فلا شك فى كفر هذا بل لا شك فى كفر من توقف فى تكفيره، قال: ومن زعم أن الصحابة ارتدوا بعد رسول الله ﷺ إلا نفرًا قليلاً لا يبلغون بضعة عشرًا أو أنهم فسقوا فلا ريب فى كفر قائل ذلك بل من شك فى كفره فهو كافر قال: ومن ظن أن قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾(٢) بمعني قدَّر، وأن الله ما قدَّر شيئًا إلا وقع وجعل عبَّاد الأصنام ما عبدوا إلا الله: فإن هذا من أعظم الناس كفرًا بالكتب كلها». انتهى.

---

(١) رسالة الانتصار لحزب الله الموحدين، ص١٦-١٨، ضمن رسائل عقيدة الموحدين.

(٢) الإسراء، آية: ٢٣.

ولا ريب أن أهل هذه المقالة هم أهل علم وزهد وعبادة وأن سبب دعواهم هذه الجهل وقد أخبر الله سبحانه عن الكفار أنهم فى شكٍّ مما تدعوهم إليه الرسل وأنهم فى شك من البعث فقالوا لرسلهم: ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾[1]، وقال ﷻ: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾[2]، وقال إخبارًا عنهم: ﴿إِنْ نَظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾[3]، وقال عن الكفار: ﴿إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ۝ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[5]، ووصفهم بغاية الجهل كما فى قوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمْ الْغَافِلُونَ﴾[6].

وقد ذمَّ الله المقلدين بقوله عنهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾[7]. ومع ذلك كفرهم سبحانه وتعالى واستدل العلماء بهذه الآية ونحوها على أنه لايجوز التقليد فى معرفة الله والرسالة وحجة الله قائمة على الناس بإرسال الرسل إليهم وإن لم يفهموا حجج الله وبيناته، قال الشيخ موفق الدين أبو محمد بن قدامة رحمه الله ــ لما أنجز كلامه إلى مسألة هل كل مجتهد مصيب، ورجح قول الجمهور أنه ليس كل مجتهد مصيبًا بل الحق فى قول واحد من أقوال المجتهدين ــ قال: وزعم الجاحظ أن مخالف ملة الإسلام إذا نظر فعجز عن إدرك الحق فهو معذور غير آثم.

---

(١) إبراهيم، آية: ٩.
(٢) هود، آية: ١١٠.
(٣) الجاثية، آية: ٣٢.
(٤) الأعراف، آية: ٣٠.
(٥) الكهف، الآيتان: ١٠٣-١٠٤.
(٦) الأعراف، آية: ١٧٩.
(٧) الزخرف، آية: ٢٢.

إلى أن قال: أما ما ذهب إليه الجاحظ فباطل يقينًا وكفر بالله ورد عليه وعلي رسوله فإنَّا نعلم قطعًا أن النبيَّ ﷺ أمر اليهود والنصارى بالإسلام واتباعه وذمهم على إصرارهم وقاتلهم جميعًا بقتل البالغ منهم ونعلم أن المعاند العارف ممن يقل، وإنما الأكثر مقلدة اعتقدوا دين آبائهم تقليدًا ولم يعرفوا معجزات النبيّ وصدقه والآيات الدالة فى القرآن على هذا كثيرة لقوله ﷻ: ﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ النَّارِ﴾(١)، وقال ﷻ: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمْ الَّذِي ظَنَنتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنْ الْخَاسِرِينَ﴾(٢)، ﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾(٣)، وقوله ﷻ: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾(٤)، ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾(٥)، ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا۝ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ﴾ (٦)». أهـ.

وقالوا لا يعذر بجهله من لم يقر بالتوحيد إقرارًا إجماليًا ولم يتبرأ من الشرك براءة إجمالية ومن ليس عنده عقد الإسلام، أما من كان عنده عقد الإسلام فهذا يعذر بجهله إذا عبد القمروالنجوم والأصنام مع الله سبحانه وتعالى فوقع فى جميع صنوف الشرك إذا لم يخرج عن براءته الإجمالية من الشرك مع ذلك. لا يكفر بشيء من ذلك كله إذا لم يخرج عن إقراره الإجمالي بالتوحيد مع ذلك وبقي مع ذلك على عقد الإسلام لم ينسلخ منه وشبهوا الشرك بالمعاصي، فمن التزم ترك المعاصي التزامًا بشرع الله سبحانه وتعالى لا يبطل التزامه المخالفة بالمعصية إذا لم يلتزم شرعًا آخر يبيح هذه المعاصي أو يأمر. بها كذلك المقصود بترك الشرك هو الالتزام

(١) ص، آية: ٢٧.
(٢) فصلت، آية: ٢٣.
(٣) الجاثية، آية: ٢٤.
(٤) المجادلة، آية: ١٨.
(٥) الأعراف، آية: ٣٠.
(٦) الكهف، الآيتان: ١٠٤-١٠٥.

بترك الشرك. وأن الوقوع فى الشرك لا ينافي هذا الالتزام إذا لم يلتزم شرعًا آخر يبيح هذا الشرك أو يأمر به، وأن الذي يقع فى الشرك لا يكفر بذلك بل إن المسلمين فى عهد رسول الله ﷺ كان أغلبهم على الشرك مع إسلامهم، وأنهم أمروا بترك الشرك تباعًا لا جملة واحدة فى بدء الدعوة، وأن من أسلم بعد اكتمال تحريم الشرك الذي حُرِّم منجمًا كتحريم المعاصي كان يلتزم فقط بالبراءة الإجمالية ويبقى على كثير من مفردات الشرك التي كان عليها دون أن يضر ذلك بإسلامه، وأنه كان يبصَّر أو يوعظ بترك الشرك تباعًا بعد ذلك حسبما تيسر ذلك وربما تُرِكَ الكثير منهم على مفردات شركه دون نهي عن ذلك وبقوا مع ذلك مسلمين لأنهم لم يتح للمسلمين تبصيرهم بترك مفردات الشرك وأنه لا يكفر أحد بالوقوع فى مفردات الشرك والكفر إلا إذا تبين له أن ذلك ينقض التزامه بترك الشرك فعاند بعد ما تبين له الحق أما إذا لم يتبين له الحق وأصر بعد التعريف فهو لا يكفر. هذه هى عقيدة القوم ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا﴾[١].

حتى إذا كان يعلم أن هذا شرك أو كفر ويفعله ولا يقصد به نقض التزامه بالتوحيد فهو كمن يعلم أن هذه معصية ويفعلها ولا يقصد بفعلها نقض التزامه بالشرائع. وقد سبق أن أوضحنا أن المقصود بتحريم الشرك هو الترك ليس مجرد الالتزام بالترك وأن المقصود بالأمر بالتوحيد هو الفعل ليس مجرد الالتزام بالفعل، والمعاصي لا تناقض ولا تنافي حقيقة الإسلام حتى يكفر مرتكبها بارتكابها لمنافاة الفعل لحقيقة الإسلام.

أما الشرك فهو ينافي حقيقة الإسلام لذا يكفر مرتكبه لمجرد الارتكاب لمنافاته لحقيقة الإسلام ولا يكفر فى حالة المعصية إلا بالخروج عن الشرع والعدول عنه شركًا أو كبرًا لمنافاة ذلك لحقيقة الإسلام بالشرك

---

(١) الكهف، آية: ٥.

والكبر فيكون الكفر. والخروج عن الشرع والعدول عنه هو أحد مفـردات الشرك. والتزام الشرع وقبوله هو أحد مفردات التوحيد فهل المطلوب فيه أيضًا الالتزام وليس الترك والالتزام وليس الفعـل وأن المخالفـة بفعـل الخروج عن الشرع معصية وترك الالتزام بالشرائع معصية وأن الكفر هو ترك الالتزام بالالتزام؟؟!!

الالتزام بالشرائع ركنٌ من أركان التوحيد مثل اعتقاد أن الله سـبحانه وتعالى واحد فى ذاته ليس له شبيهًا فى صفاته ولا شريكًا فى خلقه وأنـه هو الحق وأن ما دونه الباطل وأنه واحدٌ أحد فرد صمد حيٌ قيومٌ لم يلـد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد وأنه هو الأول والآخر والظـاهر والبـاطن وأنه لا معبود بحق إلا هو وفعل إفراده بالولاء وترك اتخاذ الأنـداد معـه وإفراده بالنسك فالصلاة لله والصدقة والصيام والحـج والنـذر والـدعاء والذبح كل هذا من مفردات التوحيد وضدها مفردات الشرك فإذا كان الذي يقع فى مفردات الشرك لا يكفر فكذلك من لم يلتزم بالشرائع لأنـه أحـد المفردات وكل هذا باطل، ولا يوجد شيء اسمه الالتـزام بالتوحيـد بـل التوحيد والشرك إتيان وترك. **اللهم هل بلغت اللهم فاشهد.**

أما باقي هذه الافتراءات على الله فسوف نرد عليها فى سياق كلامنا عندما يأتي مناسبة ذلك والشاهد هنا عن هذا الاستدلال لأبي بطين رحمـه الله هو عدم التفريق بين عقد الإسلام وغيره من مفردات الشرك.

أي أن يطرد العذر على اليهود والنصارى أو لا يقوم ولا يثبت أمـا عن تخصيص عبادة الله وحده وتخصيص قول الله سبحانه وتعـالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾(١). فلابـد مـن اسـتكمال الموضوع بقواعد الأصول فى ذلك نقلاً عن الإمام الشاطبي وغيره.

---

(١) النساء، آية: ٤٨.

يقول الإمام الشاطبي[١]: «إنه قد ثبت فى الأصول العلميـــة أن كـــل قاعدة كلية أو دليل شرعي كلي إذا تكررت فى مواضع كثيرة وأتـــي بهـــا شواهد على معانٍ أصولية أو فروعية ولم يقترن بها تقييد ولا تخـــصيص مع تكررها وإعادة تقررها فذلك دليل على بقائها على مقتضى لفظها مـــن العموم كقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾[٢]، وقوله: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى﴾[٣]».

ويقول[٤]: «العمومات إذا اتحد معناها وانتشرت فى أبواب الـــشريعة أو تكررت فى مواطن بحسب الحاجة من غير تخصيص فهي مُجراة على عمومها على كل حال، وإن قلنا بجواز التخصيص بالمنفصل والدليل على ذلك بالاستقراء فإن الشريعة قررت أن لا حرج علينا فى الدين فى مواضع كثيرة ولم تستثن منها موضعًا ولا حالاً فعده علماء الملة أصـــلاً مطـــردًا وعمومًا مرجوعًا إليه من غير استثناء ولا طلب مخصص ولا احتشام من إلزام الحكم به ولا توقف فى مقتضاه، وليس ذلك إلا لما فهموا بـــالتكرار والتأكيد من القصد إلى التعميم التام، وأيضًا قررت ﴿ولا تزر وازرة وزر أخري﴾ فأعملت العلماء المعنى فى مجاري عمومه وردُّوا ما خالفه مـــن أفراد الأدلة بالتأويل وغيره وبينت بالتكرار أن "لا ضرر ولا ضرار" فأبي أهل العلم من تخصيصه وحملوه على عمومه وأن من سنَّ سنة حـــسنة أو سيئة كان له ممن اقتدى به حظًا إن حسنًا وإن سيئًا، وأن من مات مـــسلمًا دخل الجنة ومن مات كافرًا دخل النار.

وعلي الجملة فكل أصل تكرر تقريره وتأكد أمره وفهـــم ذلـــك مـــن مجاري الكلام فهو مأخوذ على حسب عمومه، وأكثر الأصـــول تكـــرارًا

---

(١) الاعتصام، ج١، ص ١٤١.
(٢) الإسراء، آية: ١٥.
(٣) النجم، آية: ٣٩.
(٤) الموافقات، ج٣ ، ص ٣٠٦.

الأصول المكية كالأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربي والنهي عن الفحشاء والمنكر والبغي وأشباه ذلك، فأما إن لم يكن العموم مكررًا ولا مؤكدًا ولا منتشرًا فى أبواب الفقه فالتمسك بمجرده فيه نظر، فلابد من البحث عما يعارضه أو يخصصه.

وإنما حصلت التفرقة بين الصنفين لأن ما حصل فيه التكرار والتأكيد والانتشار صار ظاهره باحتفاف القرائن به إلى منزلة النص القاطع الذي لا احتمال فيه بخلاف ما لم يكن كذلك فإنه معرض لاحتمالات فيجب التوقف فى القطع بمقتضاه حتى يعرض على غيره ويبحث عن وجود معارض فيه». أهـ.

ويقول الإمام الشاطبي بعد أن يذكر من القرآن مثل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لاَ يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾(١)، وقوله ﴿وَلاَ تَطْرُدْ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾(٢) وما فى هذا المعنى من الآيات: «... وما تقدم من آيات القرآن كلها عمومات لا تحتمل التخصيص لأنها محكمات نزلت بمكة احتجاجًا على الكفار وردًا عليهم فى اعتقادهم حمل بعضهم على بعض أو دعواهم ذلك عنادًا ولو كانت تحتمل الخصوص فى هذا المعنى لم يكن فيها رد عليهم ولا قامت عليهم بها حجة، أما على القول بأن العموم إذا خصَّ لا يبقى حجة فى الباقي فظاهر، وأما على قول غيرهم فلتطرق احتمال التخصيص بالقياس أو غيره وإذا تأمل الناظر العمومات المكية وجدها عريّة عن التخصيص والنسخ وغير ذلك من الأمور المعارضة فينبغي للبيب أن يتخذها عمدة فى الكليات الشرعية ولا ينصرف عنها». أهـ.

---

(١) فاطر، آية: ١٨.
(٢) الأنعام، آية: ٥٢.

وقد قلت [1]:أن الكليات على نوعين:

١- تامة لا تحتمل التخصيص ولا غيره.

٢- وكليات يدخل عليها التخصيص من الفروع الجزئية مع مراعاة ضابطين:

أولهما: أن الجزئي يستند في تخصيصه للكلي أو إلى كلي آخر فيرجع الأمر بذلك إلى تخصيص الكليات بعضها بعضًا.

ثانيهما: ألا يقدح تخصيص الجزئي للكليات في قطعية الكلي بخلاف العمومات الجزئية، وقلت أن الكليات التامة تستفاد من:

- الإحكام الراجع إلى الصيغ.
- أصول الدين.
- العمومات المكية.
- ما تكرر فتقرر وانتشر فتأكد وأتي به شواهد على معان أصولية وفروعية.

---

(١) حد الإسلام، ص ٧٠-٧١.

- **التعـــدد والتـــلازم:**

يقول أبو بطين رحمه الله[1]: «وأما الإقرار بتوحيد الربوبية وهو أن الله سبحانه خالق كل شيء ومليكه ومدبره، فهذا يقرُّ به المسلم والكافر ولابد منه لكن لا يصير به الإنسان مسلمًا حتى يأتي بتوحيد الألوهية الذي دعت إليه الرسل وأبى عن الإقرار به المشركون وبه يتميز المسلم من المشرك وأهل الجنة من أهل النار وقد أخبر سبحانه فى مواضع من كتابه عن المشركين أنهم يقرون بتوحيد الربوبية ويحتج عليهم سبحانه بإقرارهم بتوحيد الربوبية على إشراكهم فى توحيد الألوهية قال سبحانه: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنْ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنْ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ۝ فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ﴾[2] الآية.

قال البكري الشافعي فى تفسيره على هذه الآية: إن قلت إذا أقروا بذلك فكيف عبدوا الأصنام؟ قلت كلهم كانوا يعتقدون بعبادتهم الأصنام عبادة الله والتقرب إليه لكن فى طرق مختلفة ففرقة قالت: ليس لنا أهلية عبادة الله بلا واسطة لعظمته فعبدناها لتقربنا إليه زلفى، وفرقة قالت: الملائكة ذوو وجاهة عند الله اتخذناها أصنامًا على هيئة الملائكة لتقربنا إلى الله زلفى، وفرقة قالت: جعلنا الأصنام قبلة لنا فى العبادة كما أن الكعبة قبلة فى عبادته، وفرقة اعتقدت أن لكل صنم شيطانًا موكلاً بأمر الله فمن عبد الصنم حق عبادته قضي الشيطان حوائجه بأمر الله وإلا أصابه شيطانه بنكبة بأمر الله».

---

(١) الانتصار لحزب الله الموحدين، ص ٧-١٠.

(٢) يونس، الآيتان: ٣١-٣٢.

وقال ابن كثير عن قوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾(١). إنما يحملهم على عبادتهم أنهم عمدوا إلى أصنام اتخذوها على صور الملائكة المقربين فى زعمهم فعبدوا تلك الصور تنزيلاً لذلك منزلة عبادتهم الملائكة ليشفعوا لهم عند الله فى نصرهم ورزقهم وما ينوبهم من أمر الدنيا، قال قتادة والسدي ومالك عن زيد بن أسلم وابن زيد: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾(٢) أي ليشفعوا لنا وليقربونا عنده منزلة.

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾(٣)، ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾(٤)، وقال ﷻ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾(٥)، قال ابن عباس وغيره: إذا سألتهم من خلق السماوات والأرض؟ قالوا: الله وهم يعبدون معه غيره، ففسروا الإيمان فى هذه الآية بإقرارهم بتوحيد الربوبية. والشرك بعبادتهم غير الله وهو توحيد الألوهية.

فلما تقرر معنى الإله وأنه المعبود تعين علينا معرفة حقيقة العبادة وحدَّها فعرفها بعضهم بأنها: ما أمر به شرعًا من غير اطراد عرفي ولا اقتضاء عقلي.

وقال بعضهم: هى كمال الحب مع كمال الخضوع وهذا يستلزم طاعة المحبوب والانقياد له.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: هى اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة كالصلاة والصيام والزكاة

---

(١) الزمر، آية: ٣.
(٢) الزمر، آية: ٣.
(٣) الزخرف، آية: ٩.
(٤) الزخرف، آية: ٨٧.
(٥) يوسف، آية: ١٠٦.

والحج وصدق الحديث وأداء الأمانة وبر الوالدين وصلة الأرحام والوفـاء بالعهد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. والدعاء والـذكر وقـراءة القرآن وأمثال ذلك من العبادة فالدين كله داخل فى العبادة فإذا علم الإنسان وتحقق معنى الإله وأنه المعبود وعرف حقيقة العبادة، تبين له أن من جعل شيئًا من العبادة لغير الله فقد عبده واتخذه إلهًا وإن فرَّ من تسميته إلهًـا أو معبودًا وسمي ذلك توسلاً وتشفعًا أو التجاء ونحو ذلك.

فالمشرك مشرك شاء أم أبي كما أن المرابي مراب شاء أم أبى وإن لم يسم ما فعله ربًا وشارب الخمر شارب خمر وإن سمَّاها بغير اسمها وفـي الحديث عن النبيّ ﷺ: «يأتي ناس من أمتي يشربون الخمر يسمونها بغيـر اسمها» فتغيير الاسم لا يغير حقيقة المسمى ولا يزيل حكمه كتسمية البوادي سوالفهم الباطلة حقًا وتسمية الظلمة ما يأخذونه من الناس بغير اسمه.

ولما سـمع عدي بن حاتم ــ وهو نصـراني ــ قـول الله تعـالى ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾[1] قال للنبيّ ﷺ إنَّا لـسنا نعبدهم قال: «أليس يحرمون ما أحلَّ الله فتحرمونه ويحلون ما حـرَّم الله فتحلونه. قال: قلت: بلى. قال: فتلك عبادتهم». فعديٌّ ﷺ ما كان يحسب أن موافقتهم فيما ذكر عبادة منهم لهم فأخبره النبيّ ﷺ أن ذلك عبادة منهم لهم مع أنهم لا يعتقدونه عبادة لهم. وكذلك ما يفعله عباد القبـور مـن دعـاء أصحابها وسؤالهم قضاء الحاجات وتفريج الكربات والتقرب إليهم بالذبائح والنذور عبادة منهم للمقبورين وإن كانوا لا يسمونه ولا يعتقدونـه عبـادة وكذلك الذين قالوا للنبيّ ﷺ: «اجعل لنا ذات أنواط» ما كانوا يظنـون أن قولهم "اجعل لنا ذات أنواط" كقول بني إسرائيل ﴿اجْعَل لَنَا إِلَهًا كَمَـا لَهُـمْ آلِهَةٌ﴾[2] ولم يظنوا أن هذا من التأله لغير الله الذي تنفيـه "لا إلـه إلا الله"

---

(1) التوبة، آية: ٣١.

(2) الأعراف، آية: ١٣٨.

لأنهم يقولون: لا إله إلا الله ويعرفون معناها ـ لأنهم عرب ـ لكن خفيت عليهم هذه المسألة لحداثة عهدهم بالكفر حتى قال النبيُّ ﷺ: «الله أكبر إنها السنن، قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿اجْعَل لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ لتركبن سنن من كان قبلكم». فإن قيل فالنبيُّ ﷺ لم يكفرهم بذلك قلنا: هذا يدل على أن من تكلم بكلمة الكفر جاهلاً بمعناها ثم نُبِّه فتنبَّه أنه لا يكفر. ولاشك أن هؤلاء لو اتخذوا ذات أنواط بعد إنكار النبيّ ﷺ لكفروا وقال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ۞ إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي﴾[1]. قال مجاهد وقتادة: هى شهادة أن لا إله إلا الله فلا يزال فى ذرية إبراهيم من يعبد الله وحده. ففي الآية والحديثين قبلها بيان لمعنى لا إله إلا الله وأن المراد منها البراءة من التأله والعبادة لغير الله وإفراده سبحانه بالعبادة ومن أعظم المصائب إعراض أكثر الناس عن النظر فى معنى هذه الكلمة العظيمة حتى صار كثير منهم يقول: من قال لا إله إلا الله ما نقول فيه شيئًا وإن فعل ما فعل لعدم معرفتهم بمعنى هذه الكلمة نفيًا وإثباتًا مع أن قائل هذا لابد وأن يتناقض فلو قيل له ما تقول فيمن قال: لا إله إلا الله ولا يقر برسالة محمد بن عبد الله لم يتوقف فى تكفيره أو أقر بالشهادتين وأنكر البعث لم يتوقف فى تكفيره أو استحل الزنا واللواط أو نحوهما أو قال إن الصلوات الخمس ليست بفرض أو إن صيام رمضان ليس بفرض فلابد أن يقول بكفر من قال ذلك فكيف لا تنفعه لا إله إلا الله إذن ولا تحول بينه وبين الكفر؟ فإذا ارتكب ما يناقضها وهو عبادة غير الله وهو الشرك الأكبر الذي هو أكبر الذنوب قيل هو يقول لا إله إلا الله ولا يجوز تكفيره لأنه يتكلم بكلمة التوحيد لكن آفة الجهل والتقليد أوجبت ذلك.

---

(١) الزخرف، آية: ٢٦.

وهؤلاء ونحوهم إذا سمعوا من يقرر أمر التوحيد وينكر الشرك استهزأوا به وعابوه قال شيخ الإسلام ابن تيمية قدَّس الله روحه ــ فى أثناء كلام له ــ والضالون مستخفون بتوحيد الله، معظمون دعاء غيره من الأموات وإذا أمروا بالتوحيد ونهوا عن الشرك استخفوا به كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً ۞ إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلاَ أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾(١) الآية. فاستهزءوا بالرسول لما نهاهم عن الشرك ومازال المشركون يسبون الأنبياء ويصفونهم بالسفاهة والضلال والجنون إذا دعوهم إلى التوحيد لما فى أنفسهم من تعظيم الشرك وكذلك من فيه شبهة منهم إذا رأوا مَنْ يدعو إلى التوحيد استهزءوا به لما عندهم من الشرك.

ومن كيد الشيطان لمبتدعة هذه الأمة ــ المشركين بالبشر من المقبورين وغيرهم ولما علم عدو الله أن كل من قرأ القرآن أو سمعه ينفر من الشرك ومن عبادة غير الله ــ ألقى فى قلوب الجهال أن هذا الذي يفعلونه مع المقبورين وغيرهم ليس عبادة لهم وإنما هو توسل وتشفع بهم والتجاء إليهم ونحو ذلك فسلب العبادة والشرك اسمهما من قلوبهم وكساهما أسماء لا تنفر عنها القلوب ثم ازداد اغترارهم وعظمت الفتنة بأن صار بعض من ينسب إلى علم ودين يسهل عليهم ما ارتكبوه من الشرك ويحتج لهم بالحجج الباطلة فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.

قال الشيخ أبو بطين فى موضع آخر من الرسالة(٢): «ومما يتعين الاعتناء به: معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله لأن الله سبحانه وتعالى ذمَّ من لا يعرف حدود ما أنزل الله على رسوله فقال تعالى: ﴿الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾(٣).

---

(١) الفرقان، الآيتان ٤١-٤٢.
(٢) الانتصار لحزب الله الموحدين، ص ٢٤
(٣) التوبة، آية: ٩٧.

قال شيخ الإسلام: معرفة حدود الأسماء واجبة لأن بها قيام مصلحة الآدميين فى المنطق الذي جعله الله رحمة لهم لاسيما حدود ما أنزل الله على رسوله من الأسماء: كالخمر والربا فهذه الحدود هى المميزة بين ما يدخل فى المسمي وما يدل عليه من الصفات وفيه ما ليس كذلك.

ففرض على المكلف معرفة حد العبادة وحقيقتها التي خلقنا الله لأجلها ومعرفة حد الشرك وحقيقته الذي هو أكبر الكبائر وتجد كثيرًا ممن يشتغل بالعلم لا يعرف حقيقة الشرك الأكبر وإن قال: إنه الشرك فى العبادة لقول الله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾(١)، ﴿وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾(٢)، وقوله ﷺ: «حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا» فإنه لا يعرف حد العبادة وحقيقته وربما قال العبادة التي صرفها لغير الله شرك، كالصلاة والسجود مع اعترافه بأن الشرك الذي حرمه الله هو الشرك فى العبادة فإذا طلب منه الدليل على أن الله سمى الصلاة لغيره أو السجود لغيره شركًا لم يجده وربما قال لأن ذلك خضوع والخضوع لغير الله شرك فيقال له هل تجد فى القرآن أو السنة تسمية هذا الخضوع شركًا فلا يجده فيلزمه أن يقول لأنه عبادة لغير الله فيقال وكذلك الدعاء والذبح والنذر عبادات مع ما يلزم هذه العبادات من أعمال القلوب من الذل والخضوع والحب والتعظيم والتوكل والخوف والرجاء وغير ذلك وفي الحديث «الدعاء مخ العبادة» وقد قرن الله سبحانه بين الصلاة والذبح فى قوله ﷻ: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾(٣) أي أخلص له فى صلاتك وذبيحتك فكما أن الصلاة لغير الله شرك فكذا قرين الصلاة وهو الذبح لغيره شرك وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾(٤).

(١) النساء، آية: ٣٦.
(٢) الكهف، آية: ١١٠.
(٣) الكوثر، آية: ٢.
(٤) الأنعام، الآيتان: ١٦٢-١٦٣.

ومن العجب قول بعض من يحتج للمشركين بالأموات أنهم لا يرجون قضاء حاجتهم من الميت ونحن نقول: هذه مكابرة ومغالطة لأنه من المعلوم عند كل ذي عقل أنهم ما دعوهم وتذللوا وخضعوا لهم وبذلوا أموالهم بالنذور والذبائح إلا لأنهم يرجون حصول مطلوبهم وقضاء حاجاتهم من جهتهم فكيف يتصور عند عاقل أن يسمع من يسأل الميت والغائب حاجة بأن يقول أعطني كذا أو أنا فى حسبك ويستغيث به فى دفع عدو أو كشف ضر ويتذلل ويخضع له ثم يقول أنه لا يرجو حصول مطلوبه أو دفع مرهوبه من جهته!

وكيف يتصور أن يبذل ماله بالنذر والذبح ـ مع أن المال عزيز عند أهله ـ لمن لا يرجوه ويعتقد أنه لا يحصل له من جهته نفع ولا دفع ضر فهذا من أبين المحال وأبطل الباطل كيف وهم يفخرون بقضاء حاجاتهم وكشف كرباتهم من جهتهم فبعض منهم يعتقد أن الميت ونحوه يفعل ذلك وبعضهم يقول: هم وسيلتنا إلى الله يعنون واسطة بينهم وبين الله. كما عليه المشركون الأولون، كما أخبر الله عنهم أنهم يقولون ﴿هَؤُلاَءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾[1]، ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾[2]، بل كثيرٌ من مبتدعة هذه الأمة أعظم غلوًا واعتقادًا فى ولائهم من المشركين الأولين لأن الله سبحانه وتعالى أخبر عن المشركين الموجودين حين نزول القرآن أنهم يخلصون لله الدعاء فى حال الشدة وينسون آلهتهم وكثير من غلاة أهل هذا الزمان يخلصون الدعاء عند الأمور المهمة والشدائد لأوليائهم كما هو مستفيض عنهم قال الله تعالى إخبارًا عن المشركين الأولين: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِى الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾[3].

---

(١) يونس، آية: ١٨.
(٢) الزمر، آية: ٣.
(٣) العنكبوت، آية: ٦٥.

ومن العجب قول بعض من ينسب إلى علم ودين أن طلبهم من المقبورين والغائبين ليس دعاء لهم بل هو نداء أفلا يستحي هذا القائل من الله إذا لم يستح من الناس من هذه الدعوى الفاسدة السمجة التي يروج بها على رعاع الناس والله سبحانه قد سمى الدعاء، نداء فى قوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾[(١)]، وقوله ﷻ: ﴿فَنَادَى فى الظُّلُمَاتِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنْ الظَّالِمِينَ﴾[(٢)]. وأي فرق بين ما إذا سأل العبد ربَّه حاجة وبين ما إذا طلبها من غيره ميت أو غائب بأن الأول يسمي دعاءً والثاني نداءً، ما أسمج هذا القول وأقبحه وهو قول يستحي من حكايته لولا أن يروج على الجهال لاسيما إذا سمعوه ممن يعتقدون علمه ودينه وأي فرق بين سؤال الميت حاجة وبين سؤالها من صنم ونحوه فإن الثاني يسمي دعاءً والأول نداءً، فإن قال الكل يسمي نداء لا دعاء فهذا مشاقة للقرآن، ومحادة لله ورسوله ولا يحتاج فى بيان بطلانه لأكثر من حكايته وما أظن عاقلاً يحيك هذا فى نفسه وإنما هو عناد ومكابرة إنما تروج على أشباه البهائم أما يخاف هذا أن يتناوله قوله ﷻ: ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾[(٣)].

والله سبحانه وتعالى سمَّى سؤال غيره دعاء فى غير موضع من كتابه ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لاَ يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾[(٤)]. والدعاء فى القرآن يتناول دعاء العبادة ودعاء المسألة ويقال لمن ادعى أن الشرك هو الصلاة والسجود لغير الله فقط مع أن هذا مكابرة من مدعيه فكمًا أن السجود عبادة فكذلك الدعاء والنذر والذبح وغيرها كما تقدم تعريفه وقد نهى الله عن دعاء غيره وذمَّ فاعل ذلك وأمرنا بإخلاص الدعاء له أكثر مما ذكر فى خصوصية السجود مع أن الدعاء فى القرآن يتناول دعاء المسألة ودعاء العبادة الذي

---

(١) مريم، آية: ٣.
(٢) الأنبياء، آية: ٨٧.
(٣) غافر، آية: ٥.
(٤) فاطر، آية: ١٤.

يدخل فيه السجود وغيره من أنواع العبادة. قال تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾[1]، وقال ﷻ: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾[3]، وقال ﷻ: ﴿وَلاَ تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنْفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[4]، وقال ﷻ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لاَ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾[5]، وقال ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ۞ إِنْ تَدْعُوهُمْ لاَ يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾[6].

وفي القرآن مثل ذلك ما لا يحصى. قال شيخ الإسلام فى الكلام على دعوة ذي النون: ولفظ الدعاء والدعوة فى القرآن يتناول دعاء العبادة ودعاء المسألة وفُسِّر قوله تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[7] بالوجهين وفي حديث النزول «من يدعوني فأستجيب له من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له» والمستغفر سائل والسائل داعٍ لكن ذكر السائل لدفع الشر بعد السائل للخير وذكرهما بعد الدعاء الذي يتناولهما وغيرهما من عطف الخاص على العام وسماها دعوة لتضمنها النوعين فقوله ﴿أَنْ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ أَنْتَ﴾ عتراف بتوحيد الألوهية وهو يتضمن النوعين فإن الإله هو المستحق لأن يدعي بالنوعين. وقال ابن القيم فى "البدائع" بعد آيات ذكرها قال: «وهذا فى القرآن كثير يبين أن المعبود لابد أن يكون مالكًا للنفع والضر فهو يدعي للنفع والضر دعاء المسألة ويدعي رجاء وخوفًا دعاء العبادة

---

(١) الجن، آية: ١٨.
(٢) غافر، آية: ١٤.
(٣) الرعد، آية: ١٤.
(٤) يونس، آية: ١٠٦.
(٥) الأحقاف، آية: ٥.
(٦) فاطر، الآيتان: ١٣-١٤.
(٧) غافر، آية: ٦٠.

فعلم أن النوعين متلازمان فكل دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة. إلى أن قال: وليس هذا من استعمال اللفظ المشترك فى تفسير معنييه كليهما ولا استعمال اللفظ فى حقيقته ومجازه بل هذا استعمال له فى حقيقته الواحدة المتضمنة للأمرين جميعًا. فعلي هذا يكون النهي عن دعاء غير الله نصًا فى دعاء العبادة وفي دعاء المسألة حقيقة فهو نهي عن كل منهما حقيقة».

ويقول الشيخ فى الرسالة نقلاً عن شيخ الإسلام ابن تيمية من "اقتضاء الصراط المستقيم": «وجماع ذلك أن الشرك نوعان شرك فى ربوبيته بأن يجعل لغيره معه تدبير، كما قال تعالى: ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لاَ يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فى السَّمَاوَاتِ وَلاَ فى الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾(١). وشركٌ فى الألوهية بأن يدعوا غيره دعاء عبادة أو دعاء مسألة كما قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾». أهـ.

ومفاد كلام أبي بطين رحمه الله أن الإنسان لا يصير مسلمًا بتوحيد الربوبية بل لابد معه من توحيد الألوهية وهو توحيد العبادة فهما إذن متلازمان لا يقبل أحدهما بدون الآخر، كما أن مفردات كل من التوحيدين متلازمة، مفردات الربوبية متلازمة، ومفردات توحيد الألوهية متلازمة، فاليهود كفروا لأنهم آمنوا ببعض صفات الله سبحانه وكفروا ببعضها الآخر فقالوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ وقالوا ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾، وقالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾، وقالوا: ﴿عزيرٌ بن الله﴾، وقال غيرهم: ﴿المسيح بن الله﴾ ولاشك أنهم آمنوا بغير هذا من صفات الله، وآمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعضه الآخر فحرموا الاسترقاق واستحلوا القتل وآمنوا ببعض الكتب وكفروا بالآخر، فقالوا: ﴿ نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ

(١) سبأ، آية: ٢٢.

وَهُوَ الحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾ فرّقوا بين الله ورسله فقالوا: ﴿ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ والمؤمنون آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسوله ولم يفرقوا بين أحد منهم ولما قالوا التماسًا للتخفيف هذه لا نطيقها قال لهم رسول الله ﷺ أتقولون: كما قال أهل الكتابين قبلكم سمعنا وعصينا، بل قولوا سمعنا وأطعنا فلما قالوها وذلت بها ألسنتهم أنزل الله ﷻ: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾(١). ولاشك أنهم سمعوا وأطاعوا لما سوى ذلك ولا يتم الإيمان إلا بالقبول لكل الشرع ورفض شريعة واحدة رفض للشرع كله وهذا هو معنى قوله تعالى ﴿ادْخُلُوا فِى السِّلْمِ كَافَّةً﴾(٢). وقالت اليهود ميكال يأتي بالرزق والخير وجبريل لا يأتي إلا بالشدة وهو عدونا فأنزل الله ﷻ: ﴿ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾(٣).

فالإيمان بصفات الله عزّ وجل التي لا يتم العلم به إلا بالعلم بها ــ بخلاف غيرها من صفاته التي لا يكون الجهل بها جهلاً به ــ يتلازم والإيمان بالله يتلازم مع الإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره وعندما كذب قوم بالقدر خرجوا من الإسلام وكذلك من كذب بالبعث فهذا الإيمان المقابل للكفر لا يذهب بعضه ويبقي بعضه فيجتمع إيمان وكفر، والكفر يستوي قليله وكثيره، وكل كفر مخرج من الملة لا ينفع معه ما بقى من الإيمان ولا يتحقق الإيمان إلا بالخلو من جميع النواقض المكفرة وأن يقول أسلمت لله وتخليت ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾(٤). إيمانهم إقرارهم وشركهم أنهم يعبدون مع الله غيره ومن عبد

(١) البقرة، آية: ٢٨٥.
(٢) البقرة، آية: ٢٠٨.
(٣) البقرة، آية: ٩٨.
(٤) يوسف، آية: ١٠٦.

مع الله غيره في بعض العبادات فقد أشرك بالله شيئًا ومن أشرك بالله شيئًا لا ينفعه ما بقى معه من توحيد وكما قال أبو بطين رحمه الله فقد خسروا الإيمان بتوحيد الربوبية ولا يدخل به صاحبه الملة ولا ينجو به من الخلود في النار إلا مع ترك الشرك في العبادة وهو حقيقة. الإسلام فالإيمان والإسلام متلازمان أو توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية متلازمان لا يقبل أحدهما بدون الآخر، وعند الإطلاق يدخل معنى أحدهما تحت لفظ الآخر، فحقيقة الإيمان وحقيقة الإسلام واحدة عند الإطلاق في الإيمان والإسلام المقابل للكفر وهي توحيد الألوهية المستلزم والمتضمن لتوحيد الربوبية وتوحيد الربوبية وتوحيد الألوهية كلاهما متعدد ومتلازم في نفسه ومع قرينه، والتلازم معه التعدد لا يمكن مع أن يبقى بعضه ويذهب بعضه لأن في هذا نفي للتلازم فينتفي التعدد أيضًا ويؤول الأمر لشيء واحد وهو مجرد الانتساب وهو قول الإرجاء وهو معلوم البطلان من الدين بالضرورة.

أما الإيمان المطلق الشامل لمراتب التكاليف الثلاثة وليس المقابل للكفر كما في قول الله ﷻ: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمْ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمْ الرَّاشِدُونَ ۝ فَضْلاً مِنْ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾[1]. فهذا التعدد ليس فيه تلازم فيمكن أن يبقى بعضه ويذهب بعضه ﴿خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾[2]. ويمكن أن يذهب الإيمان الكامل أو المستحب كله، قولاً وعملاً ويبقى الإيمان الواجب. ويمكن أن يذهب الإيمان الواجب كله ويبقى الإيمان المجمل، وإذا كان الإيمان المجمل أو الإسلام هو التوحيد فالتوحيد صلب وكمالات، ويتفاضل فيه الناس ويتفاوتون تفاوتًا وتفاضلاً عظيمًا. وهناك قدر متحقق في جميع أهل التوحيد ممن أوجب لهم توحيدهم الخلود في الجنة والخروج من النار وهو

(١) الحجرات، الآيتان: ٧-٨.

(٢) التوبة، آية: ١٠٢.

ترك الشرك الأعظم بنوعيه فى الاعتقاد والعبادة، فهذا القدر كما سبق أن قلنا لابد أن يتحقق فى المرسلين والأنبياء والشهداء والصالحين والصديقين والمقربين والأبرار وأهل الوعد بلا وعيد وأهل الوعد مع الوعيد والجهنميين عتقاء الرحمن أصحاب الخواتيم آخر من يخرج من النار لم يعملوا خيرًا قط زائدًا على التوحيد، وترك الشرك الأعظم بنوعيه فى الاعتقاد والعبادة لا يتحقق إلا بالتوحيد، فلابد من أقل قدر من العلم تنتفي به الجهالة، وأقل قدر من اليقين ينتفي به الشك، وأقل قدر من الصدق ينتفي به النفاق، وأقل قدر من الإخلاص ينتفي به الشرك، وأقل قدر من القبول ينتفي به الرد، وأقل قدر من الانقياد ينتفي به الترك، وأقل قدر من المحبة تنتفي به العداوة والمشاقة والمحادة. وهذا هو الحد الفاصل بين الإيمان والكفر أو حد الإسلام، وهذا التعدد فيه مع التلازم ولا يمكن أن يذهب بعضه ويبقى بعضه لأن التوحيد أن يكون الدين كله لله، والشرك أن يكون بعض الدين لله وبعضه لغير الله، كما قال شيخ الإسلام فى "اقتضاء الصراط" و"الفتاوى" وغير ذلك وفي الإيمان المقابل للكفر لا يمكن أن تجتمع أصول الإيمان مع أصول الكفر، ولا صلب التوحيد مع الشرك الأعظم. وفي الإيمان المطلق فيما زاد على التوحيد من عمل إيجابًا أو استحبابًا يمكن أن تجتمع شعب الكفر وهي المعاصي مع شعب الإيمان وهي الطاعات وشعب الإيمان مع شعب النفاق ــ ليس النفاق الخالص ــ.

والمعاصي بأي قدر بالغة ما بلغت لا تنافي حقيقة الإسلام ولا حقيقة الإيمان، فلا يقع بها الكفر ولا تُخرج من الملة وهي من شعب الكفر، ومن أمر الجاهلية، كما قال البخاري ﷺ: "المعاصي من أمر الجاهلية ولا يكفر مرتكبها إلا بالشرك" أي بارتكابه الشرك يَكْفر ويُكفّر مرتكبه لمجرد الارتكاب، والمعصية لا يَكْفر ولا يُكفّر مرتكبها إلا برد الأمر أو باعتقاد الحل لا يكفر لمجرد الارتكاب خلافًا للشرك. ودخول الكفر بأي قدر مهما

قل يخرج من الملة وينتفي معه الإسلام والإيمان، لأن الشرك والكفر يناقضان حقيقة الإسلام، وحقيقة الكفر تنافي حقيقة الإيمان، وبالخروج من الملة لا ينفع ما بقي من الإيمان لأنه من يكفر بالإيمان فقد حبط عمله ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[1].

والعبادة حق الله الخالص، والتوحيد هو إفراد الله سبحانه وتعالى بحقه الخالص، ولا يتحقق توحيد العبادة بأن تكون الصلاة والسجود لله، ويكون دعاء المسألة ودعاء العبادة لغير الله معه أو من دونه أو يكون الذبح أو النذر أو تقريب القرابين وتسييب السوائب لغير الله معه أو من دونه، بل لابد أن ينصرف إلى الله سبحانه كل ما هو حق خالص لله، فإذا انصرف لغيره حق خالص له فى شيء واحد فقد أشرك من فعل ذلك بالله شيئًا، ومن فعل ذلك ومات عليه فقد أوجب له ذلك الخلود فى النار «مَنْ مات يشرك بالله شيئًا دخل النار»، وشيئًا نكرة فى سياق نهي فى قوله تعالى: ﴿أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾[2]. وفي تعريف الإسلام فى حديث جبريل عليه السلام «أن تعبد الله ولا تشرك به شيئًا» يفيد العموم والاستغراق والتوحيد كما قلت أن يكون الدين كله لله، والشرك أن يكون بعض الدين لله وبعضه لغير الله فلا يصلح فى توحيد العبادة أن يبقى بعضه ويذهب بعضه لأن التعدد فيه مع التلازم والله سبحانه وتعالى لا يغفر شركًا ومن مات يشرك بالله شيئًا دخل النار، ومن مات لا يشرك بالله شيئًا نكرة فى سياق نفي دخل الجنة، ولا يدخل الجنة إلا نفسٌ مسلمةٌ ولا يدخل الجنة إلا نفسٌ مؤمنة فالنفس المسلمة أو المؤمنة هى النفس تموت، ولا تشرك بالله شيئًا وإن حُرِّقت وقُطِّعت.

---

(١) الزمر، آية: ٦٥.
(٢) آل عمران، آية: ٦٤.

والخوارج يوجبون التعدد مع التلازم فى الإيمان المطلق، أي فى جملة الفرائض وهو معلوم البطلان من الدين بالضرورة لأنه يستلزم التكفير بالمعصية وفي ذلك مصادمة نصوص القرآن والسنة كفاحًا والمرجئة يقولون أن التعدد ليس معه تلازم ويمكن أن يذهب بعض الإيمان ويبقى بعضه فى الإيمان المقابل للكفر أي فى التوحيد وترك الشرك، وفي الإيمان المطلق وهو زيادة العمل على التوحيد لا يفرقون فى ذلك بين التوحيد وترك الشرك وبين ما يزيد على التوحيد من عمل أو قول إيجابًا أو استحبابًا وهو أيضًا معلوم البطلان من الدين ضرورة لأنه يصادم النصوص كفاحًا ويستلزم أن يكون المشرك مسلمًا قد لقىَ الله بدين يقبل منه وينجو به من الخلود فى النار مع موته على الشرك الأعظم وهو بذلك تكذيب لفظي لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾(١) وغير ذلك من النصوص وأهل السنة يثبتون التعدد مع التلازم فى صلب التوحيد وترك الشرك ولا يمكن أن يذهب بعضه ويبقى بعضه فى صلب التوحيد وترك الشرك الأعظم ويثبتون التعدد مع نفي التلازم فى الإيمان المطلق وهو ما زاد على صلب التوحيد من عمل أو قول إيجابًا أو استحبابًا فيفرقون بين الشرك الأعظم والمعاصي وبين صلب التوحيد والطاعات.

وهذا التفريق هو الذي يتميز به أهل السنة عن المرجئة والخوارج فأهل السنة قالوا: ثلاثة أشياء ضد ثلاثة أشياء: التوحيد وضده الشرك السنة وضدها البدعة والطاعة وضدها المعصية.

ووقوع حقيقة العبادة لغير الله شرك شاء المشرك أم أبي وتغيير الأسماء لا يغير حقائق الأشياء وسواء قصد به العبادة واعتقده وعلمه

---

(١) النساء، آية: ٤٨.

عبادة أم لم يقصد به العبادة ولم يعتقده عبادة، ولم يعلم وجه كــون الفعــل عبادة، فالعبادة دين، والله ﷻ يقول: ﴿وقَاتِلُوهُمْ حَتَّي لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُــونَ الدِّينُ كُلُهُ للهِ﴾[1]. والفتنة كما قال العلماء هى الشرك، وذلك بــأن يكــون بعض الدين لله، وبعضه لغير الله عزَّ وجل. وقوله لا إله إلا الله لا ينفــي عنه وقوع الشرك منه. والعبادة لغير الله لا فرق فيها بين صلاة وســجود وصيام وحج وذبح ونذر ودعاء مسألة ودعاء عبادة أو دعــاء ونــداء أو تقضي حوائج فكله عبادة لغير الله ومن ترك شرك الاعتقاد ووقع فى شيء من شرك العبادة فهو مشرك غير مسلم وغير مؤمن وإذا مات على ذلــك أوجب له ذلك الخلود فى النار، ومنع الخروج منها ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّــهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾[2]. وهــو بالشرك كافر لمنافاة الشرك لحقيقة الإسلام، وترك الشرك كما سبق أن قلنا متلازم فالوقوع فى شرك أعظم واحد يخرج من الملة ويحبط معه العمــل ولا ينفع ما بقى معه من إيمان أو ما بقى معه من توحيد، وكذلك من ترك شرك العبادة ووقع فى شيء من شرك الاعتقاد بلا فرق.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية[3] عن أن الإيمان بالرسل متلازم: «والله تعالى جعل من دين الرسل أن أولهم يبشر بآخرهم ويؤمن به وآخرهم يصدق بأولهم ويؤمن به قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنْ الشَّاهِدِينَ﴾[4]. وقال ابن عباس لم يبعث الله نبيًا إلا أخذ عليه الميثاق لئن

---

(١) الأنفال، آية: ٣٩.

(٢) المائدة، آية: ٧٢.

(٣) الرسالة التدمرية، طبعة مكتبة التراث الإسلامي، ص ٧٧.

(٤) آل عمران، آية: ٨١.

بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بعث محمد وهم أحـــياء ليؤمنن به ولينصرنه وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنْ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا...﴾(١). وجعل الإيمان بهم متلازمًا وكفر من قال أنه آمن ببعض وكفر ببعض قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً ۞ أُوْلَئِكَ هُمْ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾(٢)». أهـــ.

ويقول شيخ الإسلام فى مواضع كثيرة عن تلازم توحيد العبادة مـــع توحيد الاعتقاد، يقول فى "الرسالة التدمرية" بعد كلام(٣): «وبهذا وغيـــره يعرف ما وقع من الغلط فى مسمى التوحيد فإن عامـــة المتكلمـــين الـــذين يقررون التوحيد فى كتب الكلام والنظر غايتهم أن يجعلوا التوحيد ثلاثـــة أنواع، فيقولون هو واحد فى ذاته لا قسيم له، وواحد فى صفاته لا شـــبيه له، وواحد فى أفعاله لا شريك له. إلى أن يقول: والتوحيـــد أن يعبـــد الله وحده لا شريك له، والإشراك أن يجعل مع الله إلهًا آخـــر، وإذا تبـــين أن غاية ما يقرره هؤلاء النظار أهل الإثبات للقدر، المنتسبون للسنة ــ إنمـــا هو توحيد الربوبية، وأن الله ربّ كل شيء، ومع هذا فالمـــشركون كـــانوا مقرين بذلك مع أنهم مشركون وكـــذلك طوائـــف مـــن أهـــل التـــصوف والمنتسبين إلى المعرفة والتحقيق والتوحيد غاية ما عندهم من التوحيد هو شهود هذا التوحيد، وأن يشهد أن الله ربَّ كل شيء ومليكه وخالقه، لاسيما إذا غاب العارف بموجوده عن وجوده وبمشهوده عن شهوده، وبمعروفـــه

(١) المائدة، آية: ٤٨.
(٢) النساء، الآيتان: ١٥٠-١٥١.
(٣) الرسالة التدمرية، ص ٨٣.

عن معرفته، ودخل فى فناء توحيد الربوبية بحيث يفني من لم يكن، ويبقي من لم يزل، فهذا عندهم هو الغاية التي لا غاية وراءها، ومعلوم أن هـذا هو تحقيق ما أقر به المشركون من التوحيد، ولا يصير الرجل بمجرد هذا التوحيد مسلمًا فضلاً عن أن يكون وليًا لله أو من سادات الأولياء». أهـ.

ويقول فى "الفتاوى" بعد أن يذكر توحيد الاعتقاد بأنواعه الثلاثة الـذات والصفات والأفعال يقول(١): «وأما التوحيد العملي الذي ذكره الله فى كتابـه وأنزل به كتبه وبعث به رسله واتفق عليه المسلمون من كل ملة فهو كما قال الأئمة: شهادة أن لا إله إلا الله وهو عبادة الله وحده لا شريك لـه. إلـى أن يقول: والشرك الذي ذكره الله فى كتابه إنما هو عبادة غيره من المخلوقـات كعبادة الملائكة أو الكواكب أو الشمس أو القمر أو الأنبيـاء أو تمـاثيلهم أو قبورهم أو غيرهم من الآدميين ونحو ذلك مما هو كثير فى هؤلاء الجهميـة ونحوهم ممن يزعم أنه محقق فى التوحيد وهو أعظم الناس إشـراكًا وقـال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾(٢). وقـال ابـن عبـاس وعطاء وعكرمة ومجاهد يسألهم من خلق الـسموات والأرض فيقولـون الله وهم مع هذا يعبدون غيره ويشركون به، ويقولون له ولد، وثالث ثلاثة، فكان الكفار يقرون بتوحيد الربوبية وهو نهاية ما يثبته هؤلاء المتكلمون إذا سلموا من البدع فيه ومع هذا كانوا مشركين لأنهم كانوا يعبدون غير الله... فـدين الله أن يدينه العباد ويدينون له فيعبدونه ويطيعونه وذلك هو الإسلام له فمـن ابتغي غير هذا دينًا فلن يقبل منه. إلى أن يقول: فهذا موضـع عظـيم جـدًا ينبغي معرفته لما قد لبس على الناس أصل الإسلام حتى صاروا يدخلون فى أمور عظيمة هى شرك يتنافى مع الإسلام لا يحسبونها شركًا، وأدخلوا فـى التوحيد والإسلام أمورًا باطلة ظنوها من التوحيد وهي تنافيه وأخرجوا مـن

(١) الفتاوى الكبري، ج٥، ص ٢٤٨ وما بعدها.
(٢) يوسف، آية ١٠٦.

الإسلام والتوحيد أمورًا عظيمة لم يظنوها من التوحيد وهي أصـــله. فـــأكثر هؤلاء المتكلمين لا يجعلون التوحيد إلا ما يتعلق بالقول والرأي واعتقاد ذلـــك دون ما يتعلق بالعمل والإرادة واعتقاد ذلك.

بل التوحيد الذي لابد منه لا يكون إلا بتوحيد الإرادة والقصد وهـــو توحيد العبادة وهو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله أن يقـــصد الله بالعبـــادة ويريده بذلك دون ما سواه وهذا هو الإسلام فإن الإسلام يتضمن أصلين:

أحدهما: الاستسلام لله.

والثاني: أن يكون ذلك سالمًا له فلا يشركه أحد فى الإسلام له وهـــذا هو الاستسلام لله بغير شريك وسورة "قل يا أيها الكافرون" تفـــسر ذلـــك وأما التوحيد القولي الذي هو الخبر عن الله ففي سورة "قل هو الله أحـــد" التي تعدل ثلث القرآن وفيها اسمه الأحد الصمد وكل من هذين الاســـمين يدل على نقيض مذهب هؤلاء الجهمية.

وعبادة الله وحده يدخل فيها كمال المحبة وحده وكمال الخوف منـــه وحده وكمال الرجاء له والتوكل عليه وحده كما يبين ذلك القرآن فى غيـــر موضع فكل ذلك من أصل التوحيد الذي أوجبه الله على عباده وبذلك يكون الدين كله كما أمر الله رسوله والمؤمنين بالقتال إلى هذه الغاية حيث يقول ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾». أهـــ.

ويقول ابن تيمية(١): «وطائفة ظنوا أن التوحيد ليس إلا إقرارًا بتوحيد الربوبية وأن الله خالق كل شيء وهو الذي يسمونه توحيد الأفعال. إلى أن يقول: وهذا التوحيد هو التوحيد الواجب لكن لا يحصل به كل الواجب ولا يخلص بمجرده عن الإشراك الذي هو أكبر الكبائر والذي لا يغفره الله بل لابد أن يخلص لله الدين والعبادة فلا يعبد إلا إياه ولا يعبده إلا بما شـــرع فيكون دينه كله لله عزَّ وجلَّ». أهـــ.

(١) اقتضاء الصراط المستقيم، مطبعة المدني، ص ٤٥٩ – ٤٦٤

ويقول في "موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول"[1]: «ولهذا كان من أتباع هؤلاء ــ يعني المتكلمين ــ من يسجد للشمس والقمر والكواكب ويدعوها كما يدعو الله تعالى ويصوم لها وينسك لها ويتقرب إليها ثم يقول إن هذا ليس بشرك وإنما الشرك إذا اعتقدت أنها هى المدبرة لي فإذا جعلتها سببًا أو واسطة لم أكن مشركًا ومن المعلوم من دين الإسلام بالاضطرار أن هذا شرك فهذا ونحوه من التوحيد الذي بعث الله به رسله وهم لا يدخلونه فى مسمى التوحيد الذي اصطلحوا عليه وأدخلوا فى ذلك نفي صفاته». أهـ.

ويقول ابن القيم رحمه الله[2]: «وهذا الإفراد نوعان: أحدهما: إفراد فى الاعتقاد والخبر وذلك نوعان أيضًا:

أحدهما: إثبات مباينة الربّ تعالى للمخلوقات وعلوه فوق عرشه من فوق سبع سموات.

الثاني: إفراده سبحانه وتعالى بصفات الكمال وإثباتها له، وفي هذا النوع يكون إفراده سبحانه بعموم قضائه وقدره لجميع المخلوقات.

النوع الثاني من الإفراد إفراد القديم عن المحدث فى العبادة».

ويقول فى موضع آخر: «وأما التوحيد الذي دعت إليه الرسل ونزلت به كتبه فوراء ذلك وهو نوعان: توحيد فى المعرفة والإثبات، وتوحيد في القصد والطلب.

والنوع الأول هو حقيقة ذات الربّ تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله وعلوه فوق سماواته على عرشه وتكلمه بكتبه وتكليمه لمن شاء من عباده وإثبات عموم قضائه وقدره وحكمه وقد أفصح القرآن من هذا النوع جد الإفصاح كما فى سورة الحديد وسورة طه وآخر سورة الحشر وأول سورة تنزيل السجدة وأول آل عمران وسورة الإخلاص بكمالها وغير ذلك.

---

(١) على هامش منهاج السنة، ج١، ص ١٣٥.
(٢) مدارج السالكين، ج٣، ص ٤٤٩-٤٥٥.

النوع الثاني: مثل ما تضمنته سورة "قل يا أيها الكافرون" وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ...﴾ [1] الآية. وأول تنزيل الكتاب، وآخرها، وأول يونس، ووسطها، وآخرها، وأول الأعراف، وآخرها، وجملة الأنعام». أهـ.

ومر ما قلناه من أن الشرك نوعان، نوع فى الاعتقاد ونوع فى العبادة عن أبي بطين رحمه الله.

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية فى التلازم بين الإيمان والإسلام نقلاً عن المروزي[2]: «فمثل الإسلام من الإيمان كمثل الشهادتين إحداهما من الأخرى فى المعنى والحكم فشهادة الرسول غير شهادة الوحدانية فهما شيئان فى الأعيان وإحداهما مرتبطة بالأخرى فى المعني والحكم كشيء واحد كذلك الإيمان والإسلام أحدهما مرتبط بالآخر كشيء واحد لا إيمان لمن لا إسلام له ولا إسلام لمن لا إيمان له إذ لا يخلو المسلم من إيمان به يصح إسلامه ولا يخلو المؤمن من إسلام به يحقق إيمانه من حيث اشترط الله للأعمال الصالحة الإيمان واشترط للإيمان الأعمال الصالحة فمن كان ظاهره أعمال الإسلام ولا يرجع إلى عقود الإيمان بالغيب فهو منافق نفاقًا ينقل عن الملة ومن كان عقده الإيمان بالغيب ولا يعمل بشرائع الإسلام وأحكام الإيمان فهو كافر كفرًا لا يثبت معه توحيد ومن كان مؤمنًا بالغيب وبما أخبرت به الرسل عن الله عاملاً بما أمر الله به فهو مؤمن مسلم وقد أجمع أهل القبلة على أن كل مؤمن مسلم وكل مسلم مؤمن بالله وملائكته وكتبه قال: ومثل الإيمان فى الأعمال كمثل القلب فى الجسم لا ينفك أحدهما عن الآخر ولا يكون ذو جسم حي بغير قلب ولا ذو قلب بغير جسم فهما شيئان منفردان وهما فى الحكم والمعني متصلان فكذلك أعمال الإسلام من

---

(١) آل عمران، آية، آية:٦٤.
(٢) كتاب الإيمان لابن تيمية، ص ٢٥٥ وما بعدها.

الإسلام هو ظاهر الإيمان وهو من أعمال الجوارح والإيمان باطن الإسلام وهو من أعمال القلوب فالإسلام أعمال الإيمان والإيمان عقود الإسلام فلا إيمان إلا بعمل ولا عمل إلا بعقد مثل قول الرسول ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات... » الحديث. فأثبت بذلك عمل الجوارح من المعاملات وعمل القلوب من النيات فمثل العمل من الإيمان كمثل الشفتين من اللسان لأن الشفتين تجمع الحروف واللسان يظهر الكلام وفي سقوط أحدهما بطلان الكلام وكذلك فى سقوط العمل ذهاب الإيمان لذلك حين عدَّد الله نعمه على الإنسان بالكلام ذكر الشفتين مع اللسان ﴿وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾[1] فعبر عن الكلام باللسان والشفتين لأن الكلام الذي حدث به النعمة لا يتم إلا بهما وأيضًا فإن الله قد جعل ضد الإسلام والإيمان واحدًا فلولا أنهما كشيء واحد فى الحكم والمعني ما كان ضدهما واحدًا فقال: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾[2]، وقال ﴿أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[3]. فجعل ضدهما الكفر وعلي مثل هذا أخبر الرسول ﷺ عن الإيمان والإسلام من صنف واحد فقال ﷺ فى حديث ابن عمر: «بني الإسلام على خمس»، وقال فى حديث ابن عباس رضى الله عنهما عن وفد عبد القيس أنهم سألوه عن الإيمان فذكر هذه الأوصاف فدل بذلك على أنه لا إيمان باطن إلا بإسلام ظاهر ولا إسلام ظاهر علانية إلا بإيمان سر وأن الإيمان والعمل قرينان لا ينفع أحدهما بدون الآخر. قال ويجتمعان فى عبد واحد مؤمن مسلم فيكون ما ذكره من عقود القلب وصف قلبه وما ذكره من العلانية وصف جسمه.

قال أيضًا: فإن الأمة مجتمعة على أن العبد لو آمن بجميع ما ذكره من عقود القلب فى حديث جبريل من وصف الإيمان ولم يعمل بما ذكره

---

(١) البلد، آية: ٩
(٢) آل عمران، آية: ٨٦
(٣) آل عمران، آية: ٨٠

فى وصف الإسلام أنه لا يسمي مؤمنًا وأنه إن عمل بجميع ما وصف بـــه الإسلام ثم لم يعتقد ما وصفه من الإيمان أنه لا يسمى مسلمًا وقــد أخبــر النبيّ ﷺ أن الأمة لا تجتمع على ضلالة». أهـــ.

وفي" إرشاد الساري إلى صحيح البخاري" يقول القسطلاني [١]: «ثــم استدل المؤلف "يعني البخاري" على مذهبه بقوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَــغِ غَيْــرَ الإِسْلاَمِ﴾ أي غير التوحيد والانقياد لحكم الله تعالى﴿دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ جواب الشرط. ووجه الدلالة على ترادفهما أن الإيمان لو كان غير الإسلام لما كان مقبولا، فتعين أن يكون عينه لأن الإيمان هو الدين، والدين هو الإسلام لقوله تعالى﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ﴾ فينتج أن الإيمان هو الإسلام». أهـــ.

وكذلك ما ذكره ابن تيمية عن الخطابي فى " شرح البخاري" يقــول شيخ الإسلام: «وقد ذكر الخطابي فى شــرح البخــاري كلامًــا يقتــضي تلازمهما مع اقتران اسميهما. وذكره البغوي فى "شرح السنة" فقــال قــد جعل النبيُّ ﷺ الإسلام اسمًا لما ظهر من الأعمال، وجعل الإيمان اسمًا لما بطن من الاعتقاد، وليس ذلك لأن الأعمال ليس من الإيمان أو التــصديق بالقلب ليس من الإسلام، بل ذلك تفصيل لجملة هى كلهــا شــيء واحــد وجماعها الدين ولذلك قال النبيُّ ﷺ: «هذا جبريل جاءكم يعلمكم ديــنكم». والتصديق والعمل يتناولهما اسم الإسلام والإيمان جميعًا يدل عليــه قولــه تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ﴾[٢]، وقوله ﷻ ﴿وَرَضِيتُ لَكُمْ الإِسْــلاَمَ دِينًا﴾[٣] وقوله ﷻ: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِســْلاَمِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾[٤]. فتبين أن الدين الذي رضيه الله سبحانه ويقبله من عباده هو الإسلام ولا يكــون الدين فى محل القبول إلا بانضمام التصديق إلى العمل.

---

(١) إرشاد الساري إلى صحيح البخاري، ص ١٤٨.
(٢) آل عمران، آية: ١٩.
(٣) المائدة، آية: ٣.
(٤) آل عمران، آية: ٨٥.

وهنا يتضح استدلال البخاري ﷺ وأرضاه على أن الإيمان والإسلام شيء واحد فى المعنى والحكم لقوله تعالى ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ﴾[١] وقوله سبحانه ﴿وَرَضِيتُ لَكُمْ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾[٢]، وقوله ﷻ ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى الآخِرَةِ مِنْ الْخَاسِرِينَ﴾[٣] ـ أي أنه إذا كان الإيمان غير الإسلام فلن يكون مقبولا عند الله ـ والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى الآخِرَةِ مِنْ الْخَاسِرِينَ﴾[٤]، ويقول عزَّ من قائل: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمْ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾[٥]،

ولم[٦] يقل ومن يبتغ غير الإسلام علمًا ومعرفة وتصديقًا وإيمانًا ولا قال ورضيت لكم الإيمان تصديقًا وعلمًا فإن الإسلام من جنس الدين والعمل والطاعة والانقياد والخضوع فمن ابتغى غير الإسلام أي غير ذلك دينًا فلن يقبل منه، والإيمان وإن كان أصله علم وتصديق ومعرفة فإن الدين لازم له ثم داخل فيه ليكون مقبولا عند الله وهذا هو العمل ولذلك ترجم البخاري لذلك بأن الإيمان هو العمل وأن الإيمان والإسلام شيء واحد عند الإطلاق، فقال: "باب من يري أن الإيمان هو العمل"، وقال: "باب سؤال جبريل النبيّ ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة وبيان النبيّ ﷺ له"، ثم قال: «جاء جبريل ﷺ يعلمكم دينكم». فجعل ذلك كله دينًا وما بين النبيّ ﷺ لوفد عبد القيس من الإيمان وقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ . انتهى أبواب البخاري.

ويقول القسطلاني في "شرح البخاري" عن الإيمان المقابل للكفر وكيف أنه ملاك الأمر كله لأن الباقي مبني عليه مشروط به وهو أول

---

(١) آل عمران، آية: ١٩.
(٢) المائدة، آية: ٣.
(٣) آل عمران، آية: ٨٥ .
(٤) آل عمران، آية: ٨٥.
(٥) المائدة، آية: ٣.
(٦) مستفاد من كتاب الإيمان لشيخ الإسلام ابن تيمية.

واجب على المكلف يقول: «وهو لغة التصديق وهو كما قــال التفتــازاني إذعان لحكم المخبر وقبوله وجعله صادقًا فليس حقيقة التصديق أن يقع فى القلب نسبة التصديق إلى الخبر أو المخبر من غير إذعان أو قبول بل هو إذعان وقبول لذلك بحيث يقع عليه اسم التسليم على ما صرح بــه الإمــام الغزالي والإسلام لغة الانقياد والخضوع ولا يتحقق ذلك إلا بقبول الأحكام والإذعان وذلك حقيقة التصديق كما سبق قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَــانَ فِيهَا مِنْ الْمُؤْمِنِينَ ۞ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ﴾ (١). فالإيمان لا ينفك عن الإسلام حكمًا فهما متحدان فى التصديق وإن تغايرا بحــسب المفهوم إذ مفهوم الإيمان تصديق القلب ومفهوم الإسلام أعمال الجــوارح وبالجملة لا يصح فى الشرع أن يحكم على أحد بأنه مؤمن وليس بمــسلم، أو مسلم وليس بمؤمن ولا نعني بوحدتهما سوى هذا ومن أثبــت التغــاير يقال له ما حكم مَنْ آمن ولم يسلم أو أسلم ولم يؤمن ومن أثبت لأحــدهما حكمًا ليس بثابت للآخر فقد ظهر بطلان قوله». أهــ.

وهذا في الإيمان والإسلام المقابل للكفر فيجب أن تكون حقيقة الإيمان المقابلة للكفر وحقيقة الإسلام المقابلة للكفر واحدة وذلك عند التجريد والإطلاق أما عند التقييد والاقتران فهما متلازمان قرينان لا يقبل أحدهما بدون الآخر وباجتماعهما يدخل الإنسان الملة ويكون مسلمًا وبغير ذلك لا يكون مسلمًا، إذا اجتمعا افترقا فصار لكل معناه ودخول الملة بمجموعهما وإذا افترقا اجتمعا أي دخل كل منهما تحت لفظ الآخر عند الافتراق فصارت حقيقتهما واحدة، أما ما زاد على صلب التوحيد من عمل فالإيمان غير الإسلام.

﴿قَالَتْ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُــوا أَسْــلَمْنَا﴾ وتتنــوع دلالات كل لفظ منهما فى غير الدلالة على أصل الدين بتنوع الاستعمالات وذلك حديث آخر.

---

(١)الذاريات، الآيتان: ٣٥-٣٦.

والسلف يستثني فى الإيمان الواجب ويقطع فى الإيمان المجمل كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية فى كتابه "الإيمان" وإجماع العلماء فى تفسير قوله ﷺ: «مَنْ فى قلبه مثقال ذرة» قالوا جميعًا زيادة على أصل التوحيد لأن أصل التوحيد لا يتبعض وفي حديث الرجل الذي ذرى نفسه فى المسند «لم يعمل خيرًا قط زيادة على التوحيد».

فالإيمان الذي يرجع إلى ما زاد على التوحيد من عمل يذهب بعضه ويبقي بعضه ويزيد وينقص حتى يتبقى منه ذرة أو يذهب كله، أما الإيمان الراجع إلى أصل التوحيد: توحيد الألوهية المتضمن والمستلزم لتوحيد الربوبية فهذا التعدد فيه مع التلازم كما رأينا وإذا ذهب بعضه وبقى بعضه كان ذلك هو الشرك أن يكون بعض الدين لله وبعضه لغير الله والتوحيد أن يكون الدين كله لله، إذا قلنا أن الإيمان الراجع إلى أصل التوحيد يزيد وينقص ويذهب ويبقى بعضه وقد يذهب كله. فمعنى ذلك أن يجتمع التوحيد مع الشرك وأفسد ذلك التلازم وإذا انتفى التلازم انتفى التعدد وصرنا إلى قول المرجئة المعلوم بطلانه من الدين بالضرورة وهو ما رده الإمام أحمد وجملة علماء السلف.

- **الإسلام يُعَرَّف بحقيقته ويُعَرَّف بمتعلقاته:**

الإسلام يُعَرَّف بحقيقته فى قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾(١)، وفي قوله ﷻ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِين﴾(٢)، وفي قوله ﷻ: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَابَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾(٣)، وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ

---

(١) آل عمران، آية: ١٩.
(٢) آل عمران، آية: ٨٥ .
(٣) البقرة، آية: ١٣٢.

تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾(١)، وفي قول رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنَّة إلا نفس مسلمة».

ويُعَرَّف بمتعلقاته فى قول رسول الله ﷺ: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده».

ويُعَرَّف بحقيقته ومتعلقاته فى حديث جبريل وحديث ابن عمر وخالد بن معدان للإسلام صوًي ومنارات كمنارات الطريق... إلى آخر الحديث.

وتعريف الإسلام بحقيقته له حدان:

١- فالإسلام يُعَرَّف بما يتسع به الاسم لمسماه وحقيقة الإسلام هى: توحيد الألوهية المستلزم والمتضمن لتوحيد الربوبية وهذا التوحيد يتفاضل فيه الناس تفاضلاً عظيمًا.

٢- والإسلام يُعَرَّف بأقل ما ينطبق به الاسم على مسماه وهو الحد الفاصل بين الإيمان والكفر وهو ترك الشرك الأعظم بنوعيه شرك الاعتقاد وشرك العبادة ولا ينتفي الشرك إلا بالتوحيد، فلابد لأقل قدر من العلم يكفي لنفي الجهالة وأقل قدر من اليقين يكفي لنفي الشك وأقل قدر من الصدق يكفي لنفي النفاق وأقل قدر من الإخلاص يكفي لنفي الشرك وأقل قدر من القبول يكفي لنفي الرد وأقل قدر من الانقياد يكفي لنفي الترك وأقل قدر من المحبة يكفي لنفي ما يضادها من المحادة والمعاداة فالنفي يستلزم الإثبات.

وهذا يتضمن:

أ- **فى جانب الإثبات:**

- المعرفة التي ينبني عليها الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره إقرارًا واعتقادًا.

---

(١) آل عمران، آية: ١٠٢.

- التزام شريعة الإسلام وهذا من ترك الشرك أيضًا لأن الالتزام ترك الامتناع من التزام حكم الله بالإيجاب أو التحريم ونفي النفي إثبات.

- التزام ولاية الإسلام فالمنافق لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء وهذا من النواقض المكفرة للتوحيد فى الولاء وهو «التارك لدينه المفارق للجماعة» وترك هذا يوجب الانحياز إلى المؤمنين «المسلمون أمة واحدة تتكافأ دماؤهم يسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم» والمسلم من يحب الله ويحب فى الله والمشرك يحب الله ويحب مع الله والكافر من لا يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما.

ب- **وفي جانب النفي:**

ترك الشرك بنوعيه فى الاعتقاد والعبادة.

ويدخل في هذا القول والعمل، والعمل ينشأ من: ترك العمل عمل، والالتزام عمل، مواقف الثبات فى الفتنة التي يتطلبها الإسلام عمل، وإن لم يكن له كيفيات محددة ولا يُطلب فى حقيقة الإسلام عملٌ ثبوتيٌ له كيفيات محددة والصورة العملية للوقوع: الإقرار مع الخلو من النواقض المكفرة، والتعريف بالنفي: ﴿ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ شيئًا﴾:

١- ليكون الإثبات أقل ما يتحقق به النفي.

٢- لتأكيد الإثبات والنفي إتيانًا وتركًا وذلك مثل قوله تعالى: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ وبالوالدين إحسانًا أمر ذكر فى سياق التحريم والنهي وذلك ليكون المعني اجتناب ترك الإحسان إلى الوالدين وهذا تأكيد لفعل الإحسان لأن الرسول ﷺ يقول: «إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فانتهوا عنه».

٣- لأن الاجتناب يتماثل والإتيان يتفاضل.

والله سبحانه وتعالى أعلم وهو وليّ التوفيق.

الباب الثالث

حقيقـــة الإيمـــان

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية[1] في بيان حدود الأسماء: «ومما ينبغي أن يعلم أن الألفاظ الموجودة في القران والحديث إذا عرف تفسيرها وما أريد بها من جهة النبيّ ﷺ لم يحتج في ذلك إلى الاستدلال بأقوال أهل اللغة ولا غيرهم ولهذا قال الفقهاء: الأسماء ثلاثة أنواع:

ــ نوع يعرف حده بالشرع كالصلاة والزكاة.

ــ ونوع يعرف حده باللغة كالشمس والقمر.

ــ ونوع يعرف حده بالعرف كلفظ القبض ولفظ المعروف في قوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالمَعْرُوفِ﴾[2] ونحو ذلك.

ورُوى عن ابن عباس أنه قال: تفسير القرآن على أربعة أوجه: تفسير تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله، من ادعى علمه فهو كاذب.

فاسم الصلاة والصيام والحج ونحو ذلك قد بين الرسول ﷺ ما يراد بها في كلام الله ورسوله وكذلك لفظ الخمر وغيرها ومن هناك يعرف معناها فلو أراد أحد أن يفسرها بغير ما بينه النبيّ ﷺ لم يقبل منه، وأما الكلام في اشتقاقها ووجه دلالتها فذلك من جنس علم البيان وتعليل الأحكام هو زيادة في العلم وبيان حكمة ألفاظ القرآن الكريم لكن معرفة المراد بها لا يتوقف على هذا، واسم الإيمان والإسلام والنفاق والكفر هى أعظم من هذا كله فالنبيّ ﷺ قد بيَّن المراد بهذه الألفاظ بياناً لا يحتاج معه إلى الاستدلال على ذلك بالاشتقاق وشواهد استعمال العرب ونحوه فلهذا يجب الرجوع في مسميات هذه الأسماء إلى بيان الله ورسوله ﷺ فإنه شاف كاف بل معاني هذه الأسماء معلومة من حيث الجملة للعامة والخاصة بل كل

(١) مجموع الفتاوى، ج٧، ص ٢٨٦ وما بعدها

(٢) النساء، آية: ١٩

من تأمل ما تقوله الخوارج والمرجئة في معنى الإيمان علم بالاضـــطرار أن طاعة الله ورسوله ﷺ من تمام الإيمان وأنه لم يكن يجعل كل من أذنب ذنبًا كافرًا ويعلم أنه لو قدر أن قومًا قالوا للنبيّ ﷺ نحن نؤمن بما جئتنا به بقلوبنا من غير شك ونقر بألسنتنا بالشهادتين إلا أنّا لا نطيعك فـــي شـــيء مما أمرت به ونهيت عنه فلا نصلي ولا نـــصوم ولا نحـــج ولا نـــصدق الحديث ولا نؤدي الأمانة ولا نفي بالعهد ولا نصل الرحم ولا نفعل شـــيئًا من الخير الذي أمرت به ونشرب الخمر ونـــنكح ذوات المحـــارم بالزنـــا الظاهر ونقتل من قدرنا عليه من أصحابك وأمتك ونأخذ أموالهم بل نقتلك أيضًا ونقاتلك مع أعدائك هل كان يتوهم عاقل أن النبيّ ﷺ يقول لهم أنـــتم مؤمنون كاملو الإيمان وأنتم أهل شفاعتي يوم القيامة ويرجـــى لكـــم أن لا يدخل أحد منكم النار بل كل مسلم يعلم بالاضطرار أنه يقول لهم أنتم أكفر الناس بما جئت به ويضرب رقابهم إن لم يتوبوا عن ذلك وكذلك يعلم كـــل مسلم أن شارب الخمر والزاني والقاذف لم يكن النبيّ ﷺ يجعلهم مرتـــدين يجب قتلهم بل القرآن والنقل المتواتر عنه ﷺ يبين أن هؤلاء لهم عقوبـــات غير عقوبة المرتد عن الإسلام كما ذكر الله تبارك وتعالى في القرآن جلد القاذف والزاني وقطع السارق وهذا متواتر عنه ﷺ ولو كـــانوا مرتـــدين لقتلهم فكلا القولين يعلم فساده بالاضطرار من دين الإسلام.

وأهل البدع إنما دخل عليهم الداخل لأنهم أعرضوا عن هذا الطريـــق وصاروا يبنون دين الإسلام على مقدمات يظنون صحتها إما فـــي دلالـــة الألفاظ وإما في المعاني المعقولة ولا يتأملون بيان الله ورسوله ﷺ وكـــل مقدمات تخالف بيان الله ورسوله فإنها تكون ضلالاً ولهـــذا تكلـــم أحمـــد ــ رحمه الله ــ في رسالته المعروفة في الرد على من يتمسك بما يظهـــر له من القرآن من غير استدلال ببيان الرسول والصحابة والتابعين وكـــذلك ذكر في رسالة إلى أبي عبد الرحمن الجرجاني في الرد علـــى المرجئـــة،

وهذه طريقة سائر أئمة المسلمين لا يعدلون عن بيان الرسول إذا وجدوا إلى ذلك سبيلاً ومن عدل عن سبيلهم وقع في البدع التي مضمونها أنه يقول على الله ورسوله ما لا يعلم أو غير الحق وهذا مما حرمه الله ورسوله وقال تعالى في الشيطان: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لاَ يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ﴾[2] وهذا من تفسير القرآن بالرأي الذي جاء فيه الحديث «من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار».

مثال ذلك أن المرجئة لما عدلوا عن معرفة كلام الله ورسوله أخذوا يتكلمون في مسمى الإيمان والإسلام وغيرهما بطرق ابتدعوها مثل أن يقولوا الإيمان في اللغة هو التصديق والرسول إنما خاطب الناس بلغة العرب لم يغيرها فيكون مراده بالإيمان التصديق ثم قالوا: والتصديق إنما يكون بالقلب واللسان أو بالقلب فالأعمال ليست من الإيمان ثم عمدتهم في أن الإيمان هو التصديق قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا﴾[3]. أي بمصدق لنا فيقال لهم اسم الإيمان قد تكرر ذكره في القرآن والحديث أكثر من ذكر سائر الألفاظ وهو أصل الدين وبه يخرج الناس من الظلمات إلى النور، ويفرق بين السعداء والأشقياء ومن يوالي ومن يعادي والدين كله تابع لهذا وكل مسلم يحتاج إلى معرفة ذلك، أفيجوز أن يكون الرسول قد أهمل بيان هذا كله ووكله إلى هاتين المقدمتين ومعلوم أن الشاهد الذي استشهدوا به على أن الإيمان هو التصديق أنه من القرآن، ونقل معنى الإيمان متواتر عن النبيّ ﷺ أعظم من توافر لفظة الكلمة فإن الإيمان يحتاج إلى معرفته جميع الأمة فينقلونه بخلاف كلمة من سورة فأكثر المؤمنين لم يكونوا يحفظون هذه

---

(١) البقرة، آية: ١٦٩.
(٢) الأعراف، آية: ١٦٩.
(٣) يوسف، آية: ١٧.

السورة فلا يجوز أن يجعل بيان أصل الدين مبنيًا على مثل هذه المقدمات ولهذا كثر النزاع والاضطراب بين الذين عدلوا عن صراط الله المستقيم وسلكوا السبل وصاروا من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات فهذا كلام عام مطلق ثم يقال: هاتان المقدمتان كلاهما ممنوعة فمن الذي قال أن لفظ الإيمان مرادف للفظ التصديق وهب أن المعني يصح إذا استعمل في هذا الموضع فلم قلت أنه يوجب الترادف ولو قلت ما أنت بمسلم لنا ما أنت بمؤمن لنا صح المعني لكن لِمَ قلت أن هذا هو المراد بلفظ مؤمن وإذا قال الله: ﴿ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ ولو قال القائل: أتموا الصلاة، ولازموا الصلاة، التزموا الصلاة، افعلوا الصلاة،كان المعني صحيحًا لكن لا يدل هذا على معنى أقيموا فكون اللفظ يرادف اللفظ يراد دلالته على ذلك ثم يقال ليس هو مرادفًا له وذلك من وجوه:

أحدهما: أنه يقال للمخبر إذا صدقته صدقه ولا يقال آمنه وآمن به بل يقال آمن له كما قال تعالى: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ﴾[٢]، وقال فرعون: ﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾[٣]، وقالوا لنوح: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[٥]، وقالوا: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾[٦]، وقال: ﴿وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِي﴾[٧]. فإن قيل: فقد يقال ما أنت بمصدق لنا، قيل: اللام تدخل على ما يتعدى بنفسه إذا

(١) العنكبوت، آية:٢٦.
(٢) يونس، آية: ٨٣.
(٣) الشعراء، آية: ٤٩.
(٤) الشعراء، آية: ١١١.
(٥) التوبة، آية: ٦١.
(٦) المؤمنون، آية: ٤٧.
(٧) الدخان، آية: ٢١.

ضعف عمله، إما بتأخيره أو بكونه اسم فاعل أو مـصدرًا أو باجتماعهما فيقال فلانٌ يعبد الله ويخافه ويتقيه ثم إذا ذكر اسم الفاعل قيل: عابـدٌ لربـه متقٍ لربه خائف لربه وكذلك تقول فلانٌ يرهب الله ثم تقول: هـو راهـب لربه. وإذا ذكرت الفعل وأخرته تقويه باللام كقوله ﴿ وَفِي نُـسْخَتِهَا هُـدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ وقد قال: ﴿وَإِيَّايَ فَـارْهَبُونِ﴾(١) فعـداه بنفسه وهناك ذكر اللام فإن هنا قوله: ﴿فإياي﴾ أتم من قوله "فلـي" وقولـه هنالك: ﴿ لِرَبِّهِمْ﴾ أتم من قوله "ربهم" فإن الضمير المنفصل المنصوب أكمل من ضمير الجر بالباء، وهناك اسم ظاهر فتقويته باللام أولـي وأتـم مـن تجريده ومن هذا قوله: ﴿إِنْ كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾(٢) ويقال: عبـرت رؤيـاه وكذلك قوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ﴾(٣) وإنما يقال غظته لا يقال غظـت لـه ومثله كثير فيقول القائل ما أنت بمصدق لنا أدخل فيه اللام لكونه اسم فاعل وإلا فإنما يقال صدقته لا يقال صدقت له، ولو ذكـروا الفعـل لقـالوا مـا صدقتنا. وهذا بخلاف لفظ الإيمان فإنه تعدي إلى الضمير باللام دائمًا وإنمـا لا يقال آمنته قط وإنما يقال: آمنت له كما يقال: أقررت فكان تفسيره بلفـظ الإقرار أقرب من تفسيره بلفظ التصديق مع أن بينهما فرقًا.

الثاني: إنه ليس مرادفًا للفظ التصديق في المعنى فإن كل مخبر عـن مشاهدة أو غيب يقال له في اللغة صدقت كما يقال كذبت فمن قال الـسماء فوقنا قيل له صدق كما يقال كذب، وأما لفظ الإيمان فلا يـستعمل إلا فـي الخبر عن غائب لم يوجد في الكلام أن من أخبر عن مشاهده كقوله طلعت الشمس وغربت أنه يقال: آمنا له كما يقال صـدقناه، ولهـذا المحـدثون والشهود ونحوهم يقال: صدقناهم وما يقال آمنا لهم فإن الإيمان مشتق من

---

(١) البقرة، آية: ٤٠.
(٢) يوسف، آية: ٤٣.
(٣) الشعراء، آية: ٥٥.

الأمن فإنما يستعمل في خبر يؤتمن عليه المخبر كـالأمر الغائـب الـذي يؤتمن عليه المخبر، ولهذا لم يوجد قط في القرآن وغيره لفظ آمن لـه إلا في هذا النوع والاثنان إذا اشتركا في معرفة الشيء يقال صـدق أحـدهما صاحـبه ولا يقال آمن له لأنه لم يكن غائبًا عنه ائتمنـه عليه ولهذا قال: ﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ﴾، ﴿ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾، ﴿آمَنْتُم لـه﴾، ﴿يـؤمنُ بـالله ويؤمنُ للمؤمنين﴾ فيصدقهم فيما أخبروا به مما غاب عنه وهـو مـأمون عنده على ذلك فاللفظ متضمن مع التصديق معنى الائتمان والأمانـة كمـا يدل عليه الاستعمال والاشتقاق.

ولهذا قالوا: ﴿مَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا﴾ أي لا تقر بخبرنا ولا تثق بـه ولا تطمئن إليه ولو كنا صادقين، لأنهم لم يكونوا عنده ممن يؤتمن على ذلـك فلو صدقوا لم يأمن لهم.

الثالث: لفظ الإيمان في اللغة لم يقابل بالتكذيب كلفظ التصديق فإنـه من المعلوم في اللغة أن كل مخبر يقال له صدقت أو كذبت ويقال صدقناه أو كذبناه ولا يقال لكل مخبر آمنا له أو كذبناه ولا يقال أنت مؤمن لـه أو مكذب له بل المعروف في مقابلة الإيمان لفظ الكفر يقال هـو مـؤمن أو كافر، والكفر لايختص بالتكذيب بل لو قال: أنا أعلم أنك صـادق لكـن لا أتبعك بل أعاديك وأبغضك وأخالفك ولا أوافقك لكان كفره أعظم. فلما كان الكفر المقابل للإيمان ليس هو التكذيب فقط علم أن الإيمـان لـيس هـو التصديق فقط بل إذا كان الكفر يكون تكذيبًا، ويكـون مخالفـة ومعـاداة وامتناعًا بلا تكذيب فلابد أن يكون الإيمان تصديقًا مع موافقـة ومـوالاة وانقياد لا يكفي مجرد التصديق فيكون الإسلام جزء مسمى الإيمـان كمـا كان الامتناع ضد الانقياد مع التصديق جزء مسمى الكفر فيجب أن يكـون كل مؤمن مسلمًا منقادًا للأمر وهذا هو العمل». أهـ.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية[1]: «الوجه الحادي والعشرون: الكفر أعم من التكذيب: أنه تعالى قال: ﴿فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[2] فنفى عنهم التكذيب وأثبت الجحود، ومعلوم أن التكذيب باللسان لم يكن منتفيًا عنهم، فعلم أنه نفى عنهم تكذيب القلب ولو كان المكذب الجاحد مع علمه يقوم بقلبه خبر نفساني لكانوا مكذبين بقلوبهم، فلما نفى عنهم تكذيب القلوب علم أن الجحود الذي هو ضرب من الكذب والتكذيب بالحق المعلوم ليس هو كذبًا في النفس ولا تكذيب فيها وذلك يوجب أن العالم بالشيء لا يكذب به ولا يجد في نفسه خلاف علمه، فإن قيل العالم بالشيء العارف به قد يؤمن بذلك وقد يكفر به كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[3]. وذلك مثل المعاندين من المشركين وأهل الكتاب، وليس كفرهم لمجرد لفظهم فإنهم أيضًا قد يقولون بألسنتهم ما يعلمونه ولا يكونون مؤمنين مثل ما كان يقول أبو طالب من الإخبار بأن محمدًا رسول الله، ومثل إخبار كثير من اليهود والنصارى بعضهم لبعض برسالته ومع هذا فليسوا مؤمنين ولا مصدقين ومنهم اليهود الذين حاوروه وقالوا نشهد أنك رسول الله قيل الجواب على ذلك هو:

الوجه الثاني والعشرون: وهو أن ما أخبرت به الرسل من الحق ليس إيمان القلب مجرد العلم بذلك فإنه لو علم بقلبه أن ذلك حق وكان مبغضًا له وللرسول الذي جاء به ولمن أرسله، معاديًا لذلك مستكبرًا عليهم ممتنعًا عن الانقياد لذلك الحق لم يكن هذا مؤمناً مثابًا في الآخرة باتفاق المسلمين مع تنازعهم الكثير في مسمى الإيمان ولهذا لم يختلفوا في كفر إبليس مع أنه كان عالمًا عارفًا بل لابد في الإيمان من علم في القلب وعمل في القلب أيضًا

---

(١) الفتاوي الكبرى، ج٥، ص ١٩٨ وما بعدها.
(٢) الأنعام، آية: ٣٣.
(٣) النمل، آية: ١٤.

ولهذا كان عامة أئمة المرجئة الذين يجعلون الإيمان مجرد ما في القلب أو ما في القلب واللسان يدخلون في ذلك محبة القلب وخضوعه للحق ولا يجعلون ذلك مجرد علم القلب. ولفظ التصديق يتناول العلم الذي في القلب، ويتناول أيضًا ذلك العمل في القلب الذي هو موجب العلم ومقتضاه فإنه يقال صدَّق علمه بعمله وذلك لأن وجود العلم مستلزم لوجود هذا العمل الذي في القلب الذي هو إسلام القلب بمحبته وخشوعه فإذا عدم مقتضي العلم فإنه قد يزول العلم من القلب بالكلية ويطبع على القلب حتي يصير منكرًا لما عرفه جاهلاً بما كان يعلمه وهذا العلم وهذا العمل كلاهما يكون من معاني الألفاظ.

فلفظ الشهادة والإقرار والإيمان والتصديق ينتظم هذا كله. لكن لفظ الخبر والنبأ ونحو ذلك هو العلم وإن استلزم هذه الأعمال فهو كما يستلزم العلم لذلك فإذا قال أحد هؤلاء العالمين الجاحدين الذين ليسوا بمؤمنين: محمد رسول الله كقول أولئك اليهود وغيرهم فهذا خبر محض مطابق لعلمهم الذي قال الله فيه: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾(١). لكن كما لا ينفعهم مجرد العلم لا ينفعهم مجرد الخبر، بل لابد أن يقترن بالعلم في الباطن مقتضاه من العمل الذي هو المحبة والتعظيم والانقياد ونحو ذلك، كما أنه لابد أن يقترن بالخبر الظاهر مقتضاه من الاستسلام والانقياد لأهل الطاعة(٢).

فهؤلاء الذين يعلمون الحق الذي بعث الله به رسوله ولا يؤمنون به ولا يقرون به يوصفون بأنهم كفار وبأنهم جاحدون ويوصفون بأنهم مكذبون بألسنتهم وأنهم يقولون بألسنتهم خلاف ما في قلوبهم وقد أخبر الله في كتابه أنهم ليسوا بمكذبين بما علموه أي مكذبين بقلوبهم، وإن لم يكونوا

---

(١) البقرة، آية: ١٤٦.

(٢) الله والرسول وقبول الحكم الشرعي مطلقًا سواء كان راجعا إلى النص أو ما حمّل عليه بطرق الاجتهاد.

مؤمنين مقرين مصدقين إذ العبد لا يخلو في الشيء الواحد عن التصديق والتكذيب والكفر أعم من التكذيب، فكل من كذَّب الرسول كافر وليس كل كافر مكذبًا بل من يعلم صدقه ويقر به وهو مع ذلك يبغضه أو يعاديه كافر، أو من أعرض فلم يعتقد لا صدقه ولا كذبه كافر وليس بمكذب، وكذلك العالم بالشيء قد يخلو عن التكذيب وعن التصديق به الذي هو مستلزم لعمل القلب وإن لم يخل عن التصديق الذي هو مجرد علم القلب، فأما أن يقوم بالقلب تصديق قولي غير العلم فهذا هو الذي ادعاه هؤلاء الشذاذ عن الجماعة وهو مورد النزاع». أهـ.

ومفاد كلام الشيخ أن الجحد يكون بالقول والعمل الظاهر ولا يكون بقول القلب وقد يكون بعمل القلب.

حقيقة الإيمان: مقابلة الخبر بالتصديق والأمر بالانقياد:

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في المسألة الرابعة في الرد على من قال أن ساب الرسول لا يكفر إلا باعتقاد حل السب، يقول الشيخ(١): «ومنشأ هذه الشبهة التي أوجبت هذا الوهم من المتكلمين ومن حذا حذوهم من الفقهاء أنهم رأوا أن الإيمان هو تصديق الرسول فيما أخبر به، ورأوا أن اعتقاد صدقه لا ينافي السب والشتم بالذات كما أن اعتقاد إيجاب طاعته لا ينافي معصيته فإن الإنسان قد يهين من يعتقد وجوب إكرامه، كما يترك ما يعتقد وجوب فعله، ويفعل ما يعتقد وجوب تركه، ثم رأوا أن الأمة قد كفَّرت الساب فقالوا: إنما كفر لأن سبه دليل على أنه لم يعتقد أنه حرام واعتقاد حله تكذيب للرسول فكفر بهذا التكذيب لا بتلك الإهانة، وإنما الإهانة دليل على التكذيب فإذا فرض أنه في نفس الأمر ليس بمكذب كان في نفس الأمر مؤمنًا، وإن كان حكم الظاهر إنما يجري عليه بما أظهره

---

(١) الصارم المسلول، ص ٤٥٦ وما بعدها.

فهذا مأخذ المرجئة ومعضديهم وهم الذين يقولون الإيمان هـو الاعتقـاد والقول، وغلاتهم وهم الكرامية الذين يقولون مجرد القول وإن عري عـن الاعتقاد، وأما الجهمية الذين يقولون: هو مجرد المعرفة والتصديق بالقلب فقط، وإن لم يتكلم بلسانه، فلهم مأخذ آخر وهو أنه قد يقول بلسانه ما ليس في قلبه، فإذا كان في قلبه التعظيم والتوقير للرسول لم يقدح إظهار خلاف ذلك بلسانه في الباطن كما لا ينفع المنافق إظهار خلاف ما في قلبـه فـي الباطن وجواب الشبهة الأولى من وجوه:

أحدها: أن الإيمان وإن كان أصله تصديق القلب فذلك التصديق لابد أن يوجب حالاً في القلب وعملاً له وهو تعظيم الرسول وإجلاله ومحبتـه وذلك أمر لازم كالتألم والتنعم عند الإحساس بـالمؤلم والمـنعم وكـالنفرة والشهوة عند الشعور بالمنافي والملائم، فإذا لم تحصل هذه الحال والعمـل في القلب لم ينفع ذلك التصديق ولم يغن شيئًا وإنمـا يمتنـع حـصوله إذا عارضه معارض من حسد الرسول والتكبـر عليـه أو الإهمـال لـه أو إعراض القلب عنه ونحو ذلك كما أن إدراك الملائم والمنافي يوجب اللـذة والألم إلا أن يعارضه معارض، ومتي حصل المعارض كان وجود ذلـك التصديق كعدمه، كما يكون وجود ذلك كعدمه بل يكون ذلـك المعـارض موجبًا لعدم المعلول الذي هو حال في القلب وبتوسط عدمه يزول التصديق الذي هو العلة فينقلع الإيمان بالكلية من القلب، وهذا هو الموجب لكفر من حسد الأنبياء أو تكبر عليهم أو كره فراق الإلف والعادة مع علمـه بـأنهم صادقون وكفرهم أغلظ من كفر الجهال.

الثاني: إن الإيمان وإن كان يتضمن التصديق فلـيس هـو مجـرد التصديق وإنما هو الإقرار والطمأنينة وذلك لأن التصديق إنمـا يعـرض للخبر فقط، فأما الأمر فليس فيه تصديق من حيث هو أمر، وكلام الله خبر وأمر فالخبر يستوجب تصديق المخبر، والأمـر يـستوجب الانقيـاد لـه

والاستسلام وهو عمل في القلب جماعه الخضوع والانقياد للأمر وإن لم يفعل المأمور به، فإذا قوبل الخبر بالتصديق والأمر بالانقياد فقد حصل أصل الإيمان في القلب وهو الطمأنينة والإقرار فإن اشتقاقه من الأمن الذي هو القرار والطمأنينة وذلك إنما يحصل إذا استقر في القلب التصديق والانقياد وإذا كان كذلك فالسب إهانة واستخفاف والانقياد للأمر إكرام وإعزاز ومحال أن يهين القلب من قد انقاد له وخضع واستسلم أو يستخف به، فإذا حصل في القلب استخفاف واستهانة امتنع أن يكون فيه انقياد أو استسلام فلا يكون فيه إيمان وهذا هو بعينه كفر إبليس فإنه سمع أمر الله فلم يكذب رسولاً ولكن لم ينقد للأمر ولم يخضع له واستكبر عن الطاعة فصار كافرًا وهذا موضع زاغ فيه خلق من الخلف تخيل لهم أن الإيمان ليس في الأصل إلا التصديق ثم يرون مثل إبليس وفرعون ممن لم يصدر عنه تكذيب أو صدر عنه تكذيب باللسان لا بالقلب وكفره من أغلظ الكفر فيتحيرون ولو أنهم هُدوا لما هدي إليه السلف الصالح لعلموا أن الإيمان: قول وعمل أعني في الأصل قولاً في القلب وعملاً في القلب فإن الإيمان بحسب كلام الله ورسالته، وكلام الله ورسالته يتضمن أخباره وأوامره فيصدق القلب أخباره تصديقًا يوجب حالاً في القلب بحسب المصدق به والتصديق هو من نوع العلم والقول، وينقاد لأمره ويستسلم، وهذا الانقياد والاستسلام هو من نوع الإرادة والعمل ولا يكون مؤمنًا إلا بمجموع الأمرين فمن ترك الانقياد كان مستكبرًا فصار من الكافرين وإن كان مصدقًا فالكفر أعم من التكذيب يكون تكذيبًا وجهلاً ويكون استكبارًا وظلمًا ولهذا لم يوصف إبليس إلا بالكفر والاستكبار دون التكذيب ولهذا كان كفر من يعلم مثل اليهود ونحوهم من جنس كفر إبليس وكان كفر من يجهل مثل النصارى ونحوهم ضلالاً وهو الجهل ألا ترى أن نفرًا من اليهود جاءوا إلى النبيّ ﷺ وسألوه عن أشياء فأخبرهم فقالوا: نشهد أنك نبي، ولم

يتبعوه وكذلك هرقل وغيره فلم ينفعهم هذا العلم وهذا التصديق؟ ألا ترى أن من صدق الرسول بأن ما جاء به هو رسالة الله وقد تضمنت خبرًا وأمرًا احتاج إلى مقام ثان وهو تصديقه خبر الله وانقياده لأمر الله. فإذا قال "أشهد أن لا إله إلا الله" فهذه الشهادة تتضمن تصديق خبره والانقياد لأمره و"أشهد أن محمد رسول الله" تضمنت تصديق الرسول فيما جاء به من عند الله فبمجموع هاتين الشهادتين يتم الإقرار، فلما كان التصديق لابد منه في كلا الشهادتين ــ وهو الذي يتلقى الرسالة بالقبول ــ ظن من ظن أنه أصل لجميع الإيمان، وغفل عن أن الأصل الآخر لابد منه وهو الانقياد.

وإلا فقد يصدق الرسول ظاهرًا وباطنًا ثم يمتنع عن الانقياد للأمر إذ غايته في تصديق الرسول أن يكون بمنزلة من سمع الرسالة من الله سبحانه كإبليس وهذا مما يبين لك أن الاستهزاء بالله أو برسوله ينافي الانقياد له لأنه قد بلغ عن الله أنه أمر بطاعته فصار الانقياد له من تصديقه في خبره فمن لم ينقد لأمره فهو إما مكذبٌ له أو ممتنع عن الانقياد لربِّه وكلاهما كفرٌ صريحٌ ومن استخفَّ به واستهزأ بقلبه امتنع أن يكون منقادًا لأمره فإن الانقياد إجلال وإكرام والاستخفاف إهانة وإذلال وهذان ضدان فمتي حصل في القلب أحدهما انتفى الآخر فعلم أن الاستخفاف والاستهانة به ينافي الإيمان منافاة الضد للضد.

الوجه الثالث: إن العبد إذا فعل الذنب مع اعتقاد أن الله حرَّمه عليه واعتقاد انقياده لله فيما حرَّمه وأوجبه فهذا ليس بكافر، فأما إن اعتقد أن الله لم يحرمه أو أنه حرَّمه لكنه امتنع من قبول هذا التحريم وأبى أن يذعن لله وينقاد فهو: إما جاحد أو معاند. ولهذا قالوا من عصى الله مستكبرًا كإبليس كفر بالاتفاق، ومن عصى مشتهيًا لم يكفر عند أهل السنة والجماعة، وإنما يكفره الخوارج. فإن العاصي المستكبر وإن كان مصدقًا بأن الله ربُّه فإن معاندته له ومحادته تنافي هذا التصديق، وبيان هذا أن من فعل المحارم

مستحلاً لها فهو كافر بالاتفاق، فإنه ما آمن بالقرآن من استحل محارمــه، وكذلك لو استحلها من غير فعل. والاستحلال اعتقاد أن الله لــم يحرمهــا، وتارة بعدم اعتقاد أن الله حرَّمها، وهذا يكون لخلل في الإيمان بالربوبيــة ولخلل في الإيمان بالرسالة، ويكون جحدًا محضًا غير مبني على مقدمــة، وتارة يعلم أن الله حرَّمها ويعلم أن الرسول إنما حرَّم ما حرَّمه الله ثم يمتنع عن التزام هذا التحريم ويعاند المحرم فهذا أشد كفرًا ممن قبله، وقد يكــون هذا مع علمه أن من لم يلتزم هذا التحريم عاقبه الله عزَّ وجلَّ وعذَّبه، ثــم إن هذا الامتناع وهذا الإباء إما لخلل في اعتقاد حكمة الآمر وقدرته فيعود هذا لعدم التصديق بصفة من صفاته، وقد يكون مع العلم بجميع ما يصدق به تمردًا واتباعًا لغرض النفس وحقيقته كفر هذا، لأنه يعترف لله ولرسوله بكل ما أخبر به ويصدق بكل ما يصدق به المؤمنون ولكنــه يكــره ذلــك ويبغضه ويسخطه لعدم موافقته لمراده ومشتهاه، ويقول أنا لا أقر بذلك ولا ألتزمه، وأبغض هذا الحق وأنفر عنه، فهذا نوع غير النوع الأول، وتكفير هذا معلوم بالاضطرار من دين الإسلام، والقرآن مملوء من تكفير مثل هذا النوع، بل عقوبته أشد وفي مثله قيل: «أشدُّ النَّاسِ عذابًا يومَ القيامةِ عالمٌ لم ينفعه الله بعلمه» وهو إبليس ومن سلك سبيله. وبهذا يظهر الفــرق بــين العاصي فإنه يعتقد وجوب ذلك الفعل عليه ويحب أن يفعله، لكن الــشهوة والنفرة منعته من الموافقة فقد أتي من الإيمــان بالتــصديق والخــضوع والانقياد وذلك قول وعمل لكنه لم يكمل العمل. وأما إهانة الرجل من يعتقد وجوب كرامته كالوالدين ونحوهما فلأنه لم يهن مــن كــان الانقيــاد لــه والإكرام شرطًا في إيمانه، وإنما أهان من إكرامه شرط في بره وطاعتــه وتقواه، وجانب الله والرسول إنما كفر فيه لأنه لا يكون مؤمنًا حتي يصدق تصديقًا يقتضي الخضوع والانقياد فحيث لم يقتضيه لم يكن ذلك التــصديق إيمانًا بل كان وجوده شرٌّ من عدمه.

ثم يقول: وأما الشبهة الثانية فجوابها من ثلاثة أوجه: إحداها: أن من تكلم بالتكذيب والجحد وسائر أنواع الكفر من غير إكراه على ذلك فإنه يجوز أن يكون مع ذلك في نفس الأمر مؤمنًا ومن جوَّز هذا فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه. الثاني: أن الذي عليه الجماعة أن من لم يتكلم بالإيمان بلسانه من غير عذرٍ لم ينفعه ما في قلبه من المعرفة، وأن القول من القادر عليه شرط في صحة الإيمان حتي اختلفوا في تكفير من قال: "إن المعرفة تنفع من غير عمل الجوارح"، وما ذكره القاضي[1] رحمه الله من التأويل لكلام الإمام أحمد فقد ذكر هو وغيره خلاف ذلك في غير موضع وكذلك ما دلَّ عليه كلام القاضي عياض فإن مالكًا وسائر الفقهاء من التابعين ومن بعدهم ـ إلا من ينسب إلى بدعة ـ قالوا: الإيمان قولٌ وعملٌ. الثالث: أن من قال: إن الإيمان مجرد معرفة القلب من غير احتياج إلى النطق باللسان، يقول: لا يفتقر الإيمان في نفس الأمر إلى القول الذي يوافقه باللسان، لا يقول أن القول الذي ينافي الإيمان لا يبطله، فإن القول قولان قولٌ يوافق تلك المعرفة وقول يخالفها فهبْ أن القول الموافق لا يشترط لكن القول المخالف ينافيها فمن قال بلسانه كلمة الكفر من غير حاجة عامدًا لها عالمًا بأنها كلمة الكفر فإنه يكفر بذلك ظاهرًا وباطنًا، ولا يجوز أن يقال: أنه في الباطن يجوز أن يكون مؤمنًا ومن قال ذلك فقد مرق من الإسلام قال سبحانه: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنْ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[2] ومعلوم أنه لم يرد بالكفر هنا اعتقاد القلب فقط لأن ذلك لا يكره الرجل عليه وهو قد استثنى من أكره ولم يرد من قال واعتقد لأنه استثنى المكره وهو لا يكره على العقد والقول، وإنما يكره على القول فقط

---

(١) القاضي أبو يعلي، الصارم المسلول، ص ٤٦١

(٢) النحل، آية: ١٠٦.

فعلم أنه أراد من تكلم بكلمة الكفر فعليه غضبٌ من الله وله عذاب عظيم وأنه كافر بذلك إلا من أكره وهو مطمئنٌ بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدرًا من المكرهين فإنه كافر أيضًا فصار من تكلم بالكفر كافرًا إلا من أكره فقال بلسانه كلمة الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان، وقال تعالى في حق المستهزئين: ﴿لاَ تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾(١). فبيَّنَ أنهم كفار بالقول مع أنهم لم يعتقدوا صحته، وهذا باب واسع والفقه فيه ما تقدم من أن التصديق بالقلب يمنع إرادة التكلم وإرادة فعل فيه استهانة أو استخفاف كما أنه يوجب المحبة والتعظيم واقتضاؤه وجود هذا، وعدم هذا أمر جرت به سنة الله في مخلوقاته كاقتضاء إدراك الموافق للذة وإدراك المخالف للألم فإذا عدم المعلول كان مستلزمًا لعدم العلة وإذا وجد الضد كان مستلزمًا لعدم الضد الآخر فالكلام والفعل المتضمن للاستخفاف والاستهانة مستلزم لعدم التصديق النافع ولعدم الانقياد والاستسلام فلذلك كان كفرًا. واعلم أن الإيمان وإن قيل هو التصديق فالقلب يصدق بالحق والقول يصدق ما في القلب والعمل يصدق القول والتكذيب بالقول مستلزم للتكذيب بالقلب ورافع للتصديق الذي كان في القلب إذ أعمال الجوارح تؤثر في القلب كما أن أعمال القلب تؤثر في الجوارح فأيما قام به كفر تعدى حكمه إلى الآخر والكلام في هذا واسع وإنما نبهنا على هذه المقدمة». أهـ.

الإيمان يستلزم الإسلام ويتضمنه والإسلام جزء مسماه:

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية(٢): «وقد وصف الله السحرة بالإسلام والإيمان معًا فقالوا: ﴿آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾(٣)، وقالوا: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا﴾(٤)، وقالوا: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ

(١) التوبة، آية: ٦٦.
(٢) مجموع الفتاوى، ج٧، ص ٢٦٢ وما بعدها.
(٣) الشعراء، الآيتان: ٤٧-٤٨.
(٤) الأعراف، آية: ١٢٦.

أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾(١)، وقالوا: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾(٢)، ووصف الله أنبياء بني إسرائيل بالإسلام في قوله: ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾(٣)، والأنبياء كلهم مؤمنون ووصف الحواريين بالإيمان والإسلام فقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾(٤)، وقال الحواريون: ﴿نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾(٥).

وحقيقة الفرق أن الإسلام دينٌ والدين مصدر دان يدين دينًا إذا خضع وذل ودين الإسلام الذي ارتضاه الله وبعث به رسله هو الاستسلام لله وحده فأصله في القلب هو الخضوع لله وحده بعبادته وحده دون ما سواه، فمن عبده وعبد معه إلهًا آخر لم يكن مسلمًا ومن لم يعبده بل استكبر عن عبادته لم يكن مسلمًا والإسلام هو الاستسلام لله والخضوع له والعبودية له وهكذا قال أهل اللغة أسلم الرجل إذا استسلم فالإسلام في الأصل من باب العمل عمل القلب والجوارح وأما الإيمان فأصله تصديق وإقرار ومعرفة فهو من باب قول القلب المتضمن عمل القلب والأصل فيه هو التصديق والعمل تابع له».

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية(٦): «فإن الإيمان أصله معرفة القلب وتصديقه والعمل تابع لهذا العلم والتصديق ملازم له ولا يكون العبد مؤمنًا إلا بهما. أما الإسلام فهو عمل محض مع قول، والعلم والتصديق ليس جزء مسماه ولكن يلزمه جنس التصديق فلا يكون عمل إلا بعلم لكن لا يستلزم الإيمان المفصل الذي بينه الله ورسوله كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ

---

(١) الشعراء، اية: ٥١.
(٢) الأعراف، آية: ١٢٦.
(٣) المائدة، آية: ٤٤.
(٤) المائدة، اية: ١١١.
(٥) آل عمران، آية: ٥٢.
(٦) الإيمان، ص ٢٩١

آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمْ الصَّادِقُونَ﴾[1]، وقوله ﷻ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[2]. وسائر النصوص التي تنفي الإيمان عمن لم يتصف بما ذكره فإن كثيرًا من المسلمين مسلم باطنًا وظاهرًا ومعه تصديق مجمل ولم يتصف بهذا الإيمان وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنْ الْخَاسِرِينَ﴾[3]، وقال ﷻ: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمْ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾[4]. ولم يقل ومن يبتغ غير الإسلام علمًا ومعرفة وتصديقًا وإيمانًا ولا قال رضيت لكم الإيمان تصديقًا وعلمًا فإن الإسلام من جنس الدين والعمل والطاعة والانقياد والخضوع فمن ابتغى غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه والإيمان طمأنينة ويقين أصله علم وتصديق ومعرفة والدين تابع له». أهـ.

الإيمان والتوحيد:

يقول شيخ الإسلام [5]: «ولكنَّ أول الدين وآخره وظاهره وباطنه هو التوحيد وإخلاص الدين كله لله وتحقيق قوله" لا إله إلا الله " فإن المسلمين وإن اشتركوا في الإقرار بها فهم يتفاضلون في تحقيقها تفاضلاً لا تقدر أن تضبطه حتي إن كثيرًا منهم يظنون أن التوحيد المفروض هو الإقرار والتصديق بأن الله خالق كل شيء وربُّه لا يميزون بين الإقرار بتوحيد الربوبية الذي أقر به مشركو العرب وبين توحيد الألوهية الذي دعاهم إليه رسول الله ﷺ ولا يجمعون بين التوحيد القولي والعملي فإن المشركين ما كانوا يقولون إن العالم خلقه اثنان ولا أن مع الله ربًا يتفرد

---

(١) الحجرات، آية: ١٥.

(٢) الأنفال، الآية: ٢.

(٣) آل عمران، آية: ٨٥.

(٤) المائدة، آية: ٣.

(٥) الفتاوي الكبري، ج٢ ، ص٢٩١.

دونه بخلق كل شيء بل كانوا كما قال الله عنهم: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ (٢)، وقال تعالى: ﴿قُلْ لِمَنْ الأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ۞ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۞ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلاَ تَتَّقُون۞ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلاَ يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُون ۞ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّا تُسْحَرُونَ﴾(٣). وكانوا مع إقرارهم بأن الله هو الخالق وحده يجعلون معه آلهة أخري ويجعلونهم شفعاء لهم ويقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾(٤)، ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾(٥). والإشراك في الحب والدعاء والعبادة والسؤال غير الإشراك في الاعتقاد والإقرار، قال تعالى: ﴿وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾(٦). فمن أحب مخلوقًا كما يحب الخالق فهو مشرك به، قد اتخذ من دون الله أندادًا يحبهم كحب الله وإن كان مقرًا بأن الله خالقه.

ولهذا فرَّق الله ورسوله بين مَنْ أحب مخلوقًا لله وبين من أحب مخلوقًا مع الله فالأول يكون الله هو محبوبه ومعبوده الذي هو منتهي حبه وعبادته لا يحب معه غيره لكنه لما علم أن الله يحب أنبياءه وعباده الصالحين أحبهم لأجله وكذلك لما علم أن الله يحب فعل المأمور وترك المحظور أحب ذلك فكان حبه لما يحبه تابعًا لمحبة الله وفرعًا عليه وداخلاً فيه بخلاف من أحب مع الله فجعله ندًا لله يرجوه ويخافه أو يطيعه من غير

---

(١) لقمان، آية: ٢٥
(٢) يوسف، آية: ١٠٦.
(٣) المؤمنون، آيات: ٨٤-٨٩.
(٤) الزمر، آية: ٣.
(٥) البقرة، آية: ١٦٥.
(٦) البقرة، آية: ١٦٥.

أن يعلم أن طاعته طاعة لله ويتخذه شفيعًا له من غير أن يعلم أن الله يأذن له أن يشفع فيه، قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاَءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾(١)، وقال تعالى(٢): ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(٣). وقد قال عديٌّ بن حاتم للنبيّ ﷺ ما عبدوهم، قال: «أحلوا لهم الحرام فأطاعوهم وحرموا عليهم الحلال فأطاعوهم فكانت تلك عبادتهم إياهم». قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ (٤)، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ۞ يَاوَيْلَتِي لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَنًا خَلِيلاً ۞ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنْ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً﴾(٥). فالرسول وجبت طاعته لأنه مَنْ يطع الرسول فقد أطاع الله فالحلال ما أحله والحرام ما حرَّمه والدين ما شرعه. ومن سوى ذلك ــ من العلماء والمشايخ الأمراء والملوك ــ إنما تجب طاعتهم إذا كانت طاعتهم طاعة لله وهو إذا أمر الله ورسوله بطاعتهم فطاعتهم داخلة في طاعة الرسول قال تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾(٦). فلم يقل وأطيعوا الرسول وأطيعوا أولي الأمر منكم بل جعل طاعة أولي الأمر داخلة في طاعة الرسول وطاعة الرسول طاعة لله وأعاد الفعل في طاعة الرسول دون طاعة أولى

---

(١) يونس، آية: ١٨.

(٢) أدخل شيخ الإسلام شرك النصارى أحبارهم ورهبانهم في شرك العبادة والمحبة والسؤال وأخرجها من شرك الاعتقاد وفي هذا رد على مَنْ يؤول كلامه على غير هذا.

(٣) التوبة، آية: ٣١.

(٤) الشوري، آية: ٢١.

(٥) الفرقان، آيات: ٢٧-٢٩.

(٦) النساء، آية: ٥٩.

الأمر فإنه من يطع الرسول فقد أطاع الله فليس لأحد إذا أمره الرسول بأمر أن ينظر فيه هل أمر به الله أم لا بخلاف أولي الأمر فإنهم قد يأمرون بمعصية فليس كل من أطاعهم مطيعًا لله، بل لابد فيما يأمرون به أن يعلم أنه ليس معصية لله وينظر هل أمر الله به أم لا سواء كان أولي الأمر من العلماء أو الأمراء.

ويدخل في هذا تقليد العلماء وطاعة أمراء السرايا وغير ذلك وبهذا يكون الدين كله لله، قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾[1]، وقال النبيُّ ﷺ لما قيل له يا رسول الله: الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياءً فأيُّ ذلك في سبيل الله فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو في سبيل الله»، ثم إنَّ كثيرًا من الناس يحب خليفة أو عالمًا أو شيخًا أو أميرًا فيجعله ندًا لله وإن كان قد يقول أنه يحبه لله فمن جعل غير الرسول تجب طاعته في كل ما يأمر به وينهي عنه وإن خالف أمر الله ورسوله فقد جعله ندًا وربما صنع به كما تصنع النصارى بالمسيح ويستغيث به ويدعوه ويوالي أولياءه ويعادي أعداءه مع إيجابه طاعته في كل ما يأمر به وما ينهي عنه ويحلله ويحرمه ويقيمه مقام الله ورسوله فهذا من الشرك الذي يدخل أصحابه في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾[2]. إلى أن يقول: والعمل الظاهر هو موجب إيمان القلب ومقتضاه فإذا حصل إيمان القلب حصل إيمان الجوارح ضرورة، وإيمان القلب لابد فيه من تصديق القلب وانقياده وإلا فلو صدق قلبه بأن محمدًا رسول الله وهو يبغضه ويحسده ويستكبر عن متابعته لم يكن قد آمن قلبه.

---

(١) الأنفال، آية: ٣٩.

(٢) البقرة، آية: ١٦٥.

والإيمان وإن تضمن التصديق فليس هو مرادفًا له فــلا يقــال لكــل مصدق بشيء أنه مؤمن به فلو قال: أنا أصدق بأن الواحد نصف الاثنــين وأن السماء فوقنا والأرض تحتنا ونحو ذلك مما يشاهده الناس ويعلمونه لم يُقلْ لهذا أنه مؤمن بذلك بل لا يستعمل إلا فيمن أخبر بشيء من الأمــور الغائبة كقول أخوة يوسف: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا﴾(١) فإنهم أخبروه بما غاب عنه وهم يفرقون بين آمن له وآمن به فالأول: يقال للمخبر، والثاني: يقال للمخبر به كما قال تعالى عن أخوة يوسف: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا﴾، وقــال تعالى: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ﴾ (٢)، وقال تعــالى: ﴿وَمِــنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّـــهِ وَيُــؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٣). ففرق بين إيمانه بالله وإيمانه للمؤمنين لأن المراد يــصدق المؤمنين إذا أخبروه وأما إيمانه بالله فهو من باب الإقرار به، ومنه قولــه تعالى عن فرعون وملئه ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾(٤) أي نقر لهما ونصدقهما، ومنه قوله ﷻ: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَــسْمَعُونَ كَلاَمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُــونَ﴾ (٥)، ومنــه قولــه تعالى: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ﴾(٦)، ومن المعنى الآخر قوله تعــالى: ﴿ يُؤْمِنُــونَ بِالْغَيْبِ﴾ (٧)، وقوله ﷻ: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُــونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾(٨)، وقوله ﷻ: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ

---

(١) يوسف، آية: ١٧.
(٢) يونس، آية: ٨٣.
(٣) التوبة، آية: ٦١.
(٤) المؤمنون، آية: ٤٧.
(٥) البقرة، آية: ٧٥.
(٦) العنكبوت، آية: ٢٦.
(٧) البقرة، آية: ٣.
(٨) البقرة، آية: ٢٨٥.

بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾(١) أي أقر بذلك ومثل هذا في القرآن كثير. والمقصود هنا أن لفظ الإيمان إنما يستعمل في بعض الأخبار، وهو مأخوذ من الأمن كما أن الإقرار مأخوذ من أقر فالمؤمن صاحب أمن كما أن المقر صاحب إقرار، فلابد في ذلك من عمل القلب بموجب تصديقه فإذا كان عالمًا بأن محمدًا رسول الله ولم يقترن بذلك حبه وتعظيمه، بل كان يبغضه ويستكبر عن اتباعه فإن هذا ليس بمؤمن به بل كافر به، ومن هذا الباب كفر إبليس وفرعون وأهل الكتاب الذين يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، وغير هؤلاء فإن إبليس لم يكذب خبرًا ولا مخبرًا بل استكبر عن أمر ربه، وفرعون وقومه قال الله فيهم: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾(٢)، وقال له موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاَء إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَافِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾(٤) فبمجرد علم القلب بالحق إن لم يكن يقترن به عمل القلب بموجب علمه مثل محبة القلب له واتباع القلب له لم ينفع صاحبه بل أشد الناس عذابًا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه وقد كان النبيّ ﷺ يقول «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ونفس لا تشبع ودعاء لا يسمع وقلب لا يخشع» لكن الجهمية ظنوا أن مجرد علم القلب وتصديقه هو الإيمان، وأنه من دل الشرع على أنه ليس بمؤمن كان ذلك يدل على عدم علم قلبه، وهذا من أعظم الجهل شرعًا وعقلاً وحقيقته توجب التسوية بين المؤمن والكافر، ولهذا أطلق وكيع بن الجراح وأحمد بن حنبل وغيرهم من الأئمة كفرهم بذلك. فإن من المعلوم أن الإنسان يكون عالمًا بالحق ويبغضه

(١) البقرة، آية: ١٧٧.
(٢) النمل، آية: ١٤.
(٣) الإسراء، آية: ١٠٢.
(٤) الأنعام، آية: ٢٠.

لغرض آخر فليس كل من كان مستكبرًا عن الحق يكون غير عالم به وحينئذ فالإيمان(١) لابد فيه من تصديق القلب وعمله وهذا معنى قول السلف الإيمان قول وعمل، ثم إذا تحقق القلب بالتصديق والمحبة التامة المتضمنة للإرادة لزمه وجود الأفعال الظاهرة(٢) فإن الإرادة الجازمة إذا اقترن بها القدرة التامة لزم وجود المراد قطعًا وإنما ينتفي وجود الفعل لعدم كمال القدرة، ولعدم كمال الإرادة وإلا فمع كمالهما يجب وجود الفعل الاختياري، فإذا أقر القلب إقرارًا تامًا بأن محمدًا رسول الله وأحبه محبة تامة امتنع مع ذلك ألا يتكلم بالشهادتين مع قدرته على ذلك، لكن إن كان عاجزًا لخوف أو نحوه لم يكن قادرًا على النطق بهما.

وأبو طالب وإن كان عالمًا بأن محمدًا رسول الله وهو محبٌ له فلم تكن محبته لله بل كان يحبه لأنه ابن أخيه فيحبه للقرابة وإن أحب ظهوره فلِمَا يحصل له بذلك من الشرف والرئاسة فأصل محبوبه هو الرئاسة فلهذا لما عرض عليه الشهادتين عند الموت رأى أن بالإقرار بهما زوال دينه الذي يحبه فكان دينه أحب إليه من ابن أخيه ولهذا فلم يقر بهما فلو كان يحبه لأنه رسول الله كما كان أبو بكر يحبه والذي قال الله فيه: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى ۝ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ۝ وَمَا لأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ۝ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى ۝ وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾(٣)

وكما كان يحبه سائر المؤمنين كعمر وعثمان وغيرهم لنطق بالشهادتين قطعًا فكان حبه حبًا مع الله لا حبًا في الله ولهذا لم يقبل الله ما فعله من نصر الرسول ومؤازرته لأنه لم يعمله لله والله لا يقبل من العمل

---

(١) واضح من الكلام عن الإيمان هنا هو عن الإيمان المقابل للكفر وليس عن الإيمان الواجب أو المستحب وأن العمل بهذا المعني هنا ركنٌ من أركان أصل الإيمان وشرط لصحته وليس لكماله كما يقول فروخ الجهمية.

(٢) القول والعمل ليس للقلب فقط بل ظاهرًا وباطنًا وهذا أيضًا خلاف ما يقوله فروخ الجهمية.

(٣) الليل، الآيات: ١٧-٢١.

إلا ما أريد به وجهه بخلاف الذي فعل ما فعل ابتغاء وجه ربِّه الأعلي وهذا مما يحقق أن الإيمان والتوحيد لابد فيهما من عمل القلب كحب القلب فلابــد من إخلاص الدين لله، والدين لله لا يكون دينًا إلا بعمل فإن الدين يتــضمن الطاعة والعبادة وقد أنزل الله عزَّ وجلّ سورتي الإخلاص، "قــل يــا أيهــا الكافرون"، "قل هو الله أحد" إحداهما في توحيد العمل والإرادة فقــال فــي الأول: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۞ اللَّهُ الصَّمَدُ ۞ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۞ وَلَمْ يَكُنْ لَــهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ فأمره أن يقول هذا التوحيد وقال في الثاني: ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُون ۞ لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُون ۞ وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۞ وَلاَ أَنَــا عَابِــدٌ مَــا عَبَدتُّمْ ۞ وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۞ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ فأمره أن يقــول ما يوجب البراءة من عبادة غير الله، وإخلاص العبادة لله والعبــادة أصــلها القصد والإرادة والعبادة إذا أفردت دخل فيها التوكل ونحوه». أهـ.

الإسلام توحيد العبادة والإيمان توحيد الاعتقاد وبهما معًا يكــون المسلم مسلمًا:

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية [(١)]: «ولما كانت سورة البقرة ـــ ويقــال أنها أول سورة نزلت بالمدينة ـــ افتتحها الله بأربع آيات في صفة المؤمنين وآيتين في صفة الكافرين وبضع عشرة آية في صفة المنافقين فإنــه مــن حين هاجر النبيُّ ﷺ صار الناس ثلاث أصناف إما مؤمن وإما كافر مظهر الكفر وإما منافق بخلاف ما كانوا عليه بمكة فإنه لم يكن هناك منافق ولهذا قال أحمد بن حنبل وغيره: لم يكن من المهاجرين منافقًا وإنما كان النفــاق في قبائل الأنصار فإن مكة كان الكفار مستولين عليها فلا يؤمن ويهــاجر إلا من هو مؤمن ليس هناك داع إلى النفاق والمدينة آمن بها أهل الــشوكة فصار للمؤمنين بها عز ومنعة بالأنصار، فمن لــم يظهــر الإيمــان آذوه فاحتاج المنافقون إلى إظهار الإيمان مع أن قلوبهم لم تــؤمن والله تعــالى

(١) كتاب الإيمان، ص ١٥٢.

افتتح سورة البقرة ووسط البقرة وختم البقرة بالإيمان بجميع ما جاءت بـــه الأنبياء فقال تعالى في أولها ما تقدم وقال في وسطها: ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا﴾ إلى قوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ۝ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُمْ بِـــهِ فَقَدْ اهْتَدَوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ...﴾[1] الآية، وقـــال فـــي آخـــر البقرة: ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّـــهِ ﴾ إلى قوله: ﴿ ... وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾[2].

وفي الصحيحين عن النبيّ ﷺ أنه قال: «الآيتان من آخر البقرة مـــن قرأ بهما في ليلة كفتاه» والآية الوسطى ثبت أنه ﷺ كان يقـــرأ بهـــا فـــي ركعتي الفجر وبـــ ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمةٍ سواء...﴾ الآيـــة. وبـــ "قل يا أيها الكافرون" وبـــ "قل هو الله أحد" تارة فيقرأ بما فيه ذكـــر الإيمان والإسلام، أو بما فيه ذكر التوحيد والإخلاص»[3]. أهـــ.

ويقول شيخ الإسلام في "قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة":

«وقد بين فيه التوحيد الذي بعث الله به رسوله قولاً وعملاً فالتوحيـــد القولي مثل سورة "قل هو الله أحد" والتوحيد العملي "قل يا أيها الكافرون"، ولهذا كان النبيُّ ﷺ يقرأ بهاتين السورتين في ركعتي الفجـــر، والطـــواف وغير ذلك وقد كان أيضًا يقرأ في ركعتي الفجر وركعتي الطـــواف فـــي الركعة الأولي: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾[4] الآية، وفـــي الثانيـــة: ﴿قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾[5] الآية، فإن هـــاتين الآيتين فيهما دين الإسلام وفيهما الإيمان القولي والإيمان العملـــي فقولـــه

---

(١) البقرة، الآيتان: ١٣٦-١٣٧.

(٢) البقرة، الآيتان: ٢٨٥-٢٨٦.

(٣) التوحيد هو توحيد الربوبية والإخلاص هو توحيد العبادة.

(٤) البقرة، آية: ١٣٦.

(٥) آل عمران، آية: ٦٤.

تعالى: ﴿ قولوا أمنا بالله وما أنزل إلينا﴾ الآية، يتضمن الإيمان القولي والإسلام، وقوله ﷻ: ﴿قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ...﴾ الآية. يتضمن الإسلام وهو الإيمان العملي فأعظم نعمة أنعمها الله على عباده الإيمان والإسلام». أهـ.

ويقول شيخ الإسلام في "رسالة النبوات" (١):

«والله أرسل رسوله بالإسلام والإيمان أو بعبادة الله وحده وتصديق الرسول فيما أخبر فالأعمال: عبادة الله والعلوم: تصديق الرسول وكان النبيّ ﷺ يقرأ في ركعتي الفجر تارة بسورتي الإخلاص "قل هو الله أحد" و"قل يا أيها الكافرون" وتارة بقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا...﴾(٢) الآية. فإنها تتضمن الإيمان والإسلام وبالآية من سورة آل عمران: ﴿قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ﴾ الآية». أهـ.

ويقول في موضع آخر من نفس الرسالة(٣):

«والإرادة النافعة إرادة ما أُمروا به وذلك عبادة الله وحده لا شريك له فهذا هو السعادة وذلك إنما يكون بأمرين:

بتصديق الرسل وبطاعتهم ولهذا كانت السعادة متضمنة لهذين الأصلين: الإسلام والإيمان أو عبادة الله وحده وتصديق الرسل وهو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله قال تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾(٤).

قال أبو العالية: هما خصلتان يسأل عنهما كل أحد يقال من كنت تعبد وبماذا أجبت المرسلين». أهـ.

---

(١) رسالة النبوات، ج١، ص ٨٦.
(٢) البقرة، آية: ١٣٦.
(٣) المصدر السابق، ج ١، ص ٩١.
(٤) الأعراف، آية: ٦.

تعريف أشاعرة السنة للإيمان المقابل للكفر:

يقول القسطلاني في "شرح البخاري" عن الإيمان(1):

«ولما فرغ المؤلف من باب الوحي لأنه كالمقدمة لهذا الكتاب الجامع شرع يذكر المقاصد الدينية وبدأ فيها بالإيمان لأنه ملاك الأمر كله لأن الباقي مبني عليه ومشروط به وهو أول واجب على المكلف. إلى أن يقول: كتاب الإيمان بكسر الهمزة وهو لغة التصديق وهو كما قال التفتازانى: إذعان لحكم المخبر وقبوله وجعله صادقًا إفعال من الأمن كأن حقيقة آمن به أمنه التكذيب والمخالفة ويُعدي باللام كما في قوله تعالى حكاية عن أخوة يوسف: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا﴾(2) أي بمصدق لنا وبالباء كما في قوله ﷺ: «الإيمان أن تؤمن بالله... » الحديث. فليس حقيقة التصديق أن يقع في القلب نسبة التصديق إلى الخبر أو المخبر من غير إذعان وقبول بل هو إذعان وقبول لذلك، بحيث يقع عليه اسم التسليم على ما صرَّح به الإمام الغزالي. إلى أن يقول: والإسلام لغة الانقياد والخضوع ولا يتحقق ذلك إلا بقبول الأحكام والإذعان وذلك حقيقة التصديق كما سبق، قال الله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنْ الْمُؤْمِنِين ۞ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ﴾(3) فالإيمان لا ينفك عن الإسلام حكمًا فهما متحدان في التصديق وإن تغايرا بحسب المفهوم إذ مفهوم الإيمان تصديق القلب ومفهوم الإسلام أعمال الجوارح وبالجملة لا يصح في الشرع أن يحكم على أحد بأنه مؤمن وليس بمسلم أو مسلم وليس بمؤمن ولا نعني بوحدتهما سوى هذا ومن أثبت التغاير فقد يقال له ما حكم من آمن ولم يسلم أو أسلم ولم يؤمن فإن أثبت لأحدهما حكمًا ليس بثابت للآخر فقد ظهر بطلان قوله». أهـ.

---

(1) صحيح البخاري، ج1، ص 113، 114.
(2) يوسف، آية: 17.
(3) الذاريات، الآياتان: 35-36.

- **القـــول الفصـــل:**

يقول الله ﷻ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾(١) فأثبت لهم القول ونفى عنهم الإيمان، فالإيمان ليس قولاً باللسان فقط.

ويقول الله ﷻ: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾(٢) فأثبت لهم المعرفة ونفى عنهم الإيمان، فالإيمان ليس معرفة بالقلب فقط.

ويقول الله ﷻ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمْ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾(٣) وقد سبق قول صحابته ﷺ وأينا لم يظلم نفسه فقال ﷺ: ما معناه في إحدى الروايات بظلم بشرك، وفي رواية أخرى «ليس بذاك ألم تسمعوا إلى قول العبد الصالح إنَّ الشرك لظلمٌ عظيم».

فالإيمان إذا كان قولا باللسان ومعرفة بالقلب يسمي إيمانًا لغة وتسمية شرعية مقيدة، فإذا كان مع ترك الشرك فهذا هو المقبول عند الله شرعًا. وأما من آمن ولبس إيمانه بشرك فأولئك نفي عنهم الأمن والهداية بإطلاق، والشرك أن يعبد مع الله غيره والله لا يغفر أن يشرك به والتعطيل ليس دون الشرك بل هو أعظم منه، فالمستكبرون عن عبادته أعظم جرمًا من الذين يعبدونه ويعبدون معه غيره وهو لا يغفر لهم، فأولئك أولي، والإسلام أن نعبد الله ولا نشرك به شيئًا فالذي آمن ولم يلبس إيمانه بظلم هو الذي أقر بلسانه وصدق بقلبه وعبد الله ولم يشرك به شيئًا، أي أتي بالإيمان والإسلام وعند إطلاق لفظ الإسلام والإيمان يدخل فيه معنى اللفظ الآخر.

---

(١) البقرة، آية: ٨.
(٢) الأنعام، آية: ٢٠.
(٣) الأنعام، آية: ٨٢.

يقول أبو بطين رحمه الله [1]: «وقال ﷻ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾[2] قال ابن عباس وغيره: إذا سألتهم مَنْ خلق السماوات والأرض قالوا الله وهم يعبدون معه غيره. ففسروا الإيمان في هذه الآية بإقرارهم بتوحيد الربوبية والشرك بعبادتهم غير الله وهو توحيد الألوهية». أهـ.

وتوحيد الألوهية هو أن يعبد الله ولا يشرك به شيئًا وهو الإسلام ولذلك جمع الله سبحانه وتعالى بين الإيمان والإسلام أو بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية في قوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[3].

ثم أفرد لفظ الإيمان وأطلق بعد ذلك في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمْ اللَّهُ﴾[4].

فدخل في لفظ الإيمان معنى الإيمان والإسلام المذكورين قبلاً وهذه هى الحقيقة الشرعية للإيمان. وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[5] جمع بين الإيمان والإسلام.

ثم أفرد لفظ الإسلام وأطلقه في قوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنْ الْخَاسِرِينَ﴾[6].

---

(١) الانتصار لحزب الله الموحدين، ص ٨.
(٢) يوسف، آية: ١٠٦.
(٣) البقرة، آية: ١٣٦.
(٤) البقرة، آية: ١٣٧.
(٥) آل عمران، آية: ٨٤.
(٦) آل عمران، آية: ٨٥.

وهذه هى الحقيقة الشرعية للفظ الإسلام حيث دخل تحت لفظه معنى الإيمان والإسلام المذكورين قبلاً، وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿الذين آمنوا بآيتنا وكانوا مسلمين﴾(١)، ﴿إِنْ تُسْمِعُ إِلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾(٢)، ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾(٣). وعلي هذا تكون حقيقة الإيمان هى: توحيد الربوبية المستلزم لتوحيد الألوهية وتكون حقيقة الإسلام هى توحيد الألوهية المستلزم لتوحيد الربوبية.

ولما كنا مخاطبين بالعبادة وكان العلم سابقًا على القول والعمل كانت حقيقتهما واحدة وهي: توحيد الألوهية المستلزم والمتضمن لتوحيد الربوبية وذلك كحقيقة شرعية مطلقة مجردة وليس كدلالات مقيدة ومقترنة فتكون حقائق عرفية تتنوع بتنوع الاستعمال حسبما يقتضي السياق وأما الحقائق اللغوية للفظ فتتسع لما تتسع له الدلالات العرفية والحقيقة الشرعية ثابتة لا تتغير بتغير المناسبات ولا بتعدد أو تغير السياقات ومعروف تقدم الحقيقة الشرعية الاصطلاحية على العرفية الاستعمالية وتقدم العرفية الاستعمالية على اللغوية الوضعية القياسية.

تعريف الإيمان:

يُعَرَّف الإيمان بحقيقته كما في حديث جبريل عليه السلام، ويُعَرَّف بحقيقته ومتعلقاته كما في قول الله ﷻ: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمْ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمْ الرَّاشِدُونَ ۝ فَضْلاً مِنْ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(٤). وهذا هو الإيمان الذي قال عنه الفقهاء أنه قول وعمل يزيد وينقص. فمن الإيمان ما يقابل الكفر، ومن

(١) الأعراف، آية: ٦٩.
(٢) الروم، آية: ٥٣.
(٣) آل عمران، آية: ٥٢.
(٤) الحجرات، الآيتان: ٧-٨.

الإيمان ما يقابل الفسوق، ومن الإيمان ما يقابل العصيان، أصل الإيمان وهو حقيقته وشعب الإيمان وهي متعلقاته ويُعرَّف الإيمان بمتعلقاته فقط «المؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم».

وكما سبق أن قلنا في حقيقة الإسلام نقول في حقيقة الإيمان أن تعريف الإيمان بحقيقته له حدان، حد يتسع لكل ما ينطبق به الاسم على مسماه وحد يضيق إلى أقل ما ينطبق به الاسم على مسماه وهذا هو الحد الفاصل بين الإيمان والكفر وبين الدخول في الملة والخروج منها، وأقل ما ينطبق اسم الإيمان على مسماه هو أقل ما ينطبق به اسم التوحيد على مسماه وهو ترك الشرك الأعظم «من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة ومن مات يشرك بالله شيئًا دخل النار» وترك الشرك الأعظم هنا جملة وتفصيلا. فمن مات على شيء من الشرك الأعظم مات كافرًا غير مسلم وغير مؤمن ولا يدخل الجنة إلا نفسٌ مسلمة ولا يدخل الجنة إلا نفسٌ مؤمنة ومن مات على شيء من الشرك الأعظم فقد لقي الله بدين لا يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين وكما سبق أن قلنا إن ترك الشرك لا يمكن أن يتحقق إلا بتحقق التوحيد فلابد في النفي من إثبات وفي الإثبات من نفي، فالتوحيد نفي وإثبات، فلا يتحقق ترك الشرك الأعظم إلا بالعلم النافي للجهالة واليقين النافي للشك والصدق النافي للنفاق والإخلاص النافي للشرك والقبول النافي للرد والانقياد النافي للترك والمحبة النافية لما يضادها، "وهذا يتحقق بصورة عملية: بالعلم الضروري للإيمان، العلم بالله سبحانه وتعالى وبأقل ما يتحقق به الإيمان لأن الأصل في الإيمان هو العلم، والعمل لازم له ثم هو يشمل اللازم والملزوم، الإقرار بالتوحيد والرسالة، الالتزام بشرائع الإسلام والدخول في ولايته، ترك الشرك بنوعيه في الاعتقاد والعبادة. وهذه الأركان متلازمة لا يذهب بعضها ويبقى البعض الآخر" أما ما يزيد على التوحيد من عمل فغير متلازم

يذهب بعضه ويبقى بعضه ﴿خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾[1] ولذلك قال العلماء في تفسير أحاديث الشفاعة وأحاديث يوم القيامة عمَنْ في قلبه ذرة من إيمان أو من خير أي زائدًا على التوحيد أو التصديق، لأن التصديق والتوحيد كصلب لا يتبعض وفي حديث الرجل الذي ذرى نفسه في مسند الإمام أحمد «أنه لم يعمل خيرًا قط زائدًا على التوحيد» وآخر من يخرج من النار هم الجنهميون عتقاء الرحمن أصحاب الخواتيم ثم لا يبقى في النار إلا من حبسه القرآن وهو قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[2]. ومن حبسه القرآن هو من مات يشرك بالله شيئًا وإن وحَّد في كل شيء غير ذلك. أما من مات لا يشرك بالله شيئًا وإن لم يعمل خيرًا قط غير ذلك فهؤلاء يخرجهم الرحمن بقبضته من النار وهم عتقاء الرحمن لم يعلم أمرهم إلا الله ولذلك لم يخرجوا من النار بشفاعة النبيّ ﷺ لخفاء أمرهم كما قال عنهم ابن حجر.

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية عن الاستثناء والقطع في الإيمان[3]: «... وأما الموافاة فما علمت أحدًا من السلف علل بها الاستثناء ولكن كثيرًا من المتأخرين من يعلل بها من أصحاب الحديث من أصحاب أحمد ومالك والشافعي وغيرهم كما يعلل بها نظارهم كأبي الحسن الأشعري وأكثر أصحابه ولكن ليس هذا قول السلف أصحاب الحديث والسلف يقطع في الإيمان المجمل ويستثني في الإيمان المطلق المتعلق بفعل الواجبات.

بَيَّن شيخ الإسلام مخالفة القول بالموافاة لما كان عليه السلف فيقول: وأما الجمهور وأكثر الناس فيقولون: بل هو إذا كان كافرًا فهو عدو لله ثم إذا آمن واتقى صار وليًا لله يقول الله ﷻ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا

(١) التوبة، آية: ١٠٢.
(٢) النساء، آية: ٤٨.
(٣) كتاب الإيمان، ص ٣٣٧. "بتصرف يسير"

عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ﴾ إلى قوله: ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[(١)].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: وكذلك كان، فإن هؤلاء أهل مكة الذين كانوا يعادون الله ورسوله قبل الفتح، آمن أكثرهم وصاروا من أولياء الله ورسوله». أهـ.

- **علاقة الإيمان بالإسلام في تعريفهما بمتعلقاتهما:**

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية[(٢)]: «وأما إذا قيد الإيمان فقرن بالإسلام أو بالعمل الصالح فإنه قد يراد به ما في القلب من الإيمان باتفاق الناس وهل يراد به أيضًا المعطوف عليه ويكون من باب عطف الخاص على العام أو لا يكون حين الاقتران داخلاً في مسماه بل يكون لازمًا له على مذهب أهل السنة أو لا يكون بعضًا ولا لازمًا هذا فيه أقوال ثلاثة للناس ـ كما سيأتي إن شاء الله تعالى ـ وهذا موجود في حالة الأسماء فيتنوع مسماها بالإطلاق، والتقييد ومثال ذلك اسم المعروف والمنكر، إذا أطلق دخل في المعروف كل خير وفي المنكر كل شر، ثم قد يقترن بما هو أخص منه كقوله تعالى: ﴿ لاَ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾[(٣)] فغاير بين المعروف وبين الصدقة والإصلاح بين الناس كما غاير بين اسم الإيمان والعمل واسم الإيمان والإسلام، وفي قوله تعالى: ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا﴾[(٤)]، وقوله ﷻ: ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا

---

(١) الممتحنة، آيات: ١-٧.
(٢) كتاب الإيمان، ص ١٢٣.
(٣) النساء، آية: ١١٤.
(٤) الأحزاب، آية: ٧٠.

وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾[1] فعطف قولهم على الإيمان كما عطف القول السديد على التقوي ومعلوم أن التقوى إذا أطلقت دخل فيها القول السديد كذلك الإيمان إذا أطلق دخل فيه السمع والطاعة لله والرسول وكذلك قوله ﷻ: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾[2]، وقوله ﷻ: ﴿كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ﴾[3].

وإذا أطلق الإيمان بالله دخل فيه الإيمان بتلك التوابع، وكذلك لفظ البر إذا أطلق كان مسماه مسمى التقوى، والتقوى إذا أطلقت كان مسماها مسمى البر ثم يجمع بينهما كما في قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾[4] وكذلك اسم الفقير إذا أطلق دخل فيه المسكين، والمسكين إذا أطلق لفظه تناول الفقير، وإذا قرن بينهما فأحدهما غير الآخر فالأول كقوله ﷻ: ﴿وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾[5]، وكقوله ﷻ: ﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ﴾[6]، والثاني كقوله: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا﴾[7] وهذه الأسماء تختلف دلالتها بالإطلاق والتقييد والتجريد والاقتران تارة تكون إن أفرد أحدها كان أعم من ذلك الآخر كاسم الإيمان والمعروف مع العمل ومع الصدقة، والمنكر مع الفحشاء والبغي وتارة يكونان متساويين في العموم والخصوص كلفظ الإيمان والبر ولفظ الفقير والمسكين وعطف الشيء على الشيء في القرآن وسائر الكلام يقتضي مغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه مع اشتراك المعطوف عليه في الحكم الذي ذكر لهما والمغايرة على مراتب: أعلاها أن يكونا متباينين ليس

---

(١) البقرة، آية: ٢٨٥ .
(٢) الحديد، آية: ٧.
(٣) البقرة، آية: ٢٨٥.
(٤) المائدة، آية: ٢.
(٥) البقرة، آية: ٢٧١.
(٦) المائدة، آية: ٨٩.
(٧) التوبة، آية : ٦٠.

أحدهما هو الآخر ولا جزء منه ولا يعرف لزوم له كقوله تعالى: ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾[1]، وقوله ﷻ: ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾[2] ويليه أن يكون بينهما لزوم كقوله ﷻ: ﴿وَلاَ تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾[3]، والثالث عطف بعض الشيء على الشيء نفسه كقوله ﷻ: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاَةِ الْوُسْطَى﴾[4]، والرابع عطف الشيء على الشيء نفسه لاختلاف الصفتين كقوله ﷻ: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ۞ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۞ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ۞ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴾[5]». أهـ.

والإسلام مع الإيمان عند الاقتران يكونان على عدة أوضاع:

- **الوضع الأول:** أن يكون الإسلام جزء مسمى الإيمان فيكون الإيمان أشمل كقوله ﷺ عن الإسلام:« أنه إفشاء السلام وإطعام الطعام والصلاة بالليل والناس نيام» وعن الإيمان أنه «السماحة والصبر» والسماحة والصبر أشمل من حيث المعنى.

- **الوضع الثاني:** أن يكون الإيمان جزء مسمى الإسلام فيكون الإسلام أشمل وذلك كما في قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمْ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾[6] والإيمان كما في حديث جبريل عليه السلام «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره». وفي الحديث، قال: «فأيُّ الإسلام أفضل. قال: الإيمان. قال: وما الإيمان. قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالبعث بعد الموت... » إلى آخر الحديث رواه أحمد من حديث أيوب عن أبي قلابة عن رجل من أهل الشام عن أبيه.

---

(١) العنكبوت، آية: ٤٤.
(٢) البقرة، آية: ٩٨.
(٣) البقرة، آية: ٤٢.
(٤) البقرة، آية: ٢٣٨.
(٥) الأعلي، آيات: ١-٤.
(٦) المائدة، اية: ٣.

• **الوضع الثالث:** أن يكون الإيمان والإسلام قسيمين وذلك على ضربين:

الضرب الأول: الإسلام عمل باطن وظاهر والإيمان قول باطن وظاهر « نؤمن بهن ونعمل بهن».

الضرب الثاني: الإسلام ظاهر قول وعمل والإيمان باطن قول وعمل « الإيمان سر والإسلام علانية».

• **الوضع الرابع:** أن يكون الإسلام لازمًا للإيمان[1].

• **الوضع الخامس:** تقسيم المراتب: ﴿قَالَتْ الأعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ [2]، وقول الإمام أحمد في تفسيره لحديث رسول الله ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» خرج من الإيمان إلى الإسلام ورسم دائرتين وقال خرج من هذه إلى تلك، وقول الله ﷻ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾[3]. فالمسلمون أعمّ من المؤمنين، والمؤمنون أعمّ من المحسنين. والإحسان أعمّ من الإيمان، والإيمان أعمّ من الإسلام، والإسلام يثبت بالتوحيد والخروج من ملل الكفر، والإيمان مازاد على ذلك من عمل بفعل الواجب وترك المحرم، والإحسان ما يزيد على ذلك بفعل المندوب وترك المكروه والتوغل في التطوعات والمسارعة إلى الخيرات.

• **الوضع السادس:** أن يكون الإسلام والإيمان صفتين متلازمتين لموصوف واحد هو الدين.

---

(١) مرَّ بيان ذلك.

(٢) الحجرات، آية: ١٤.

(٣) فاطر، آية: ٣٢.

يقول شيخ الإسلام[١]: «ومن جهة أنه إذا وصف الواجب بصفات متلازمة دل على أن كل صفة من تلك الصفات متي ظهرت وجب اتباعها وهذا مثل الصراط المستقيم الذي أمر الله سؤال هدايته فإنه قد وصف بأنه الإسلام ووصف بأنه اتباع القرآن ووصف بأنه طاعة الله ورسوله ووصف بأنه طريق العبودية ومعلوم أن كل اسم من هذه الأسماء يجب اتباع مسماه ومسماها كلها واحد وإن تنوعت صفاته، فأي صفة ظهرت وجب اتباع مدلولها فإنه مدلول الأخرى وكذلك أسماء الله تعالى وأسماء كتابه وأسماء رسوله وهي مثل أسماء دينه». أهـ.

ويقول [٢]: «"فصل"، وهذا النوع من نمط أسماء الله وأسماء كتابه وأسماء دينه قال تعالى: ﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾[٤]، وقال ﷻ: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ۞ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلاَمُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۞ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[٥]. فأسماؤه الحسنى كلها متفقة في الدلالة على نفسه المقدسة ثم كل اسم يدل على معنى من صفاته ليس هو المعني الذي دلَّ عليه الاسم الآخر فالعزيز يدل على نفسه مع عزته والخالق يدل على نفسه مع خلقه والرحيم يدل على نفسه مع رحمته ونفسه تستلزم جميع صفاته فصار كل

---

(١) كتاب الإيمان، ص ٣٤.
(٢) المصدر السابق، ص ١٤٠.
(٣) الإسراء، آية: ١١٠.
(٤) الأعراف، آية: ١٨٠.
(٥) الحشر، آيات: ٢٢-٢٤.

اسم يدل على ذاته والصفة المختصة به بطريق المطابقة وعلي أحـــدهما بطريق التضمن وعلي الصفة الأخرى بطريق اللـــزوم. وهكـــذا أســـماء كتابه، القرآن والفرقان والهدى والبيان والشفاء والنور وغير ذلك هـــى بهذه المنزلة. إلى أن يقول: وهكذا أسماء دينه الذي أمر الله به رســـوله يسمي إيمانًا وبرًا وتقوى وخيرًا ودينًا وعملاً صالحًا وصراطًا مـــستقيمًا ونحو ذلك وهو في نفسه واحد لكن كل اسم يدل على صفة ليـــست هـــى الصفة التي يدل عليها الآخر وتكون تلك الصفة هى الأصل فـــي اللفـــظ والباقي تابعًا لها ثم صارت دالة عليها بالتضمن». أهـــ.

الباب الرابع

حقيقـــة التوحيـــد

حقيقة التوحيد وأقوال العلماء فيه:

ويقول ابن القيم[1] ﷺ بعد أن يستوفي توحيد المتكلمين والصوفية والفلاسفة: «وأما التوحيد الذي دعت إليه رسل الله ونزلت به كتبه فوراء ذلك وهو نوعان:

١- توحيد في المعرفة والإثبات.

٢- توحيد في الطلب والقصد.

فالنوع الأول: هو حقيقة ذات الرب تعالى وأسمائه وصفاته وعلوه فوق سمواته على عرشه وتكلمه بكتبه وتكليمه لمن شاء من عباده وإثبات عموم قضائه وقدره وحكمه وقد أفصح القرآن عن هذا النوع جد الإفصاح كما في سورة الحديد، وسورة طه، وآخر سورة الحشر، وأول تنزيل السجدة، وأول آل عمران، وسورة الإخلاص بكمالها وغير ذلك.

النوع الثاني: مثل ما تضمنته سورة قل يا أيها الكافرون، وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ﴾ الآية، وأول تنزيل الكتاب، وآخرها، وأول يونس، ووسطها، وآخرها، وأول الأعراف، وآخرها، وجملة الأنعام، وغالب سور القرآن، بل كل سورة في القرآن فهي متضمنة لنوعي التوحيد. بل نقول قولاً كليًا: إن كل آية في القرآن فهي متضمنة للتوحيد شاهدة به داعية إليه فإن القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله فهو التوحيد العلمي الخبري وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له، وخلع كل ما يعبد من دونه. فهو التوحيد الإرادي الطلبي. وإما أمرٌ ونهيٌ وإلزام بطاعته في أمره ونهيه فهي حقوق[2] التوحيد ومكملاته وإما خبر عن كرامة الله لأهل توحيده وطاعته

---

(١) مدارج السالكين، دار التراث العربي، ج٣، ص ٣٢٥.

(٢) حقوق التوحيد: هى الطاعات بفعل المأمور وترك المحظور وهي من متعلقات الإيمان والإسلام وحقيقة الإيمان والإسلام هى هى حقيقة التوحيد.

وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة فهو جزاء توحيده وإما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا وما يحل بهم في العقبى من العذاب فهو خبر عمن خرج عن حكم التوحيد». أهـ.

١- **ويقول شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب** في"رسالة كشف الشبهات" [١]: «اعلم رحمك الله أن التوحيد هو: إفراد الله بالعبادة وهو دين الرسل الذي أرسلهم الله به إلى عباده فأول الرسل نوح ﷺ أرسله الله إلى قومه لما غلوا في الصالحين ودًا وسواعًا ويغوث ويعوق ونسرًا وآخر الرسل محمد ﷺ وهو الذي كسر صور هؤلاء الصالحين أرسله إلى قوم يتعبدون ويحجون ويتصدقون ويذكرون الله كثيرًا ولكنهم يجعلون بعض المخلوقات وسائط بينهم وبين الله يقولون نريد منهم التقرب إلى الله ونريد شفاعتهم عنده مثل الملائكة وعيسى بن مريم وأناس غيرهم من الصالحين فبعث الله محمدًا ﷺ يجدد لهم دين أبيهم إبراهيم ويخبرهم أن هذا التقرب والاعتقاد[٢] محض حق الله لا يصلح منه شيء لغير الله لا لملك مقرب، ولا لنبيٍّ مرسل فضلاً عن غيرهما وإلا فهؤلاء المشركون يشهدون أن الله هو الخالق وحده لا شريك له وأنه لا يرزق إلا هو ولا يحيي إلا هو ولا يميت إلا هو ولا يدبر الأمر إلا هو وأن جميع السماوات ومن فيهن والأرضين السبع ومن فيهن كلهم عبيده وتحت تصرفه وقهره. فإذا أردت الدليل على أن هؤلاء الذين قاتلهم رسول الله ﷺ يشهدون بهذا فاقرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنْ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنْ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ

(١) كتاب عقيدة الموحدين، ص٩١ وما بعدها.

(٢) يسمون عبادتهم لشيء ليقربهم إلى الله زلفى اعتقاد في ذلك الشيء، وذلك اصطلاح الناس من الأعراب في البوادي في وقت الشيخ حتى لا يختلط بالاعتقاد بمعناه الاصطلاحي كما سنبينه.

فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾[١]، وقوله ﷻ: ﴿قُلْ لِمَنْ الأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ۞ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۞ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ۞ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلاَ يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّا تُسْحَرُونَ﴾[٢]. وغير ذلك من الآيات فإذا تحققت أنهم مقرون بهذا ولم يدخلهم في التوحيد الذي دعاهم إليه رسول الله ﷺ وعرفت أن التوحيد الذي جحدوه هو توحيد العبادة الذي يسميه المشركون في زماننا "الاعتقاد" كما كانوا يدعون الله سبحانه ليلاً ونهارًا ثم منهم من يدعو الملائكة لأجل صلاحهم وقربهم من الله ليشفعوا له أو يدعو رجلاً صالحًا مثل اللات أو نبيًا مثل عيسى وعرفت أن رسول الله ﷺ قاتلهم على هذا الشرك ودعاهم إلى إخلاص العبادة كما قال تعالى: ﴿فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾[٣]، وقال ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ﴾[٤] وتحققت أن رسول الله ﷺ قاتلهم ليكون الدعاء كله لله والنذر كله لله والذبح كله لله والاستغاثة كلها لله وجميع العبادات كلها لله وعرفت أن إقرارهم بتوحيد الربوبية لم يدخلهم في الإسلام وأن قصدهم الملائكة والأنبياء والأولياء يريدون شفاعتهم والتقرب إلى الله بذلك هو الذي أحلَّ دماءهم وأموالهم عرفت حينئذ التوحيد الذي دعت إليه الرسل وأبى عن الإقرار به المشركون وهذا التوحيد هو معنى قولك "لا إله إلا الله" فإن الإله عندهم هو الذي يقصد لأجل هذه الأمور سواء كان ملكًا أو نبيًا أو وليًا أو شجرة أو قبرًا أو جنيًا لم يريدوا أن الإله هو الخالق الرازق المدبر فإنهم يعلمون أن ذلك لله وحده كما قدمت لك وإنما يعنون بالإله ما يعني

(١) يونس، آية: ٣١.
(٢) المؤمنون، آيات: ٨٤-٨٩.
(٣) الجن، آية: ١٨.
(٤) الرعد، آية: ١٤.

المشركون في زماننا بلفظ السيدِّ فأتاهم النبيّ ﷺ يدعوهم إلى كلمة التوحيد وهي "لا إله إلا الله" والمراد من هذه الكلمة معناها لا مجرد لفظها، والكفّار الجهال يعلمون أن مراد النبيّ ﷺ بهذه الكلمة هو إفراد الله تعالى بالتعلق به والكفر بما يعبد من دون الله والبراءة منه فإنه لما قال لهم قولوا لا إله إلا الله قالوا: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾[1]. فإذا عرفت أن جهَّال الكفار يعرفون ذلك فالعجب ممن يدعي الإسلام وهو لا يعرف من تفسير هذه الكلمة ما عرفه جهَّال الكفار بل يظن أن ذلك هو التلفظ بحروفها من غير اعتقاد القلب لشيء من المعاني والحاذق منهم يظن أن معناها لا يخلق ولا يرزق إلا الله فلا خير في رجلٍ جهالُ الكفارِ أعلمَ منه بمعني "لا إله إلا الله".

وإذا عرفت ما ذكرت لك معرفة قلب وعرفت الشرك بالله الذي قال الله فيه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[2] وعرفت دين الله الذي أرسل به الرسل من أولهم إلى آخرهم الذي لا يقبل الله من أحد سواه وعرفت ما أصبح غالب الناس فيه من الجهل بهذا أفادك فائدتين: الفرح بفضل الله ورحمته كما قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾[3] وأفادك أيضًا الخوف العظيم فإنك إذا عرفت أن الإنسان يكفر بكلمة يخرجها من لسانه وقد يقولها وهو جاهل فلا يعذر بالجهل وقد يقولها وهو يظن أنها تقربه إلى الله تعالى كما ظن المشركون، خصوصًا إنْ ألهمك الله ما قصَّ عن قوم موسى مع صلاحهم وعلمهم أنهم أتوه قائلين: ﴿اجْعَل لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾[4] فحينئذ يعظم حرصك وخوفك على ما يخلصك من هذا وأمثاله، واعلم أنه

---

(١) ص، آية: ٥.
(٢) النساء، آية: ٤٨.
(٣) يونس، آية: ٥٨.
(٤) الأعراف، آية: ١٣٨.

سبحانه من حكمته لم يبعث نبيًا بهذا التوحيد إلا جعل له أعداء كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾(١) وقد يكون لأعداء التوحيد علوم كثيرة وكتب وحجج كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنْ الْعِلْمِ﴾(٢).

إذا عرفت ذلك عرفت أن الطريق إلى الله لابد له من أعداء قاعدين عليه أهل فصاحة وعلم وحجج فالواجب عليك أن تتعلم من دين الله ما يصير لك سلاحًا تقاتل به هؤلاء الشياطين الذين قال إمامهم ومقدمهم لربِّك ﷻ: ﴿لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ۞ ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾(٣) ولكن إذا أقبلت على الله وأصغيت إلى حججه وبيناته فلا تخف: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾(٤). والعامي من الموحدين يغلب ألفًا من علماء هؤلاء المشركين كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمْ الْغَالِبُونَ﴾(٥) فجندُ الله هم الغالبون بالحجة واللسان كما هم الغالبون بالسيف والسنان وإنما الخوف على الموحد الذي يسلك الطريق وليس معه سلاح وقد منَّ الله علينا بكتابه الذي جعله: ﴿تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾(٦).

فلا يأتي صاحب باطل بحجة إلا وفي القرآن ما ينقضها ويبين بطلانها كما قال تعالى: ﴿وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ

---

(١) الأنعام، آية: ١١٢.
(٢) غافر، آية: ٨٣.
(٣) الأعراف، الآيتان: ١٦-١٧.
(٤) النساء، آية: ٧٦.
(٥) الصافات، آية: ١٧٣.
(٦) النحل، آية: ٨٩ .

تَفْسِيرًا﴾(١). قال بعض المفسرين "هذه الآية عامة في كل حجة أتـي بها أهل الباطل إلى يوم القيامة" وأنا أذكر لك أشياء مما ذكر الله في كتابه جوابًا لكلام احتج به المشركون في زماننا علينا فنقول جواب أهل الباطل من طريقين: مجمل ومفصل، فأما المجمل فهو الأمر العظيم والفائدة الكبيرة لمن عقلها وذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾(٢). وقد صحَّ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم» مثال ذلك إذا قال لك بعض المشركين: ﴿أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(٣) وأن الشفاعة حق وأن الأنبياء لهم جاه عند الله أو ذكر كلامًا للنبيّ ﷺ يستدل به على شيء من باطله وأنت لا تفهم معنى الكلام الذي ذكره فجاوبه بقولك إن الله ذكر أن الذين في قلوبهم زيغ يتركون المحكم ويتبعون المتشابه وما ذكرته لك من أن الله ذكر في كتابه أن المشركين يقرون بالربوبية وإن كفرهم بتعلقهم على الملائكة والأنبياء والأولياء مع قولهم: ﴿هَؤُلاَءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾(٤) هذا أمر محكم بَيِّن لا يقدر أحد أن يغير معناه وما ذكرت لي أيها المشرك من القرآن أو كلام النبيّ ﷺ لا أعرف معناه ولكن أقطع أن كلام الله لا يتناقض وأن كلام النبيّ لا يخالف كلام الله وهذا جواب سديد ولكن لا يفهمه إلا من وفقه الله فلا نستهن به فإنه كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾(٥).

(١) الفرقان، آية: ٣٣.
(٢) آل عمران، آية: ٧.
(٣) يونس، آية: ٦٢.
(٤) يونس، آية: ١٨.
(٥) فصلت، آية: ٣٥.

وأما الجواب المفصل فإن أعداء الله لهم اعتراضات كثيرة يصدون بها الناس عنه منها قولهم نحن لا نشرك بالله بل نشهد أنه لا يخلق ولا يرزق ولا ينفع ولا يضر إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا ﷺ لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا فضلاً عن عبد القادر أو غيره ولكن أنا مذنب والصالحون لهم جاه عند الله وأطلب من الله بهم فجاوبه بما تقدم وهو أن الذين قاتلهم رسول الله ﷺ مقرون بما ذكرت ومقرون أن أوثانهم لا تدبر شيئًا وإنما أرادوا الجاه والشفاعة واقرأ عليه ما ذكره الله في كتابه ووضحه فإن قال: هؤلاء الآيات نزلت فيمن يعبد الأصنام كيف تجعلون الصالحين أصنامًا؟ فجاوبه بما تقدم فإنه إن أقر أن الكفار يشهدون بالربوبية كلها لله وأنهم ما أرادوا ممن قصدوا إلا الشفاعة، ولكن أراد أن يفرق بين فعلهم وفعله بما ذكره فاذكر له أن الكفار منهم من يدعو الصالحين والأصنام ومنهم من يدعو الأولياء الذين قال الله فيهم: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمْ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾(١)، ويدعون عيسى بن مريم وأمه، وقد قال الله تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمْ الأيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾(٢)، واذكر قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلاَئِكَةِ أَهَؤُلاَءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ۞ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾(٣)، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾(٤) الآية. فقل له عرفت أن الله كفَّر من قصد الأصنام وكفَّر أيضًا من قصد الصالحين

(١) الإسراء، آية: ٥٧.
(٢) المائدة، اية: ٧٥.
(٣) سبأ، الآيتان: ٤٠-٤١.
(٤) المائدة، اية: ١١٦.

وقاتلهم رسول الله ﷺ؟ فإن قال: الكفار يريدون منهم وأنا أشهد أن الله هو النافع الضار المدبر لا أريد إلا منه والصالحون ليس لهم من الأمر شيء ولكن أقصدهم أرجو من الله شفاعتهم. فالجواب: أن هذا قول الكفار سواء بسواء فاقرأ عليه قوله تعالى:﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾(١)، وقوله تعالى: ﴿هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾(٢).

واعلم أن هذه الشبه الثلاث هى أكبر ما عندهم فإذا عرفت أن الله وضحها في كتابه وفهمتها فهمًا جيدًا فما بعدها أيسر منها فإن قال أنا لا أعبد إلا الله وهذا الالتجاء إلى الصالحين ودعاؤهم ليس بعبادة فقل له أنت تقر أن الله فرض عليك إخلاص العبادة وهو حقه عليك فإذا قال نعم قل له بين لي هذا الذي فرض عليك وهو إخلاص العبادة لله وحده وهو حقه عليك فإنه لا يعرف العبادة ولا أنواعها فبينها له بقولك قال الله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾(٣) فإذا أعلمته بهذا فقل له هل علمت هذا عبادة لله فلابد أن يقول نعم والدعاء مخ العبادة فقل له إذا أقررت أنه عبادة ودعوت الله ليلاً ونهارًا خوفًا وطمعًا ثم دعوت في تلك الحاجة نبيًا أو غيره هل أشركت في عبادة الله غيره، فلابد أن يقول نعم، فقل له إذا عملت بقول الله إذ قال الله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾(٤) وأطعت الله ونحرت له هل هذه عبادة فلابد أن يقول نعم فقل له إذا نحرت لمخلوق، نبيٍّ، أو جنيٍّ أو غيرهما هل أشركت في هذه العبادة غير الله فلابد أن يقر ويقول نعم وقل له أيضًا المشركون الذين نزل فيهم القرآن هل كانوا يعبدون الملائكة والصالحين واللات وغير ذلك فلابد أن يقول نعم فقل له وهل كانت عبادتهم إياهم إلا في الدعاء والذبح والالتجاء ونحو ذلك وإلا فهم مقرون أنهم عبيد الله، وتحت قهره، وأن الله هو الذي

(١) الزمر، آية: ٣.
(٢) يونس، آية: ١٨.
(٣) الأعراف، آية: ٥٥.
(٤) الكوثر، آية: ٢ .

يدبر الأمر ولكن دعوهم والتجئوا إليهم للجاه والشفاعة وهذا ظاهر جدًا، فإن قال أتنكر شفاعة رسول الله ﷺ وتبرأ منها فقل لا أنكرها ولا أتبرأ منها بل هو ﷺ الشافع المشفع وأرجو شفاعته ولكن الشفاعة كلها لله كما قال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾(١) ولا تكون إلا من بعد إذن الله كما قال الله ﷻ: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾(٢) ولا يشفع النبيُّ في أحد إلا من بعد أن يأذن الله فيه كما قال ﷻ: ﴿وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنْ ارْتَضَى﴾(٣) وهو لا يرضى إلا التوحيد، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾(٤).

فإذا كانت الشفاعة كلها لله ولا تكون إلا من بعد إذنه ولا يشفع النبيّ ﷺ ولا غيره في أحد حتى يأذن الله فيه ولا يأذن إلا لأهل التوحيد، تبين لك أن الشفاعة كلها لله وأطلبها منه وأقول اللهم لا تحرمني شفاعته اللهم شفعه في وأمثال هذا.

فإن قال: النبيُّ ﷺ أعطي الشفاعة وأنا أطلبه مما أعطاه الله فالجواب أن الله أعطاه الشفاعة ونهاك عن هذا فقال: ﴿فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾(٥) وأيضًا فإن الشفاعة أعطيها غير النبيّ ﷺ فصح أن الملائكة يشفعون والأفراط يشفعون والأولياء يشفعون أتقول أن الله أعطاهم الشفاعة وأنا أطلبها منهم فإن قلت هذا رجعت إلى عبادة الصالحين التي ذكر الله في كتابه وإن قلت لا بطل قولك أعطاه الله الشفاعة، وأنا أطلبها مما أعطاه الله فإن قال أنا لا أشرك بالله شيئًا حاش وكلا ولكن الالتجاء للصالحين ليس بشرك فقل له إذا كنت تقر أن الله حرَّم الشرك أعظم من تحريم الزنا وتقر أن الله لا يغفره فما هذا الأمر

---

(١) الزمر، آية: ٤٤.
(٢) البقرة، آية: ٢٥٥.
(٣) الأنبياء، آية: ٢٨.
(٤) آل عمران، آية: ٨٥.
(٥) الجن، آية: ١٨.

الذي حرمه الله وذكر أنه لا يغفره؟! فإنه لا يدري فقل له كيف تبرئ نفسك من الشرك وأنت لا تعرفه أم كيف يحرم الله عليك هذا ويذكر أنه لا يغفره ولا تسأل عنه ولا تعرفه؟ أتظن أن الله يحرمه ولا يبينه لنا؟!

فإن قال الشرك عبادة الأصنام ونحن لا نعبد الأصنام فقل وما معنى عبادة الأصنام؟ أتظن أنهم يعتقدون أن تلك الأخشاب والأحجار تخلق وترزق وتدبر أمر من دعاها فهذا يكذبه القرآن كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾(١) الآية. وإن قال هو من قصد خشبة أو حجرًا أو بنية على قبر أو غيره يدعون ذلك ويذبحون له ويقولون أنه يقربنا إلى الله زلفى ويدفع الله عنَّا ببركته فقل صدقت وهذا هو فعلكم عند الأحجار والبنايات التي على القبور وغيرها فهذا أقر أن فعلهم هذا هو عبادة الأصنام ويقال له أيضًا قولك الشرك عبادة الأصنام هل مرادك أن الشرك مخصوص بهذا وأن الاعتماد على الصالحين ودعاؤهم لا يدخل في ذلك؟ فهذا يرده ما ذكر الله جلّ وعلاّ في كتابه من كفر من تعلق على الملائكة وعيسى والصالحين فلابد أن يقر لك أن من أشرك في عبادة الله أحدًا من الصالحين فهو الشرك المذكور في القرآن وهو المطلوب.

وسر المسألة أنه إذا قال أنا لا أشرك بالله فقل له وما الشرك بالله فسره لي فإن قال هو عبادة الأصنام فقل وما معنى عبادة الأصنام فسرها لي فإن قال أنا لا أعبد إلا الله وحده فقل ما هى عبادة الله وحده فسرها لي فإن فسرها بما بينه القرآن فهو المطلوب وإن لم يعرف فكيف يدعي شيئًا هو لا يعرفه وإن فسر ذلك بغير معناه بينت له الآيات الواضحات في معنى الشرك بالله وعبادة الأوثان وأنه الذي يفعلونه في هذا الزمان بعينه وأن عبادة الله وحده لا شريك له هى التي ينكرون علينا ويصيحون كما صاح إخوانهم حيث قالوا: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾(٢).

---

(١) يونس، آية: ٣١.
(٢) ص، اية: ٥.

فإن عرفت أن الذي يسميه المشركون في زماننا هذا "الاعتقاد" هو الشرك الذي أنزل فيه القرآن وقاتل رسول الله ﷺ الناس عليه فاعلم أن شرك الأولين أخف من شرك أهل زماننا بأمرين:

أحدهما: أن الأولين لا يشركون ولا يدعون الملائكة والأولياء والأوثان مع الله إلا في الرخاء وأما في الشدة فيخلصون لله الدين كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمْ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُورًا﴾(١)، وقوله ﷻ: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمْ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِين ۞ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾(٢)، وقوله جلَّ وعلا: ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ إلى قوله: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾(٣)، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾(٤). فمن فهم هذه المسألة التي وضحها الله في كتابه وهي أن المشركين الذين قاتلهم رسول الله ﷺ يدعون الله ويدعون غيره في الرخاء وأما في الضر والشدة فلا يدعون إلا الله وحده لا شريك له وينسون ساداتهم تبين له الفرق بين شرك أهل زماننا وشرك الأولين ولكن أين من يفهم قلبه هذه المسألة فهمًا راسخًا والله المستعان.

الأمر الثاني: أن المشركين الأولين يدعون مع الله أناسًا مقربين عند الله إمَّا أنبياء وإما أولياء وإما ملائكة أو يدعون أشجارًا أو أحجارًا مطيعة لله ليست عاصية، وأهل زماننا يدعون مع الله أناسًا من أفسق الناس والذين يدعونهم هم الذين يحكون عنهم الفجور من الزنا والسرقة وترك الصلاة وغير ذلك والذي يعتقد في الصالح والذي لا يعصي مثل الخشب والحجر

---

(١) الإسراء، آية: ٦٧.
(٢) الأنعام، الآيتان: ٤٠-٤١.
(٣) الزمر، آية: ٨.
(٤) لقمان، آية: ٣٢.

أهون ممن يعتقد فيمن يشاهد فسقه وفساده ويشهد به فإذا تحققت أن الـذين قاتلهم الرسول ﷺ أصح عقولاً وأخف شركًا من هؤلاء فاعلم أن لهـؤلاء شبهة يوردونها على ما ذكرنا وهي من أعظم شبههم فاصغ سمعك لجوابها وهي أنهم يقولون إنَّ الذين نزل فيهم القرآن لا يشهدون أن لا إلـه إلا الله ويكذبون الرسول وينكرون البعث ويكذبون القرآن ويجعلونه سحرًا ونحن نشهد أنه لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله ونـصدق بـالقرآن ونـؤمن بالبعث ونصلي ونصوم فكيف تجعلوننا مثل أولئك؟

فالجواب: أنه لا خلاف بين العلماء كلهم أن الرجل إذا صدق رسول الله ﷺ في شيء وكذبه في شيء أنه كافر لم يدخل في الإسلام وكـذلك إذا آمن ببعض القرآن وجحد بعضه كمن أقر بالتوحيد وجحد وجوب الـصلاة أو أقر بالتوحيد والصلاة وجحد وجوب الزكاة أو أقر بهـذا كلـه وجحـد الصوم، أو أقر بهذا كله وجحد الحج ولما لم ينقد أناس في زمن النبـيّ ﷺ للحج أنزل الله في حقهم: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْـتَطَاعَ إِلَيْـهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْ الْعَالَمِينَ﴾[1] ومن أقر بهذا كله وجحـد البعث كفر بالإجماع وأحل دمه وماله كما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُـؤْمِنُ بِـبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً ۞ أُوْلَئِكَ هُمْ الْكَـافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾[2]. فإذا كان الله قد صرح في كتابـه أن من آمن ببعض وكفر ببعض فهو الكافر حقًا زالت هذه الشبهة وهذه هـي التي ذكرها بعض أهل الإحساء في كتابه الذي أرسله إلينا ويقال إذا كنـت تقر أن من صدق الرسول في كل شيء وجحد وجوب الصلاة فهو كـافر حلال الدم بالإجماع وكذلك إذا أقر بكل شيء إلا البعث وكـذلك إذا جحـد

(١) آل عمران، آية: ٩٧.
(٢) النساء، الآيتان: ١٥٠-١٥١.

وجوب صوم رمضان وصدق بهذا كله لا يجحد هذا ولا تختلف المذاهب فيه وقد نطق به القرآن كما قدمنا فمعلوم أن التوحيد هو أعظم فريضة جاء بها النبيُّ ﷺ وهو أعظم فريضة من الصلاة والزكاة والصوم والحج فكيف إذا جحد الإنسان شيئًا من هذه الأمور كفر ولو عمل بكل ما جاء به الرسول ﷺ وإذا جحد التوحيد الذي هو دين الرسل كلهم لا يكفر سبحان الله ما أعجب هذا الجهل، ويقال أيضًا هؤلاء أصحاب رسول الله ﷺ قاتلوا بني حنيفة وقد أسلموا مع النبيّ ﷺ وهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ويؤذنون ويصلون فإن قال أنهم يقولون أن مسيلمة نبي قلنا هذا هو المطلوب إذا كان من رفع رجلاً إلى رتبة نبي الله ﷺ كفر وأحل دمه وماله ولم تنفعه الشهادتان ولا الصلاة فكيف بمن رفع شمسان أو يوسف أو صحابيًا أو نبيًا في مرتبة جبَّار السماوات والأرض؟ سبحان الله ما أعظم شأنه.﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[(١)]. ويقال أيضًا الذين حرقهم على بن أبي طالب بالنار كلهم يدعون الإسلام وهم من أصحاب على وتعلموا العلم من الصحابة ولكن اعتقدوا في على مثل الاعتقاد في يوسف وشمسان وأمثالهما فكيف أجمع الصحابة على قتلهم وكفرهم أتظنون أن الصحابة يكفرون المسلمين؟ أم تظنون الاعتقاد في تاج وأمثاله لا يضر والاعتقاد في علىّ بن أبي طالب يُكَفِّر؟. ويقال أيضًا: بنو عبيد القدَّاح الذين ملكوا المغرب ومصر في زمان بني العباس كلهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ويدعون الإسلام ويصلون الجمعة والجماعة فلما أظهروا مخالفة الشريعة في أشياء دون ما نحن فيه أجمع العلماء على كفرهم وقتالهم وأن بلادهم بلاد حرب وغزاهم المسلمون حتى استنقذوا ما بأيديهم من بلدان المسلمين. ويقال أيضًا إذا كان الأولون لم يكفروا إلا لأنهم جمعوا بين الشرك وتكذيب

---

(١) الروم، اية: ٥٩.

الرسول والقرآن وإنكار البعث وغير ذلك فما معنى البــاب الــذي ذكــر العلماء في كل مذهب "باب حكم المرتد" وهو المسلم الــذي يكفــر بعــد إسلامه. ثم ذكروا أنواعًا كثيرة كل نوع منها يُكَفِّر ويحل دم الرجل وماله حتى أنهم ذكروا أشياء يسيرة عند من فعلها مثل كلمة يذكرها بلسانه دون قلبه أو كلمة يذكرها على وجه المزاح واللعب ويقال أيضًا الذين قــال الله فيهم:﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ﴾(١). أما سمعت أن الله كفَّرهم بكلمة مع كونهم في زمن رسول الله ﷺ يجاهدون معه ويصلون معه ويزكون ويحجون ويوحدون وكذلك الذين قال الله فيهم: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ۞ لاَ تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَــرْتُمْ بَعْـدَ إِيمَانِكُمْ﴾(٢) فهؤلاء الذين صرح الله أنهم كفروا بعد إيمانهم وهم مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك قالوا كلمة ذكروا أنهم قالوها علــى وجــه المــزح فتأمل هذه الشبهة وهي قولهم تكفرون المسلمين أناسًا يشهدون أن لا إله إلا الله ويصلون ويصومون ثم تأمل جوابها فإنه مــن أنفــع مــا فــي هــذه الأوراق(٣). ومن الدليل على ذلك أيضًا ما حكى الله عزَّ وجل عــن بنــي إسرائيل مع إسلامهم وعلمهم وصلاحهم أنهم قالوا لموسى: ﴿اجْعَل لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾(٤) وقول أناس من الصحابة رضوان الله عليهم «اجعل لنــا ذات أنواط» فحلف ﷺ أن هذا نظير قول بني إسرائيل: ﴿اجْعَل لَنَا إِلَهًــا﴾ ولكن للمشركين شبهة يدلون بها عند هذه القصة وهي أنهم يقولون أن بني إسرائيل لم يكفروا وكذلك الذين قالوا «اجعل لنا ذات أنواط» لم يكفــروا. فالجواب: أن نقول أن بني إسرائيل لم يفعلوا ذلك وكذلك الذين سألوا النبيّ ﷺ لم يفعلوا ولا خلاف أن بني إسرائيل لم يفعلوا ذلك ولــو فعلــوا ذلــك

(١) التوبة، آية: ٧٤.
(٢) التوبة، الآيتان: ٦٥-٦٦.
(٣) حقًا رحمك الله رحمة واسعة.
(٤) الأعراف، آية: ١٣٨.

لكفروا وكذلك لا خلاف في أن الذين نهاهم النبيّ ﷺ لو لم يطيعوه واتخذوا ذات أنواط بعد نهيه لكفروا وهذا هو المطلوب ولكن هذه القصة تفيد أن المسلم بل العالم قد يقع في أنواع من الشرك لا يدري عنها فتفيد التعلم والتحرز ومعرفة أن قول الجاهل "التوحيد فهمناه" أن هذا من أكبر الجهل ومكايد الشيطان وتفيد أيضًا أن المسلم المجتهد إذا تكلم بكلام كفر وهو لا يدري فنبه على ذلك فتاب من ساعته أنه لا يكفر كما فعل بنو إسرائيل والذين سألوا النبيّ ﷺ وتفيد أيضًا أنه لو لم يكفر فإنه يغلظ عليه الكلام تغليظًا شديدًا كما فعل رسول الله ﷺ.

وللمشركين شبهة أخرى يقولون أن النبيّ ﷺ أنكر على أسامة قتل من قال لا إله إلا الله وقال له: «أقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله» وكذلك قوله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله» وأحاديث أخري في الكف عمن قالها ومراد هؤلاء الجهلة أن من قالها لا يكفر ولا يقتل ولو فعل ما فعل فيقال لهؤلاء المشركين الجهَّال معلوم أن رسول الله ﷺ قاتل اليهود وسباهم وهم يقولون لا إله إلا الله وأن أصحاب رسول الله ﷺ قاتلوا بني حنيفة وهم يشهدون أنه لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول ويصلون ويدعون الإسلام وكذلك الذين حرَّقهم على بن أبي طالب رضي الله عنه بالنار وهؤلاء الجهلة مقرون أن من أنكر البعث كفر وقتل ولو قال لا إله إلا الله وأن من جحد شيئًا من أركان الإسلام كفر وقتل ولو قالها فكيف لا تنفعه إذا جحد فرعًا من الفروع وتنفعه إذا جحد التوحيد الذي هو أساس دين الإسلام ورأسه ولكن أعداء الله ما فهموا معنى الأحاديث. فأما حديث أسامة فإنه قتل رجلاً ادعى الإسلام بسبب أنه ظنَّ أنه ما ادعى الإسلام إلا خوفًا على دمه وماله والرجل إذا أظهر الإسلام وجب الكفّ عنه حتى يتبين منه ما يخالف ذلك وأنزل الله تعالى في ذلك: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا

ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا﴾[1] أي فتثبتوا فالآية تدل على أنه يجب الكف عنه والتثبت فإذا تبين منهم بعد ذلك ما يخالف الإسلام قتل لقوله تعالى: ﴿ فَتَبَيَّنُوا﴾ ولو كان لا يقتل إذا قالها لم يكن للتثبت معنى وكذلك الحديث الآخر وأمثاله معناه ما ذكرناه وأن من أظهر التوحيد والإسلام وجب الكف عنه إلا أن يتبين منه ما يناقض ذلك والدليل على هذا أن رسول الله ﷺ وهو الذي قال: «أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله»، وقال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله» هو الذي قال في الخوارج «أينما لقيتموهم فاقتلوهم لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد» مع كونهم من أكثر الناس عبادة وتهليلاً وتسبيحًا حتى أن الصحابة يحقرون أنفسهم عندهم وتعلموا العلم من الصحابة فلم تنفعهم لا إله إلا الله ولا كثرة العبادة ولا ادعاء الإسلام لما ظهر منهم مخالفة الشريعة وكذلك ما ذكرناه من قتال اليهود وقتال الصحابة بني حنيفة وكذلك أراد النبيُّ ﷺ أن يغزو بني المصطلق لما أخبره رجلٌ أنهم منعوا الزكاة حتى نزل قول الله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾[2] وكان الرجل كاذبًا عليهم فكل هذا يدل على أن مراد النبيّ ﷺ في الأحاديث التي احتجوا بها ما ذكرناه.

ولهم شبهة أخرى وهي ما ذكر النبيُّ ﷺ أن الناس يوم القيامة يستغيثون بآدم ثم بنوح ثم بإبراهيم ثم بموسى ثم بعيسى صلوات الله وسلامه عليهم فكلهم يعتذر حتى ينتهوا إلى رسول الله ﷺ قالوا: فهذا يدل على أن الاستغاثة بغير الله ليست شركًا. فالجواب: أن نقول سبحان من طبع على قلوب أعدائه فإن الاستغاثة بالمخلوق فيما يقدر عليه لا

---

(١) النساء، آية: ٩٤.

(٢) الحجرات، آية: ٦

ننكرها كما قال تعالى في قصة موسى: ﴿ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ وكما يستغيث الإنسان بأصحابه في الحرب وغيرها من الأشياء يقدر عليها المخلوق ونحن أنكرنا استغاثة العبادة التي يفعلونها عند قبور الأولياء أو في غيبتهم في الأشياء التي لا يقدر عليها إلا الله إذا ثبت ذلك فاستغاثتهم بالأنبياء يوم القيامة يريدون منهم أن يدعوا الله أن يحاسب الناس حتى يستريح أهل الجنة من كرب الموقف وهذا جائز في الدنيا والآخرة وذلك أن تأتي عند رجل صالح حي يجالسك ويسمع كلامك وتقول له ادع الله لي كما كان أصحاب رسول الله ﷺ يسألونه ذلك في حياته أما بعد موته فحاشا وكلا أنهم سألوا ذلك عند قبره بل قد أنكر السلف على من قصد دعاء الله عند قبره فكيف بدعاءه نفسه.

ثم يقول الشيخ: ولنختم الكلام بمسألة عظيمة مهمة جدًا تفهم مما تقدم ولكن نفرد لها الكلام لعظم شأنها ولكثرة الغلط فيها فنقول لا خلاف أن التوحيد لابد أن يكون بالقلب واللسان والعمل فإن أختلَّ شيء من هذا لم يكن الرجل مسلمًا فإن عرف التوحيد ولم يعمل به فهو كافر معاند ككفر فرعون وإبليس وأمثالهما وهذا يغلط فيه كثير من الناس يقولون إن هذا حق ونحن نفهم هذا ونشهد أنه حق لكن لا نقدر أن نفعله ولا يجوز عند أهل بلدنا إلا من وافقهم وغير ذلك من الأعذار ولم يدر المسكين أن غالب أئمة الكفر يعرفون الحق ولم يتركوه إلا لشيء من الأعذار كما قال الله تعالى: ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾(١) إلى غير ذلك من الآيات كقوله ﷻ: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾(٢). فإن عمل بالتوحيد عملاً ظاهرًا وهو لا يفهمه ولا يعتقده بقلبه فهو منافق وهو شرٌّ من الكافر الخالص ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ

---

(١) التوبة، آية: ٩.

(٢) البقرة، آية: ١٤٦.

فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنْ النَّارِ﴾(١) وهذه المسألة مسألة طويلة يتبين لك إذا تبينتها في ألسنة الناس تري من يعرف الحق ويترك العمل به لخوف نقص دنيا أو جاه أو مداراة لأحد وترى من يعمل به ظاهرًا لا باطنًا فإذا سألته عما يعتقد بقلبه فإذا هو لا يعرفه ولكن عليك بفهم آيتين من كتاب الله أولهما ﴿لاَ تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾(٢) فإذا تحققت أن بعض الصحابة الذين غزوا الروم مع رسول الله ﷺ كفروا بسبب كلمة قالوها على وجه اللعب والمزح تبين لك أن الذي يتكلم بالكفر ويعمل به خوفًا من نقص مال أو جاه أو مداراة لأحد أعظم ممن يتكلم بكلمة يمزح بها.

الآية الثانية قوله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنْ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ﴾(٣) الآية. فلم يعذر الله من هؤلاء إلا من أكره مع كون قلبه مطمئنًا بالإيمان وأما غير هذا فقد كفر بعد إيمانه سواء فعله خوفًا أو مداراة أو مشحة بوطنه أو أهله أو عشيرته أو ماله أو فعله على وجه المزح أو لغير ذلك من الأغراض إلا المكره والآية تدل على هذا من وجهين:

الأول: قوله تعالى: ﴿إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ﴾ فلم يستثني الله إلا المكره ومعلوم أن الإنسان لا يكره إلا على الكلام أو الفعل وأما عقيدة القلب فلا يكره عليها أحد.

والثاني: قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ﴾ فصرح أن هذا الكفر والعذاب لم يكن بسبب الاعتقاد أو الجهل أو البغض للدين أو محبة الكفر وإنما سببه أن له في ذلك حظًا من حظوظ الدنيا فآثره على الدين والله سبحانه وتعالى أعلم وأعزّ وأكرم وصلي الله على نبينا محمد ﷺ». أهـ.

---

(١) النساء، آية: ١٤٥.
(٢) التوبة، آية: ٦٦.
(٣) النحل، الآيتان: ١٠٦-١٠٧.

ونخلص من هذا:

١- أن الرجل لا يكون مسلمًا إلا بالتوحيد.

٢- التوحيد يكون بالقلب واللسان والعمل فإن اختل شيء من هذا لم يكن الرجل مسلمًا.

٣- التوحيد لا يتحقق إلا بترك الشرك أي أن التوحيد إتيان وترك، إثبات ونفي، قول وعمل، ظاهر وباطن، جملة وتفصيلات.

٤- التوحيد لا يتحقق مع الوقوع في مفردات الشرك والكفر ولا يكفي فيه مجرد الالتزام عن الفعل والترك ولا يغني فيه الإجمال عن التفصيل ولا الإقرار والبراءة عن الفعل والترك أمَّا ما يقال عن البراءة الإجمالية والإقرار الإجمالى وعقد الإسلام فليس له صورة تتمثل من خلاله إلا التلفظ والانتساب وادعاء الإسلام والتبرؤ من الشرك وهذا كله لا يعتبر شيئًا ولا ينفع صاحبه بشيء مع الوقوع في مفردات الشرك كما وضح بجلاء من هذا النقل فالمشرك مشرك ما دام أتي بحقيقة الشرك ولا فرق في ذلك بين بدء واستمرار، فالمسلم لا يكون مسلمًا في الحقيقة ونفس الأمر إلا بترك الشرك فالنفي سابق على الإثبات سبقًا معنويًا وإلا فهما متلازمان ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾(١) ولا يكفي في ذلك براءة إجمالية بل لابد من ترك الشرك جملة وتفصيلاً لا فرق في ذلك بين بدء واستمرار ومن مات يشرك بالله شيئًا دخل النار ولم يخرج منها ومن مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة خالدًا فيها في أي وقت كان موته لا فرق بين بدء واستمرار هذا هو معنى قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾(٢) أي أن يحافظ المسلم على

---

(١) البقرة، آية: ٢٥٦.

(٢) آل عمران، آية: ١٠٢.

توحيده في كل لحظة فإنه لا يدري متي يموت والمسلم لا يكون مسلمًا إلا بترك الشرك جملة وتفصيلاً تركه كله حتى يكون دينه كله لله وإلا كان مشركًا إذا كان بعض دينه لله وبعضه لغير الله لا يصلح أن يترك بعضه ويقع في بعضه في البدء ثم التخلص منه شيئًا فشيئًا في الاستمرار حتى يأتي وقت يتركه كله فإنه يبقى مشركًا غير مسلم طالما هو يشرك بالله شيئًا ولو مات على ذلك مات غير مسلم ولم يحدث أبدًا أن أقر رسول الله ﷺ أو أحد الصحابة الناس على أن يلتزموا فقط بترك الشرك ويتركوا منه ما يقدرون عليه ثم يتركونه بعد ذلك شيئًا فشيئًا تباعًا عبادة بعد عبادة ونوعًا بعد نوع فهذا فضلاً على أنه لم يقع فإنه لا ينضبط أبدًا إلا بإقرار مفردات الشرك كمفردات المعاصي مع الالتزام العام بتركها وهو تسوية للتوحيد بالطاعات وللشرك بالمعاصي بلا فرق ومعناه جحد الشرك أو وضعه في معنى التلفظ والانتساب لإثبات لفظه ونفي معناه. ومعناه إقرار أن المسلم يسلم بغير التوحيد ولا يكفر بالشرك وهو تكذيب لصريح القرآن ولا حول ولا قوة إلا بالله.

٢- **ويقول شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب**(١) بعد أن يذكر الشيخ تكفير المعين لوقوعه في شرك العبادة أو وقوعه في مفردات الشرك والكفر عمومًا يقول: «وتمام الكلام هنا في مسئلتين، **الأولي:** أن يقال هذا الذي يفعله كثير من العوام عند قبور الصالحين ومع كثير من الأحياء والأموات والجن من التوجه إليهم ودعائهم لكشف الضرّ والنذر لهم لأجل ذلك هل هو الشرك الأكبر الذي فعله قوم نوح ومن بعدهم إلى أن انتهي الأمر إلى قوم خاتم الرسل قريش وغيرهم فبعث الله الرسل وأنزل الكتب ينكر عليهم ذلك ويكفرهم ويأمر بقتالهم حتى يكون الدين كله لله ؟ أم هذا شرك أصغر وشرك المتقدمين غير هذا؟

(١) مفيد المستفيد في كفر تارك التوحيد، من كتاب عقيدة الموحدين، ص ٦٧ وما بعدها.

فاعلم أن الكلام في هذه المسألة سهلٌ على مَنْ يسَّرَهُ الله عليه بسبب أن علماء المشركين يقرون بأنه الشرك الأكبر ولا ينكرونه إلا ما كان من مسيلمة الكذاب وأصحابه كابن إسماعيل وابن خالد مع تناقضهم في ذلك واضطرابهم فأكثر أحوالهم يقرون أنه الشرك الأكبر ولكن يعتذرون بأن أهله لم تبلغهم الدعوة وتارة يقولون لا يكفر إلا من كان في زمن النبيّ ﷺ وتارة يقولون أنه شرك أصغر وينسبونه لابن القيم في المدارج كما تقدم وتارة لا يذكرون شيئًا من ذلك بل يعظمون أهله وطريقتهم في الجملة وأنهم خير أمة أخرجت للناس وأنهم العلماء الذين يجب رد الأمر إليهم عند التنازع وغير ذلك من الأقاويل المضطربة وجواب هؤلاء كثير في الكتاب والسنة والإجماع وما يجاوبون به أصرح إقرارهم في غالب الأوقات أن هذا هو الشرك الأكبر وأيضًا إقرار غيرهم من علماء الأقطار مع أن أكثرهم قد دخل في الشرك وجاهد أهل التوحيد ولكن لم يجدوا بدًا من الإقرار به لوضوحه.

المسألة الثانية: الإقرار بأن هذا هو الشرك الأكبر ولكن لا يكفر به إلا من أنكر الإسلام جملة وكذَّب الرسولَ والقرآن واتبع يهودية أو نصرانية أو غيرهما.

وهذا هو الذي يجادل به أهل الشرك والعناد في هذه الأوقات وإلا المسألة الأولي قلَّ فيها الجدال ولله الحمد لما وقع من إقرار علماء المشركين بها فاعلم أن تصور هذه المسألة تصورًا حسنًا يكفي في إبطالها من غير دليل خاص لوجهين:

الوجه الأول: أن مقتضى قولهم أن الشرك بالله وعبادة الأصنام لا تأثير لها في التكفير لأن الإنسان إن انتقل عن الملة إلى غيرها وكذَّب الرسول والقرآن فهو كافر وإن لم يعبد الأوثان كاليهود فإذا كان من انتسب إلى الإسلام

لا يكفر إذا أشرك الشرك الأكبر لأنه مسلم بقوله لا إله إلا الله ويصلي ويفعل كذا وكذا لم يكن للشرك وعبادة الأوثان تأثير بل يكون ذلك كالسواد في الخلقة أو العمي أو العرج فإن كان صاحبها يدَّعي الإسلام فهو مسلم وإن ادعى ملة غيرها فهو كافر وهذه فضيحة عظيمة كافية في رد هذا القول الفظيع.

الوجه الثاني: أن معصية الرسول في الشرك وعبادة الأوثان بعد بلوغ العلم كفر صريح بالفطر والعقول والعلوم الضرورية فلا يتصور أنك تقول لرجل ولو هو من أجهل الناس وأبلدهم ما تقول فيمن عصى الرسول ﷺ ولم ينقد له في ترك عبادة الأوثان والشرك مع أنه يدعي أنه مسلم إلا ويبادر بالفطرة الضرورية إلى القول بأن هذا كافر من غير نظر في الأدلة أو سؤال أحد من العلماء ولكن لغلبة الجهل وغرابة العلم وكثرة من يتكلم في هذه المسألة من الملحدين اشتبه الأمر فيها على بعض العوام من المسلمين الذين يحبون الحق فلا تحقرها وامعن النظر في الأدلة التفصيلية لعل الله أن يمن عليك بالإيمان الثابت ويجعلك من الأئمة الذين يهدون بأمره فمن أحسن ما يزيل الإشكال فيها ويزيد المؤمن يقيناً ما جرى من النبيّ ﷺ وأصحابه والعلماء بعدهم فيمن انتسب إلى الإسلام كما ذكر أنه ﷺ بعث البراء ومعه الراية إلى رجل تزوج امرأة أبيه يقتله ويأخذ ماله. ومثل همه بغزو بني المصطلق لما قيل أنهم منعوا الزكاة ومثل قتال الصديق وأصحابه لمانعي الزكاة وسبي ذراريهم وغنيمة أموالهم وتسميتهم مرتدين ومثل إجماع الصحابة في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه على تكفير قدامة بن مظعون وأصحابه إن لم يتوبوا لما فهموا من قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا﴾[1] حلِّ الخمر لبعض الخواص ومثل إجماع الصحابة في زمن عثمان في تكفير أهل المسجد الذين ذكروا كلمة في نبوة مسيلمة مع أنهم لم

---

(١) المائدة، آية: ٩٣.

يتبعوه وإنما اختلف الصحابة في قبول توبتهم ومثل تحريق علي ﷺ أصحابه لما غلوا فيه ومثل إجماع التابعين مع بعض الصحابة على كفر المختار بن أبي عبيد ومن اتبعه مع أنه يدعي أنه يطلب بدم الحسين وأهل البيت ومثل إجماع التابعين ومن بعدهم على قتل الجعد بن درهم وهو مشهور بالعلم والدين وهلم جرا من وقائع لا تعد ولا تحصى، ولم يقل أحد من الأولين والآخرين لأبي بكر الصديق وغيره كيف تقاتل بني حنيفة وهم يقولون لا إله إلا الله ويصلون ويزكون وكذلك لم يستشكل أحد في تكفير قدامة وأصحابه لو لم يتوبوا وهلم جرا إلى زمن بني عبيد القداح الذين ملكوا المغرب ومصر والشام، وغيرها مع تظاهرهم بالإسلام وصلاة الجمعة والجماعة ونصب القضاة والمفتين لما أظهروا من الأقوال والأفعال ما أظهروا لم يستشكل أحد من أهل العلم والدين قتالهم ولم يتوقفوا فيه وهم في زمن ابن الجوزى والموفق ابن قدامة وصنَّف ابن الجوزى كتابًا لما أخذت مصر منهم سماه "النصر على فتح مصر" ولم يسمع أحد من الأولين والآخرين أن أحدًا أنكر شيئًا من ذلك أو استشكل لأجل ادعائهم الملة أو لأجل قول لا إله إلا الله أو لأجل إظهار شيء من أركان الإسلام إلا ما سمعناه من هؤلاء الملاعين في هذه الأزمان مع إقرارهم أن هذا هو الشرك الأكبر ولكن من فعله أو حسَّنه أو كان مع أهله أو ذمّ التوحيد أو حارب أهله لأجله وأبغضهم لأجله أنه لا يكفر لأنه يقول لا إله إلا الله أو لأنه يؤدي أركان الإسلام الخمسة ويستدلون بأن النبيّ ﷺ سماها الإسلام؟ هذا لم يسمع قط إلا من هولاء الملحدين الجاهلين الظالمين فإن ظفروا بحرف واحد من أهل العلم أو أحد منهم يستدلون به على قولهم الفاحش الأحمق فليذكروه لكن الأمر كما قال اليمني في قصيدته:

أقاويل لا تعزي إلى عالم فلا تساوي فلسًا إن رجعت إلى نقد.

انتهى كلام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب.

تعليـــق:

هذا هو أصل القول أن مفردات الشرك الأكبر لا يكفر مرتكبها إذا كان معه التلفظ أو الانتساب أو البراءة الإجمالية أو الإقرار الإجمالى أو عقد الإسلام، من هنا نعرف من أين جاء هذا القول اللعين وأن الإنسان لا يكفر بمفردات الشرك الأكبر لذاتها وإنما لدلالتها على نقـض هـذه الأمور التي تعطي حصانة من الخروج من الملة بـرغم الوقـوع فـي مفردات الشرك والكفر الأكبرين.

٣- وفي كتاب "مفيد المستفيد في كفر تـارك التوحيـد" وكتـاب "الكلمات النافعة في المكفرات الواقعة" للشيخ محمد بن عبد الوهاب وابنه الشيخ عبد الله يقدمان نقولاً عن شيخ الإسلام ابن تيمية وغيـره تفيـد أن التلفظ أو الانتساب أو البراءة الإجمالية أو الإقرار الإجمالي أو أداء الكثير من فرائض الإسلام لا تعطي حصانة من الخروج مـن الملـة إذا وقـع الإنسان في أحد مفردات الشرك أو الكفر الأكبر ومن هذه النقول.

- **جاء في الكتابين:**

(أ) وقال الشيخ تقي الدين في "الرسالة السنية" لما ذكر حديث الخـوارج ومروقهم عن الدين وأمره ﷺ بقتالهم قال(١): «فإذا كان على عهد رسـول الله ﷺ وخلفائه ممن انتسب للإسلام مَنْ مرق منه مع عبادته العظيمة حتى أمر رسول الله ﷺ بقتالهم فيعلم أن المنتسب للإسلام والسنة قد يمرق أيضًا من الإسلام في هذا الزمان، بأسباب منها الغلو الذي ذمه الله تعـالى فـي كتابه حيث قال: ﴿قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾(٢) وعليٌّ ابن أبي طالب حرَّق الغالين من الرافضة فأمر بأخاديد خدت لهم عند باب

---

(١) مفيد المستفيد في كفر تارك التوحيد من كتاب عقيدة الموحدين، ص ٥٥.

(٢) المائدة، آية: ٧٧.

كندة فقذفهم فيها واتفق الصحابة على قتلهم لكن ابن عباس كان مذهبه أن يقتلوا بالسيف بلا تحريق وهو قول أكثر العلماء وقصتهم معروفة عند العلماء وكذلك الغلو في بعض المشايخ. بل الغلو في على بن أبي طالب بل الغلو في المسيح ونحوه فكل من غلا في نبيٍّ أو رجل صالح وجعل فيه نوعًا من الإلهية مثل أن يقول يا سيدي فلان انصرني أو أغثني أو ارزقني أو اجبرني أو أنا في حسبك ونحو هذه الأقوال فكل هذا شرك وضلال يستتاب صاحبه فإن تاب وإلا قتل فإن الله سبحانه إنما أرسل الرسل وأنزل الكتب ليعبد وحده لا شريك له لا يجعل معه إله آخر والذين يجعلون مع الله آلهة أخري مثل المسيح والملائكة والأصنام لم يكونوا معتقدين أنها تخلق الخلائق أو تنزل المطر أو تنبت النبات وإنما كانوا يعبدونهم أو يعبدون قبورهم أو صورهم ويقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ (١)، ويقولون: ﴿هَؤُلاَءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ (٢). فبعث الله رسوله ﷺ ينهي أن يدعي أحدٌ من دونه لا دعاء عبادة ولا دعاء استغاثة قال تعالى: ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً﴾ (٣) الآية. قالت طائفة من السلف كان أقوام يدعون المسيح والملائكة وعزيرًا ثم ذكر رحمه الله تعالى آيات ثم قال: وعبادة الله وحده لا شريك له هى أصل الدين وهي التوحيد الذي بعث الله به الرسل ونزلت به الكتب قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنْ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾(٤)، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (٥) وكان ﷺ يحقق التوحيد ويعلمه أمته حتى قال له رجل: ما شاء الله وشئت. قال عليه السلام: «أجعلتنى لله ندًا بل

(١) الزمر، آية: ٣ .
(٢) يونس، آية: ١٨.
(٣) الإسراء، آية: ٥٦.
(٤) النحل، آية: ٣٦.
(٥) الأنبياء، آية: ٢٥.

ما شاء الله وحده» ونهى عن الحلف بغير الله وقال: «مَنْ حَلَفَ بغير الله فقدْ كَفَرَ أو أشْرَكَ» وقال في مرض موته «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» يحذر ما صنعوا وقال: «اللهم لا تجعلْ قبرِي وثنًا يُعبَد»، وقال: «لا تتَّخِذوا قَبرِي عِيدًا ولا بيوتَكُم قبورًا وصلُّوا على حيثُمَا كنتُم فإنَّ صلاتَكُم تبلغُنِي» ولهذا اتفق أئمة الإسلام على أنه لا يشرع بناء المساجد على القبور ولا الصلاة عندها وذلك لأن من أكبر أسباب عبادة الأوثان هو تعظيم القبور ولهذا اتفق العلماء على أنه من سلم على النبيّ ﷺ عند قبره أنه لا يتمسح بحجرته ولا يقبلها لأنه إنما يكون ذلك لأركان البيت فلا يشبه بيت المخلوق بيت الخالق، كل هذا لتحقيق التوحيد الذي هو أصل الدين ورأسه الذي لا يقبل الله عملاً إلا به ويغفر لصاحبه ولا يغفر لمن تركه قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[1] الآية. ولهذا كانت كلمة التوحيد أفضل الكلام وأعظم آية في القرآن آية الكرسي ﴿اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾[2]، وقال «مَنْ كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة» والإله هو الذي تألهه القلوب عبادة له واستغاثة به ورجاء وخشية وإجلالاً». أهـ.

يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب: فتأمل أول الكلام وآخره وتأمل كلامه فيمن دعا نبيًا أو وليًا مثل أن يقول سيدي فلان أغثني ونحوه أنه يستتاب فإن تاب وإلا قتل هل يكون هذا إلا في المعين.

(ب) وجاء في الكتابين أيضًا[3]:

«وقال أبو العباس في كتاب "اقتضاء الصراط المستقيم" في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾[4] ظاهره أن ما ذُبِحَ لغير الله

---

(١) النساء، آية: ٤٨، ١١٦.
(٢) البقرة، آية: ٢٥٥.
(٣) مفيد المستفيد في كفر تارك التوحيد من كتاب عقيدة الموحدين، ص ٦٣.
(٤) المائدة، آية: ٣.

سواء لفظ به أو لم يلفظ حرام، وتحريم هذا أظهر من تحريم ما ذبح للحم وقال فيه باسم المسيح ونحوه، كما أن ما ذبحناه متقربين به إلى الله أزكي مما ذبحناه للحم وقلنا عليه باسم الله، فإن عبادة الله بالصلاة والنسك له أعظم من الاستعانة باسمه في فواتح الأمور، والعبادة لغير الله أعظم كفرًا من الاستعانة بغير الله. فلو ذبح لغير الله متقربًا إليه لحرم وإن قال فيه **باسم** الله كما قد يفعله طائفة من منافقى هذه الأمة وإن كان هؤلاء مرتدين لا تباح ذبائحهم بحال لكن يجتمع في الذبيحة مانعان ومن هذا ما يفعل بمكة وغيرها من الذبح للجنِّ». أهـ.

وهذا الذي ينسب إليه أعداء الدين أنه لا يكفر المعين فانظر أرشدك الله إلى تكفيره من ذبح لغير الله من هذه الأمة وتصريحه أن المنافق يصير مرتدًا بذلك وهذا في المعين إذ لا يتصور أن تحرم إلا ذبيحة معين. انتهى كلام الشيخ محمد عبد الوهاب.

(ج) وجاء في الكتابين أيضًا[(١)]:

«وقال أبو العباس أيضًا في الكلام على كفر مانعي الزكاة: والصحابة لم يقولوا هل أنت مقر بوجوبها أو جاحد لها؟ هذا لم يعهد عن الخلفاء والصحابة بل قال الصديق لعمر ﷺ: والله لو منعوني عقالاً ـ أو عناقًا ـ كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه فجعل المبيح للقتال مجرد المنع لا جحد الوجوب. وقد روى أن طوائف منهم كانوا يقرون بالوجوب لكن بخلوا بها ومع هذا فسيرة الخلفاء مع جميعهم سيرة واحدة وهي قتل مقاتلتهم وسبي ذراريهم وغنيمة أموالهم والشهادة على قتلاهم بالنار وسموهم جميعًا أهل الردة وكان من أعظم فضائل الصديق عندهم أن ثبته الله على قتالهم ولم يتوقف كما توقف غيره فناظرهم حتى رجعوا

(١) مفيد المستفيد في كفر تارك التوحيد من كتاب عقيدة الموحدين، ص ٦٣

إلى قوله وأما قتال المقرين بنبوة مسيلمة فهؤلاء لم يقع بينهم نزاع في قتالهم. وهذه حجة من يقول إن قاتلوا الإمام عليها كفروا وإلا فلا فإن كفر هؤلاء وإدخالهم في أهل الردة قد ثبت باتفاق الصحابة المستند إلى نصوص الكتاب والسنة بخلاف مَنْ لم يقاتل الإمام عليها فإن في الصحيح عن النبيّ ﷺ أنه قيل له منع بن جميل. فقال: «ما ينقم بن جميل إلا أن كان فقيرًا فأغناه الله». فلم يأمره بقتاله ولا حكم بكفره.

وفي السنَّة من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده عن النبيّ ﷺ «ومن منعها فإنَّا آخذوها وشطر إبله» الحديث. انتهى كلام شيخ الإسلام ابن تيمية.

يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب فهذا الذي ينسب إليه أعداء الدين عدم تكفير المعين قال رحمه الله بعد ذلك: «وكفر هؤلاء وإدخالهم في أهل الردة قد ثبت باتفاق الصحابة المستند إلى نصوص الكتاب والسنَّة». أهـ.

ويقول الشيخ عبد الله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب عن كلام شيخ الإسلام ابن تيمية: فتأمل كلامه وتصريحه بأن الطائفة الممتنعة عن أداء الزكاة إلى الإمام أنهم يقاتلون ويحكم عليهم بالكفر والردة عن الإسلام وتسبي ذراريهم وتغنم أموالهم وإن أقروا بوجوب الزكاة وصلوا الصلوات الخمس وقبلوا جميع شرائع الإسلام غير أداء الزكاة وأن ذلك ليس بمسقط للقتال لهم والحكم عليهم بالكفر والردة وإن ذلك قد ثبت بالكتاب والسنة واتفاق الصحابة رضى الله عنهم». أهـ.

(د) وجاء في الكتابين أيضًا[1]:

«وقال الإمام أبو الوفا بن عقيل: لما صعبت التكاليف على الجهال والطغام عدلوا عن أوضاع الشرع إلى تعظيم أوضاع وضعوها لأنفسهم فسهلت عليهم إذ لم يدخلوا بها تحت أمر غيرهم وهم عندي

(١) مفيد المستفيد ، ص ٦٤.

كفار بهذه الأوضاع مثل تعظيم القبور وخطاب الموتي بالحوائج وكتب الرقاع فيها يا مولاي افعل لي كذا وكذا وإلقاء الخرقة على الشجر اقتداء بمن عبد اللات والعزى». انتهى.

يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب تعليقاً: «والمراد منه قوله: "وهم عندي كفار بهذه الأوضاع"». أهـ.

ويقول الشيخ عبد الله: «فتأمل قوله: "وهم عندي كفار بهذه الأوضاع" وتشبيهه إياهم بمن عبد اللات والعزى».

(هـ) وينقل أيضًا الشيخان عن شيخ الإسلام ابن تيمية ما جاء في كتاب "اقتضاء الصراط المستقيم" ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية: «وكانت الطواغيت التي تشد إليها الرحال ثلاثة "اللات والعزى ومناة" وكل واحد منها لمصر من أمصار العرب. إلى قوله: فأنكر ﷺ مجرد مشابهتهم للكفار في اتخاذ شجرة يعكفون عليها معلقين سلاحهم فكيف بما هو أطم من ذلك من الشرك بعينه. إلى أن قال: فمن ذلك أمكنة بدمشق مثل مسجد يقال له مسجد الكف يقال أنه كف على بن أبي طالب ﷺ حتى هدم الله ذلك الوثن وهذه الأمكنة كثيرة موجودة في البلاد وفي الحجاز منها مواضع». انتهى كلام شيخ الإسلام بن تيمية.

يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب: «وتأمل أيضًا ما ذكره في اللات والعزى ومناة وجعله فعل المشركين معها هو بعينه الذي يفعل بدمشق وغيرها».

ويقول الشيخ عبد الله: «فتأمل رحمك الله كلام هذا الإمام في اللات والعزي ومناة وجعله بعينه هذا الذي يفعل بدمشق وغيرها من البلاد من ذلك».

(و) وينقل الشيخان أيضًا كلام الإمام ابن القيم في "شرح كتاب المنازل" من الشركين الأكبر والأصغر مما يبين أن مرتكب الشرك الأكبر يكفر به ويخرج به من الملة كشأن الكفار الأصليين بلا فرق بين من كان مسلمًا فارتد بذلك وبين من يمارس ذلك وهو على أصل الكفر.

ويقول الشيخ عبد الله تعليقًا على ذلك: «فتأمل رحمك الله هذا الكلام وما فيه من التصريح بأن هذا الذي يفعل عند المشاهد والقباب التي على القبور في كثير من البلدان أنه هو الشرك الأكبر الذي فعله المشركون وأن كثيرًا منها غير اللات والعزى ومناة بل أعظم شركًا من شرك أهل اللات والعزي ومناة وتصريحه بأنهم فعلوا فعل المشركين واتبعوا سبيلهم حذو القذة بالقذة وغلب الشرك على أكثر النفوس لظهور الجهل وخفاء العلم». أهـ.

ويقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب[1]: «فهل بعد هذا البيان بيان إلا العناد بل الإلحاد ولكن تأمل قوله أرشدك الله "وما نجا من شرك هذا الشرك الأكبر إلا من عادي المشركين". وتأمل أن الإسلام لا يصلح إلا بمعاداة أهل الشرك الأكبر وإن لم يعاديهم فهو منهم وإن لم يفعله».
انتهى كلام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب.

ثم يذكر كلام الشيخ وابنه بعض أقوال المذاهب فيمن كفر بعد إسلامه نشير لبعض منها:

٤- يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب في نفس الكتاب[2]:

(أ) وقال ابن القيم في "إغاثة اللهفان" في إنكار تعظيم القبور: «وقد آل الأمر بهؤلاء المشركين أن صنَّف بعض غلاتهم في ذلك كتابًا سماه "مناسك المشاهد" ولا يخفى أن هذا مفارق لدين الإسلام ودخول في دين عبادة الأصنام». انتهى.

وهذا الذي ذكره ابن القيم رجل من المعينين يقال له بن المفيد فقد رأيت ما فيه بعينه فكيف تنكر تكفير المعين؟

---

(١) مفيد المستفيد، ص ٦١.

(٢) المصدر السابق، ص ٦٦.

(ب) وأما كلام سائر أتباع الأئمة في التكفير فنذكر منه قليلاً من كثير:

١- أما كلام الحنفية فكلامهم هذا من أغلظ الكلام حتى أنهم يكفرون المعين إذا قال مصيحف أو مسيجد أو صلى صلاة بلا وضوء ونحو ذلك وقال في "النهر الفائق": وعلم أن الشيخ قاسمًا قال في "شرح درر البحار": «إن النذر الذي يقع من أكثر العوام بأن يأتي إلى قبر بعض الصلحاء قائلاً يا سيدي فلان إن رُدَّ غائبى أو عوفي مريضي فلك من الذهب أو الفضة أو الشمع أو الزيت كذا باطل إجماعًا لوجوه. إلى أن قال: ظنَّ أن الميت يتصرف في الأمر واعتقاد هذا كفر. إلى أن قال: وقد ابتلي الناس بذلك ولاسيما في مولد الشيخ أحمد البدوي». أنتهي كلامه.

فانظر إلى تصريحه إن هذا كفر مع قوله أنه يقع من أكثر العوام وأن أهل العلم قد ابتلوا بما لا قدرة لهم على إزالته.

وقال القرطبي رحمه الله لما ذكر سماع النقر أو صوته قال: هذا حرام بالإجماع، وقد رأيت فتوى شيخ الإسلام جمال الملة أن مستحل هذا كافر ولما علم أن حرمته بالإجماع لزم أن يكفر مستحله فقد رأيت كلام القرطبي وكلام الشيخ الذي نقل عنه في كفر من استحل السماع والرقص مع كونه دون ما نحن فيه بالإجماع بكثير.

٢- وأما كلام المالكية في هذا فهو أكثر من أن يحصر وقد اشتهر عن فقهائهم سرعة الفتوى والقضاء بقتل الرجل عند الكلمة التي لا يفطن لها أكثر الناس وقد ذكر القاضي عياض في آخر "كتاب الشفاء" من ذلك طرفًا ومما ذكر أن من حلف بغير الله على وجه التعظيم كفر وكل هذا دون ما نحن فيه بما لا نسبة بينه وبينه.

٣- وأما كلام الشافعية فقال "صاحب الروضة" رحمه الله: «أن المسلم في الكلام إذا ذبح للنبيّ ﷺ كفر، وقال أيضًا: ومن شك في كفر

طائفة ابن عربي فهو كافر وكل هذا دون ما نحن فيه. وقال: ابن حجر في "شرح الأربعين" على حديث بن عباس «إذا سألت فاسأل الله» ما معناه أن من دعا غير الله فهو كافر وصنَّف في هذا النوع كتابًا مستقلاً سمَّاه "الإعلام بقواطع الإسلام" وذكر فيه أنواعًا كثيرة في الأقوال والأفعال كل واحد منها ذكر أنه يُخرج من الإسلام ويكفر به المعين وغالبه لا يساوي عشير معشار ما نحن فيه». أهـ.

٤- ويقول الشيخ في ختام كتابه نقلاً عن شيخ الإسلام ابن تيمية وتعليقًا عليه: «ومن جواب له رحمه الله لما سئل عن الحشيشة: أكل هذه الحشيشة حرام وهي أخبث الخبائث المحرمة سواء أكل منها كثيرًا أو قليلاً لكن الكثير المسكر منها حرام باتفاق المسلمين ومن استحل ذلك فهو كافر يستتاب فإن تاب وإلا قتل كافرًا مرتدًا لا يُغسَّل ولا يُصلي عليه ولا يدفن بين المسلمين، وحكم المرتد شر من حكم اليهود والنصارى سواء اعتقد أن ذلك يحل للعامة أو للخاصة الذين يزعمون أنها لقمة الفكر والذكر وأنها تحرك العزم الساكن وتنفع في الطريق وقد كان بعض السلف ظن أن الخمر يباح للخاصة متأولاً قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾[1] فاتفق عمر وعلى وغيرهما من علماء الصحابة على أنهم إن أقروا بالتحريم جلدوا وإن أصرُّوا على الاستحلال قتلوا». أهـ.

ما نقلته من كلام الشيخ رحمه الله يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب معلقًا: «فتأمل كلام هذا الذي ينسب عنه عدم تكفير المعين إذا جاهر بسبِّ دين الأنبياء وصار مع أهل الشرك ويزعم أنهم على الحق ويأمر بالمصير معهم وينكر على من لا يسب التوحيد ويدخل مع المشركين لأجل انتسابه للإسلام، انظر كيف كفر المعين ولو كان عابدًا

(١) المائدة، آية: ٩٣.

باستحلال الحشيشة ولو زعم حلها للخاصة الذين تعينهم على الفكرة واستدل بإجماع الصحابة على تكفير قدامة وأصحابه إن لم يتوبوا وكلامه في المعين وكلام الصحابة في المعين فكيف بما نحن فيه مما لا يساوي استحلال الحشيشة جزءًا من ألف جزء منه».

٥- **ويقول الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب في كتاب "الكلمات النافعة في المكفرات الواقعة"(١):**

«أما بعد فهذه فصول وكلمات نقلتها من كلام العلماء المجتهدين من أصحاب الأئمة الأربعة الذين هم أئمة أهل السنة والدين في بيان بعض الأفعال والأقوال المكفرة للمسلم المخرجة له من الدين وإن تلفَّظه بالشهادتين وانتسابه إلى الإسلام وعمله ببعض شرائع الدين لا يمنع من تكفيره وقتله وإلحاقه بالمرتدين والسبب الحامل على ذلك أن بعض من ينتسب إلى العلم والفقه من أهل هذا الزمان غلط في ذلك غلطًا فاحشًا قبيحًا، وأنكر على من أفتى به من أهل العلم والدين إنكارًا شنيعًا ولم يكن لهم بذلك من مستند صحيح لا من كلام الله ولا من كلام رسوله ولا من كلام أئمة العلم والدين.

إلى أن قال: واعلم أن هذه المسائل من أهم ما ينبغي للمؤمن الاعتناء به لئلا يقع في شيء منها وهو لا يشعر وليتبين له الإسلام والكفر حتى يتبين له الخطأ من الصواب ويكون على بصيرة من دين الله ولا يغتر بأهل الجهل والارتياب. إلى أن يقول: وقد اعتني العلماء رضى الله عنهم بذلك في كتبهم وبوَّبوا لذلك في كتب الفقه في كل مذهب من المذاهب الأربعة وهو "باب حكم المرتد" وهو المسلم الذي يكفر بعد إسلامه وذكروا أنواعًا كثيرة كل نوع منها يكفر به المسلم ويبيح دمه وماله. إلى أن يقول: ونبدأ بكلامهم في الشرك الأكبر وتكفيرهم لأهله حين وقع في زمانهم من بعض المنتسبين إلى الإسلام والسنة».

---

(١) كتاب عقيدة الموحدين، ص ٢٢٢.

(أ) أما كلام الشافعية:

١- فقال ابن حجر رحمه الله في كتاب "الزواجر عن اقتراف الكبائر": **الكبيرة الأولي:** الكفر أو الشرك أعاذنا الله منه، ولما كان الكفر أعظم الذنوب كان أحق أن يبسط الكلام عليه وعلى أحكامه قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾(٣)، وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر، الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وكان متكئًا فجلس فقال: ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور. فمازال يكررها حتي قلنا ليته سكت» ثم ذكر أحاديث كثيرة، ثم قال: "تنبيهات" منها بيان الشرك وذكر جملة من أنواعه لكثرة وقوعها في الناس وعلى ألسنة العامة من غير أن يعلموا أنها كذلك فإذا بانت لهم فلعلهم أن يجتنبوها لئلا تحبط أعمال مرتكبي ذلك ويخلدوا في أعظم العذاب وأشد العقاب، ومعرفة ذلك أمر مهم جدًا فإن من ارتكب مكفرًا تحبط جميع أعماله ويجب عليه قضاء الواجب منها عند جماعة من الأئمة منهم أبي حنيفة ومع ذلك فقد توسع أصحابه في المكفرات وعدُّوا منها جملاً مستكثرة جدًا وبالغوا في ذلك أكثر من بقية أئمة المذاهب هذا مع قولهم أن الردة تحبط جميع الأعمال وبأن من ارتد بانت منه زوجته وحرمت عليه فمع هذا التشديد بالغوا في الاتساع في المكفرات فتعين على كل ذي مسكة في دينه أن يعرف ما قالوه حتى يجتنبه ولا يقع فيه فيحبط عمله ويلزمه قضاءه وتبين منه زوجته عند هؤلاء الأئمة ثم ذكر أنواع الكفر نوعًا نوعًا.

---

(١) النساء، آية: ٤٨.

(٢) لقمان، آية: ١٣.

(٣) المائدة، آية: ٧٢.

٢- وقال النووي في "شرح مسلم": وأما الذبح لغير الله فالمراد به أن يذبح باسم غير الله كمن ذبح للصنم أو الصليب أو لموسى أو لعيسى أو للكعبة ونحو ذلك وكل هذا حرام ولا تحل هذه الذبيحة سواء كان الذابح مسلمًا أو نصرانيًا أو يهوديًا نص عليه الشافعي واتفق عليه أصحابنا فإن قصد مع ذلك تعظيم المذبوح له غير الله والعبادة له كان ذلك كفرًا فإن كان الذابح قبل ذلك مسلمًا صار بالذبح مرتدًا.

(ب) وأما كلام الحنفية:

فقال في كتاب "تبيين المحارم المذكورة في القرآن"، "باب الكفر" وهو الستر وجحود الحق وإنكاره وهو أول ما ذكر في القرآن العظيم من المعاصي قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ...﴾(١) الآية. وهو أكبر الكبائر على الإطلاق فلا كبيرة فوق الكفر.

إلى أن قال: واعلم أن ما يلزم به الكفر أنواع نوع متعلق بالله سبحانه وتعالى ونوع يتعلق بالقرآن وسائر الكتب المنزلة ونوع يتعلق بنبينا ﷺ وسائر الأنبياء والملائكة ونوع يتعلق بالأحكام. فأما ما يتعلق بالله سبحانه وتعالى إذا وصف الله سبحانه وتعالى بما لا يليق بأن شبه الله سبحانه وتعالى بشيء من المخلوقات أو نفي صفاته أو قال بالحلول والاتحاد أو معه قديم غيره أو معه مدبر مستقل غيره أو اعتقد أنه سبحانه جسم أو محدث أو غير حي أو اعتقد أنه لا يعلم الجزئيات أو سخر باسم من أسمائه أو أمر من أوامره أو وعيده أو وعده، أو أنكرها أو سجد لغير الله تعالى أو سبَّ الله سبحانه أو ادعى أن له ولدًا وصاحبة أو أنه متولد بشيء كائن عنه أو أشرك بعبادته شيئًا من خلقه أو افترى على الله سبحانه وتعالى الكذب بادعاء الإلهية والرسالة أو نفي أن يكون خالقه ربه وقال:

(١) البقرة، آية: ٦ .

"ليس لي ربًّا" أو قال لذرة من الذرات هذه خلقت عبثًا وهملاً وما أشبه ذلك مما لا يليق به ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾[1] يكفر في هذه الوجوه كلها بالإجماع سواء فعله عمدًا أو هزلاً ويقتل إن أصر على ذلك وإن تاب تاب الله عليه وسلم من القتل. أنتهي كلامه بحروفه.

فتأمل رحمك الله تصريحه بأن من أشرك في عبادة الله غيره أنه يكفر بالإجماع ويقتل إن أصر على ذلك.

(ج) وقال الشيخ تقي الدين رحمه الله[2] لما سئل عن قتال التتار مع التمسك بالشهادتين ولما زعموا من اتباع أصل الإسلام فقال: «كل طائفة ممتنعة عن التزام شرائع الإسلام الظاهرة المتواترة من هؤلاء القوم أو غيرهم فإنه يجب قتالهم حتى يلتزموا شرائعه وإن كانوا مع ذلك ناطقين بالشهادتين وملتزمين بعض شرائعه كما قاتل أبو بكر والصحابة رضى الله عنهم مانعي الزكاة وعلى ذلك اتفق الفقهاء بعدهم مع سابقة مناظرة عمر لأبي بكر رضى الله عنهما فاتفق الصحابة على القتال على حقوق الإسلام عملاً بالكتاب والسنة وكذلك ثبت عن النبيَّ ﷺ من عشرة أوجه الحديث عن الخوارج والأمر بقتالهم وأخبر أنهم شر الخلق والخليقة مع قوله «تحقرون صلاتكم مع صلاتهم، وصيامكم مع صيامهم» فعلم أن مجرد الاعتصام بالإسلام مع عدم التزام شرائعه ليس بمسقط للقتال فالقتال واجب حتى يكون الدين كله لله وحتى لا تكون فتنة فمتي كان الدين لغير الله فالقتال واجب وأيما طائفة ممتنعة امتنعت عن بعض الصلوات المفروضات أو الصيام أو الحج أو عن التزام تحريم الدماء أو الأموال أو الخمر والميسر أو الزنا أو نكاح ذوات المحارم أو عن التزام جهاد الكفار أو ضرب الجزية على أهل الكتاب أو غير ذلك من التزام واجبات الدين أو محرماته التي لا عذر لأحد

---

(١) الإسراء، آية: ٤٣.

(٢) كتاب عقيدة الموحدين، ص ٢٣٥.

في جحودها أو تركها والتي يكفر الواحد بجحودها فإن الطائفة الممتنعة تقاتل عليها وإن كانت مقرة بها وهذا مما لا أعلم فيه خلافًا بين العلماء وإنما اختلف العلماء في الطائفة الممتنعة إذا أصرت على ترك بعض السنن كركعتي الفجر أو الأذان أو الإقامة عند من لا يقول بوجوبها ونحو ذلك من الشعائر فهل تقاتل الطائفة الممتنعة على تركها أم لا فأما الواجبات أو المحرمات المذكورة ونحوها فلا خلاف في القتال عليها وهؤلاء عند المحققين من العلماء ليسوا بمنزلة البغاة الخارجين على الإمام أو الخارجين عن طاعته كأهل الشام مع أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ﷺ فإن أولئك خارجون عن طاعة إمام معين أو خارجون عليه لإزالة ولايته، وأما المذكورون فهم خارجون عن الإسلام بمنزلة مانعي الزكاة ومنزلة الخوارج الذين قاتلهم على بن أبي طالب ﷺ ولهذا افترقت سيرته ﷺ في قتاله أهل البصرة وأهل الشام وفي قتاله لأهل النهروان.

فكانت سيرته مع البصريين والشاميين سيرة الأخ مع أخيه ومع الخوارج بخلاف ذلك وثبتت النصوص عن النبيّ ﷺ بما استقر عليه إجماع الصحابة من قتال الصديق ﷺ لمانعي الزكاة وقتال عليّ للخوارج». أنتهي كلام شيخ الإسلام بن تيمية رحمه الله تعالى.

يقول الشيخ عبد الله: «فتأمل رحمك الله تعالى تصريح هذا الإمام في هذه الفتوى بأن من امتنع عن شريعة من شرائع الإسلام الظاهرة كالصلوات الخمس والصيام والزكاة أو الحج أو ترك المحرمات كالزنا أو تحريم الدماء والأموال أو شرب الخمر أو المسكرات أو غير ذلك أنه يجب قتال الطائفة الممتنعة عن ذلك حتى يكون الدين كله لله ويلتزموا جميع شرائع الإسلام وإن كانوا مع ذلك ناطقين بالشهادتين وملتزمين بعض شرائع الإسلام وأن ذلك مما اتفق عليه الفقهاء من سائر الطوائف الصحابة فمن بعدهم وأن ذلك عمل بالكتاب والسنة فتبين لك أن مجرد الاعتصام بالإسلام مع عدم التزام

شرائعه ليس بمسقط للقتال وأنهم يقاتلون قتال كفر وخروج عن الإسلام كما صرح به في آخر الفتوى بقوله: وهؤلاء عند المحققين من العلماء ليسوا بمنزلة البغاة الخارجين على الإمام بل هم خارجون عن الإسلام منزلة مانعي الزكاة والله أعلم». أنتهي كلام الشيخ عبد الله.

(د) ويقول الشيخ عبد الله نقلاً عن ابن القيم ﷺ[١]، وقال في "الإقناع" وشرحه "باب حكم المرتد": «وهو الذي يكفر بعد إسلامه نطقًا أو اعتقادًا أو شكًا أو فعلاً وهو مميز فتصح ردته كإسلامه لا مكرهًا لقوله تعالى: ﴿إلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾[٢] ولو هازلاً لعموم قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ﴾[٣] الآية. وأجمعوا على وجوب قتل المرتد فمن أشرك بالله تعالى كفر بعد إسلامه لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[٤]، أو جحد ربوبيته أو وحدانيته كفر لأن جاحد ذلك مشرك بالله تعالى أو جحد صفة من صفاته أو اتخذ له صاحبة أو ولدًا كفر، أو ادعي النبوة، أو صدَّق من ادعاها بعد النبيّ ﷺ كفر لأنه مكذب لقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾[٥]، أو جحد نبيًا أو كتابًا من كتب الله أو شيئًا منه أو جحد الملائكة أو واحدًا ممن ثبت أنه ملك كفر لتكذيبه القرآن أو جحد البعث كفر أو سبَّ الله ورسوله كفر أو استهزأ بالله وكتبه أو رسله كفر لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ﴾[٦] الآية.

---

(١) كتاب عقيدة الموحدين، ص ٢٦٨.

(٢) النحل، ية: ١٠٦.

(٣) البقرة، آية: ٢١٧.

(٤) النساء، آية: ٤٨.

(٥) الأحزاب، آية: ٤٠

(٦) التوبة، آيه: ٦٥

قال الشيخ: أو كان مبغضًا لرسوله أو لما جاء به كفر اتفاقًا أو جعل بينه وبين الله وسائط يتوكل عليهم ويدعوهم ويسألهم كفر إجماعًا لأن ذلك كفعل عابدي الأصنام قائلين ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾(١) أو أتي بقول أو فعل صريح في الاستهزاء بالدين الذي شرعه الله كفر للآية السابقة أو وجد منه امتهان للقرآن كفر وإن أتي بقول يخرجه عن الإسلام مثل أن يقول يهودي أو نصراني فهو كافر أو سخر بوعد الله أو وعيده فهو كافر لأنه كالاستهزاء بالله أو لم يكفر من دان بغير الإسلام أو شك في كفره. إلى أن قال: ومن قال أنا محتاج إلى محمد ﷺ في علم الظاهر دون علم الباطن أو قال أن من الأولياء من يسعه الخروج عن شريعته كما وسع الخضر الخروج عن شريعة موسى فهو كافر ومن سبَّ الصحابة رضى الله عنهم أو واحدًا منهم واقترن بسبِّه دعوى أن عليًا إله أو أن جبريل غلط فلا شك في كفر هذا بل لا شك في كفر من توقف في تكفيره وأما من لعن أو قبَّح مطلقًا فهذا محل الخلاف توقف أحمد في تكفيره وقتله». أهـ.

نقل الشيخ عبد الله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب عن الإمام ابن القيم من كتاب "الإقناع" والله سبحانه وتعالى أعز وأجل وأحكم وأعلم.

٦- **ويقول أبو بطين رحمه الله**(٢): «ومن أعظم المصائب إعراض أكثر الناس عن النظر في هذه الكلمة العظيمة حتى صار كثير منهم يقول من قال لا إله إلا الله، ما نقول فيه شيئًا وإن فعل ما فعل لعدم معرفتهم بمعني هذه الكلمة نفيًا وإثباتًا. مع أن قائل ذلك لابد أن يتناقض، فلو قيل له ما تقول فيمن قال لا إله إلا الله ولا يقر برسالة محمد بن عبد الله ﷺ ؟ لم يتوقف في تكفيره أو أقر بالشهادتين وأنكر البعث؟ لم يتوقف في تكفيره أو

---

(١) الزمر، آية: ٣.

(٢) الانتصار لحزب الله الموحدين، ص٩.

استحل الزنا أو اللواط أو نحوهما أو قال: إن الصلوات الخمس ليست بفرض أو أن صيام رمضان ليس بفرض؟ فلابد أن يقول يكفر من قال ذلك!! فكيف لا تنفعه لا إله إلا الله إذن ولا تحول بينه وبين الكفر!

فإذا ارتكب ما يناقضها: وهو عبادة غير الله وهو الشرك الأكبر الذي هو أكبر الذنوب قيل هو يقول لا إله إلا الله ولا يجوز تكفيره لأنه تكلم بكلمة التوحيد لكن آفةَ الجهل والتقليد أوجبت ذلك». أهـ.

٧- **ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية** (١): «"الوجه الثالث": إن الجنس المبيح للدم لا فرق بين قليله وكثيره وغليظه وخفيفه في كونه مبيحًا للدم سواء كان قولاً أو فعلاً كالردة والزنا والمحاربة ونحو ذلك وهذا هو قياس الأصول. إلى أن يقول: إذا كانت الأصول المنصوصة أو المجمع عليها مستوية في إباحة الدم بين المرة الواحدة والمرات المتعددة كان الفرق بينهما في إباحة الدم إثبات حكم بلا أصل ولا نظير له بل على خلاف الأصول الكلية وذلك غير جائز ويوضح ذلك أن ما ينقض الإيمان من الأقوال يستوي فيه واحده وكثيره وإن لم يصرح بالكفر كما لو كفر بآية واحدة أو بفريضة ظاهرة أو بسبِّ الرسول مرة واحدة وكذلك ما ينقض الإيمان من الأقوال لو صرح به وقال قد نقضت العهد وبرئت من ذمتك، انتقض عهده بذلك وإن لم يكرره فكذلك ما يستلزم ذلك من السب والطعن في الدين ونحو ذلك لا يحتاج إلى تكرير». أهـ.

٨- أقوال الشيخ سليمان بن عبد الله ابن محمد بن عبد الوهاب (٢)

يقول في شرح كتاب "التوحيد" وهو كما جاء في كتاب "التوحيد حق الله على العبيد" للشيخ محمد بن عبد الوهاب يقول:

---

(١) الصارم المسلول، ص ٧٣.
(٢) كتاب تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد .

(١) باب "كتاب التوحيد":

وقول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنْ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[٢] الآية، وقوله تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ إِلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[٣] الآية، وقوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾[٤] الآية، وقوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ إِلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا...﴾[٥] الآية.

ومما يقول شيخ الإسلام بن عبد الوهاب في شرح هذه النصوص في كتابه، فيه مسائل[٦]:

الأولى: الحكمة في خلقه الجن والإنس.

الثانية: أن العبادة هى التوحيد لأن الخصومة فيه.

الثالثة: أن مَنْ لم يأت به لم يعبد الله ففيه معنى قوله ﴿وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ الآية.

الرابعة: الحكمة في إرسال الرسل.

الخامسة: أن الرسالة عمت كل أمة.

السادسة: أن دين الأنبياء واحد.

السابعة: المسألة الكبيرة: أن عبادة الله لا تحصل إلا بالكفر بالطاغوت، ففيه معنى قوله ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ﴾[٧] الآية.

الثامنة: أن الطاغوت عام في كل ما عُبد من دون الله.

---

(١) الذاريات، آية: ٥٦.

(٢) النحل، آية: ٣٦.

(٣) الإسراء، آية: ٢٣ .

(٤) النساء، آية: ٣٦ .

(٥) الأنعام، آية: ١٥١.

(٦) مجموعة التوحيد، طبعة دار الفكر، ص ١٦٧.

(٧) البقرة، آية: ٢٥٦.

التاسعة: عظم شأن الثلاث آيات المحكمات في سورة الأنعـــام عنـــد السلف وفيها عشر مسائل أولاها النهي عن الشرك.

العاشرة: الآيات المحكمات في سورة الإسراء وفيها ثماني عشرة مسألة، بدأها بقوله: ﴿لاَ تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْـذُولاً﴾[١] وختمهـا بقوله: ﴿وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا﴾[٢].

قال ابن مسعود[٣]: من أراد أن ينظر إلى وصية محمد ﷺ التي عليها خاتمه فليقرأ قول الله تعالى: ﴿قل تعالوا أتلُ ما حرَّم ربُّكم علـيكم أن لا تشركوا به شيئًا﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُـسْتَقِيمًا...﴾[٤] الآيــة. وعن معاذ ابن جبل ﷺ قال: كنتُ رديفَ النبيّ ﷺ على حمار فقــال لــي: «يا معاذ، أتدري ما حقّ الله على العباد وما حقّ العباد على الله ؟ قلــت: الله ورسوله أعلم. قال: حقّ الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك بالله شيئًا. قلت: يا رســول الله أفلا أبشر الناس؟ قال لا تبشرهم فيتكلوا». أخرجاه في الصحيحين.

يقول المصنف: ونبهنا الله على شأن هذه المسائل بقوله ﴿ذَلِكَ مِمَّـا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنْ الْحِكْمَةِ﴾[٥].

الحادية عشــر: آية سورة النساء التي تسمي آية الحقــوق العــشرة بدأها الله بقوله ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾[٦].

الثانية عشر: التنبيه على وصية رسول الله ﷺ عند موته.

---

(١) الإسراء، آية: ٢٢.
(٢) الإسراء، آية: ٣٩.
(٣) تيسير العزيز الحميد، طبعة دار الشهاب، ص ٦٣ .
(٤) الأنعام، آية: ١٥٣.
(٥) الإسراء، آية: ٣٩.
(٦) النساء، آية: ٣٦.

يقول الشيخ سليمان في شرح هذا الباب(١): قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنْ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾(٢) أي اعبدوا الله وحده واتركوا عبادة ما سواه فلهذا خلقت الخليقة وأرسلت الرسل وأنزلت الكتب، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلاَ أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ﴾(٣). وهذه الآية هى معنى لا إله إلا الله فإنها تضمنت النفي والإثبات كما تضمنته "لا إله إلا الله " ففي قوله ﷻ: ﴿اُعْبُدُوا اللَّه﴾ الإثبات، وفي قوله ﷻ: ﴿اجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ النفي. فدلت الآية على أنه لابد في الإسلام من النفي والإثبات، فيثبت العبادة لله وحده وينفي عبادة ما سواه وهو التوحيد الذي تضمنته سورة "قل يا أيها الكافرون". وهو معنى قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(٤) وطريقة القرآن في مثل هذا أن يقرن النفي بالإثبات.

قال ابن القيم: فينفي عبادة ما سواه ويثبت عبادته سبحانه وهذا هو حقيقة التوحيد والنفي المحض ليس بتوحيد وكذلك الإثبات بدون نفي فلا يكون التوحيد إلا متضمناً للنفي والإثبات وهذا حقيقة لا إله إلا الله.

وعن معاذ بن جبل قال: كنت رديف النبيّ ﷺ على حمار فقال يامعاذ: «أتدري ما حق الله على العباد وما حق العباد على الله». الحديث. قوله ﷺ: «أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا» أي يوحدوه بالعبادة وحده ولا يشركوا به شيئًا وفائدة هذه الجملة أن التجرد من الشرك لابد منه في العبادة وإلا فلا يكون العبد آتيًا بعبادة الله بل مشرك وهذا هو معنى قول المصنف(٥) أن

---

(١) تيسير العزيز الحميد، ص ٥٠ .
(٢) النحل، آية: ٣٦.
(٣) الرعد، اية: ٣٦.
(٤) البقرة، آية: ٢٥٦.
(٥) الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

العبادة هى التوحيد لأن الخصومة فيه[١] وفيه معرفة حق الله على العباد وهي عبادة الله وحده لاشريك له، وقوله ﷺ: «وحق العباد على الله ألا يعذب من لا يشرك به شيئًا» تقديره أن لا يعذب من يعبده ولا يشرك به شيئًا.

والعبادة هى الإتيان بالأوامر والانتهاء عن المناهى لأن مجرد عدم الإشراك لا يقتضي نفي العذاب، قال الحافظ: اقتصر على نفي الإشراك لأنه يستدعي التوحيد بالاقتضاء ويستدعي إثبات الرسالة باللزوم إذ من كذَّب الرسول فقد كذَّب الله ومَنْ كذَّب الله فهو مشرك وهو مثل قول القائل: من توضأ صحت صلاته أي مع سائر الشروط فالمراد من مات حال كونه مؤمنًا بجميع ما يجب أن يؤمن به. قوله ﷺ: «لا تبشرهم فيتكلوا» أي يعتمدوا على ذلك فيتركوا التنافس في الأعمال الصالحة. وفي رواية فأخبر بها معاذ عند موته تأثمًا ــ أي مخافة الإثم ــ قال الوزير المظفَّر: لم يكن يكتمها إلا عن جاهل يحمله جهله على سوء الأدب بترك الخدمة في الطاعة[٢].

أقــول تعليقًا على هذا الباب:

أن من أشرك بالله شيئًا لم يوحد الله سبحانه وتعالى بالعبادة ومن لم يوحد الله بالعبادة لم يعبد الله فدخل تحت قوله تعالى: ﴿وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾[٣] فصار بذلك كافرًا فمن كان متلبسًا بشرك أكبر في العبادة لا

(١) يقول الشيخ أن العبادة هى التوحيد لأن الخصومة فيه، الثالثة أن من لم يأت به لم يعبد الله ففيه معنى قوله ولا أنتم عابدون ما أعبد والمعني أن من أشرك بالله شيئًا لم يوحد الله بالعبادة ومن لم يوحد الله بالعبادة لم يعبد الله ومن لم يعبد الله كافر فمن تلبس بالشرك لم يدخل في الإسلام حتى يتجرد منه ومن وقع فيه بعد أن تجرد منه فقد ارتد به وهذا هو الحق وكل ما يقال غير ذلك فهو باطل.

(٢) تيسير العزيز الحميد، ص ٦٤-٦٧.

(٣) الكافرون، آية: ٣.

يدخل الإسلام حقيقة حتى يتجرد منه ومن تلبس به بعد أن تجرد منه فقد ارتد به، و "شيئًا" نكرة في سياق النهي تفيد العموم والاستغراق ولا يوجد شيء كائنًا ما كان يجعل صاحبه يدخل في الإسلام مع التلبس بأي شرك كان مادام هذا الشرك شركًا أكبر ولا يوجد شيء يعطي صاحبه حصانه تمنعه من الردة مع التلبس بشرك أكبر، لا التلفظ ولا الانتساب ولا البراءة الإجمالية من الشرك ولا الإقرار الإجمالي بالتوحيد.

(٢) يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب **"باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب"**: وذكر آية الأنعام وحديث عبادة وعتبان وأبي سعيد الخدرى وأنس كما هو مذكور في "كتاب التوحيد".

ويقول الشيخ سليمان في "الشرح"(١):

عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروحٌ منه والجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان عليه من العمل» قوله «من شهد أن لا إله إلا الله» أي من تكلم بهذه الكلمة عارفًا لمعناها، عاملاً بمقتضاها باطنًا وظاهرًا كما دل عليه قوله ﷻ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ﴾(٢)، وقوله سبحانه: ﴿إِلاَّ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾(٣) أما النطق بها من غير معرفة لمعناها ولا عمل بمقتضاها فإن ذلك غير نافع بالإجماع وفي الحديث ما يدل على ذلك وهو قوله ﷺ: «من شهد» إذ كيف يشهد وهو لا يعلم ومجرد النطق بشيء لا يسمي شهادة به ومعني «لا إله إلا الله» أي لا معبود بحق إلا إله واحد وهو الله وحده لا شريك له. قال قوم هود ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا

(١) المصدر السابق، ص ٧٢-٧٤ .
(٢) محمد، آية: ١٩.
(٣) الزخرف، آية: ٨٦.

كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ (١) وهو إنما دعاهم إلى "لا إله إلا الله" ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾(٢) فهذا معنى "لا إله إلا الله" وهو عبادة الله وترك عبادة ما سواه وهو الكفر بالطاغوت والإيمان بالله فتضمنت هذه الكلمة العظيمة أن ما سوى الله ليس بإله، وأن إلهية ما سواه أبطل الباطل وإثباتها أظلم الظلم، فلا يستحق العبادة سواه كما لا تصلح الإلهية لغيره. فتضمنت نفي الإلهية عما سواه وإثباتها له وحده لا شريك له، وذلك يستلزم الأمر باتخاذه إلهًا وحده والنهي عن اتخاذ غيره معه إلهًا وهذا يفهمه المخاطب من هذا النفي والإثبات.

قال الوزير أبو المظفر في "الإفصاح": قوله شهادة أن لا إله إلا الله يقتضي أن يكون الشاهد عالمًا بأن "لا إله إلا الله"، كما قال ﷻ: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ﴾(٣) وينبغي أن يكون الناطق بها شاهدًا فيها فقد قال الله عزَّ وجل ما أوضح به أن الشاهد بالحق إذا لم يكن عالمًا بما شهد به فإنه غير بالغ من الصدق به مع من شهد من ذلك بما يعلمه في قوله سبحانه: ﴿إِلاَّ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٤)، وقال: اقتضى الإقرار بها أن تعلم أن كل ما فيه إمارة للحدث فإنه لا يكون إلهًا فإذا قلت "لا إله إلا الله" فقد اشتمل نطقك هذا على أن ما سوى الله ليس بإله فيلزمك إفراده سبحانه بذلك وحده. قال وجملة الفائدة في ذلك أن تعلم أن هذه الكلمة هى مشتملة على الكفر بالطاغوت والإيمان بالله فإنك لما نفيت الإلهية وأثبت الإيجاب لله سبحانه كنت ممن كفر بالطاغوت وآمن بالله.

إلى أن يقول: لكن القوم أهل اللسان العربي علموا أنها تهدم دعاء الأموات والأصنام من الأساس. وتَكُبُّ بناء سؤال الشفاعة من غير الله

---

(١) الأعراف، آية: ٧٠.
(٢) الأنبياء، آية: ٢٥.
(٣) محمد، آية: ١٩.
(٤) الزخرف، آية: ٨٦.

وصرف الإلهية لغيره لأم الرأس فقالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَـى اللَّـهِ زُلْفَى﴾[١] ، ﴿ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾[٢]، ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَاب﴾[٣] فتبًا لمن كان أبو جهل ورأس الكفر في قريش وغيرهم أعلم منه بـ "لا إله إلا الله" قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۞ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾[٤] فعرفوا أنها تقتضي ترك عبادة ما سوى الله وإفراد الله بالعبادة وهكذا يقول عبَّاد القبور إذا طلبت منهم إخلاص الدعوة والعبادة لله وحده. أنترك سادتنا وشفعاءنا في قضاء حوائجنا؟ فيقال لهم وهذا الترك والإخلاص هو الحق كما قال تعالى: ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾[٥] وقد عرف المشركون معنى لا إله إلا الله وأبوا على النطق والعمل بها فلم ينفعهم توحيد الربوبية مع الشرك في الإلهية كما قال تعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾[٦] وعبَّاد القبور نطقوا بها وجهلوا معناها وأبوا عن الإتيان به[٧] ـ التوحيد ـ فصاروا كاليهود الذين يقولونها ولا يعرفون معناها ولا يعملون بها. ولا ريب أنه لو قال أحد من المشركين "لا إله إلا الله" ونطق بشهادة أن محمد رسول الله ولم يعرف معناها ولم يعرف معنى الإله ولا معنى الرسول وصلي وصام وحجّ ولا يدري ما ذلك إلا أنه رأي الناس يفعلونه فتابعهم ولم يفعل شيئًا من الشرك فإنه لا يشك أحد في عدم إسلامه وقد أفتي بذلك فقهاء المغرب كلهم في أول القرن الحادي عشر أو قبله في شخص كان كذلك كما ذكره صاحب "الدر الثمين في شرح المرشد المعين" من المالكية ثم قال شارحه: وهذا الذي أفتوا به جلي في غاية الجلاء ولا يمكن أن يختلف فيه

(١) الزمر، آية: ٣
(٢) يونس، آية: ١٨.
(٣) ص، آية: ٥.
(٤) الصافات، الآيتان: ٣٦-٣٧.
(٥) الصافات، آية: ٣٨.
(٦) يوسف، آية: ١٠٦
(٧) التوحيد ترك وإتيان ترك الشرك جملة وتفصيلاً وإتيان التوحيد جملة وتفصيلاً وليس مجرد الالتزام للترك والإتيان مع الوقوع في مفردات الشرك وترك مفردات التوحيد.

الذي أفتوا به جلي في غاية الجلاء ولا يمكن أن يختلف فيه اثنان. ولا ريب أن عبَّاد القبور أشد من هذا لأنهم اعتقدوا الإلهية في أرباب متفرقين واعلم أنه وردت أحاديث ظاهرها أنه من أتي بالشهادتين حرَّم على النار كحديث أنس قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة»، ثم ذكر حديث معاذ الذي سبقت الإشارة إليه. إلى أن يقول: وحاصله أن لا إله إلا الله سبب لدخول الجنة والنجاة من النار ومقتضى لذلك لكن المقتضي لا يعمل عمله إلا باستجماع شروطه وانتفاء موانعه فقد يتخلف عنه مقتضاه لفوات شرط من شروطه أو لوجود مانع ولهذا قيل للحسن أن أناسًا يقولون من قال لا إله إلا الله دخل الجنة فقال من قال لا إله إلا الله فأدي حقها وفرضها دخل الجنة.

عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال موسى يا رب علمني شيئًا أذكرك وأدعوك به فقال: «قل يا موسى: لا إله إلا الله. قال: كل عبادك يقولون هذا. قال: يا موسى لو أن السموات السبع وعامرهن غيري والأرضين السبع في كفة ولا إله إلا الله في كفة: مالت بهن لا إله إلا الله».

قال المصنف[1]: «تأمل الخمس اللواتي في حديث عبادة فإنك إذا جمعت بينه وبين حديث عتبان وما بعده[2] تبين لك معنى قول "لا إله إلا الله" وتبين لك خطأ المغرورين، ومنه أن الأنبياء يحتاجون للتنبيه على معنى قول لا إله إلا الله، ومنه التنبيه لرجحانها بجميع المخلوقات، مع أن كثيرًا ممن يقولها يخف ميزانه وفيه أنك إذا عرفت حديث أنس عرفت أن قول لا إله إلا الله ليس قولها باللسان بل لابد من ترك الشرك».

---

(١) الشيخ محمد بن عبد الوهاب، تيسير العزيز الحميد، ص ٩٨.

(٢) هكذا في كتاب التوحيد حق الله على العبيد للشيخ، وتيسير العزيز الحميد، ص٩٨.

أقــول تعليقًا: أن القول في حديث عتبان لابد فيه مــن عمــل القلــب «يبتغي بذلك وجه الله» وبالجمع مع حديث عبادة لابد فيه من معنى الــشهادة وهو العلم بما يشهد به والعمل بمقتضى ذلك مع الإيمان بالرســل والكتــب والبعث والحساب وبالجمع مع حديث أبي سعيد الخدرى، يتبين أن المقــصود ليس القول لأن كثيرًا ممن يقولها يخف ميزانه، ولكن المقصود العلم بمدلولها، والعمل بمقتضاها وبالجمع مع حديث أنس يتبين أن تحريم النار على من يقول لا إله إلا الله ليس بقولها باللسان ولكن لترك الشرك ظاهرًا وباطنًا.

يقول الشيخ في كتاب "التوحيد" [1]: «الثالثة عشر: أنــك إذا عرفــت حديث أنس عرفت أن قوله في حديث عتبان «فإن الله حرَّم على النار مــن قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله» أنه ترك الشرك ليس قولها باللسان.

وقد بدأ الشيخ هذا الباب بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ ويقول في تفسير النصوص: المسألة الرابعة ــ تفسير الآية التي في سورة الأنعام ــ مشيرًا إلى أن الإيمان كمعرفة بالقلب ونطق باللسان وهو توحيد الربوبية لا يدخل صاحبه الإسلام حتي يجتمع معه توحيــد الإلهيــة بترك الشرك وما يستلزمه ذلك من إتيان التوحيد في العبادة بجميع مفرداته فقوله تعالى: ﴿بِظُلْمٍ﴾ قد فسرها رسول الله ﷺ «بظلم: بشرك» وكلا الكلمة وتفسيرها نكرة في سياق نفي تفيد الاستغراق وأن المقصود ترك الــشرك بجميع مفرداته وإتيان التوحيد في العبادة بجميع مفرداته.

(٣) باب "الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله":

يذكر الشيخ قول الله ﷻ: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَــى اللَّــهِ عَلَــى بَصِيرَةٍ﴾[2] الآية، وحديث ابن عباس رضى الله عنهما عن وصية رســول

---

(١) كتاب التوحيد، ص١٧٠

(٢) يوسف، آية: ١٠٨.

الله ﷺ لمعاذ عندما بعثه إلى اليمن وحديث سهل بن سعيد رضى الله عنه عن إعطاء رسول الله ﷺ الراية لعلى يوم خيبر.

يقول الشيخ سليمان[1]: عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذاً إلى اليمن قال له: «إنَّك تأتي قومًا من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله»، وفي رواية «إلى أن يوحدوا الله فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم فإن هم أطاعوك لذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب».

قوله وفي رواية «إلى أن يوحدوا الله» هذه الرواية في التوحيد من "صحيح البخاري" وفي بعض الروايات فادعهم إلى شهادة لا إله إلا الله وأني رسول الله وفي بعضها أن محمدًا رسول الله وأكثر الروايات فيها ذكر الدعوة إلى الشهادتين، وأشار المصنف بإيراد هذه الرواية إلى التنبيه على معنى شهادة أن "لا إله إلا الله" إذ معناها توحيد الله بالعبادة وترك عبادة ما سواه، فلذلك جاء الحديث مرة بلفظ «شهادة أن لا إله إلا الله» ومرة «إلى أن يوحدوا الله» ومرة «فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله فإذا عرفوا الله فأخبرهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات»، وذلك هو الكفر بالطاغوت والإيمان بالله الذي قال الله فيه: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾[2] ومعني الكفر بالطاغوت هو خلع الأنداد والآلهة التي تُدعي من دون الله من القلب وترك الشرك بها رأسًا وبغضه وعداوته ومعني الإيمان بالله، هو إفراد الله بالعبادة التي تتضمن غاية الحب وغاية الذل والانقياد لأمره، وهذا هو الإيمان بالله

---

(١) تيسير العزيز الحميد، ص ١٢٤- ١٣٨.
(٢) البقرة، آية: ٢٥٦.

المستلزم للإيمان بالرسل عليهم السلام المستلزم لإخلاص العبادة لله تعالى وذلك هو توحيد الله تعالى ودينه الحق المستلزم للعلم النافع والعمل الصالح وهو حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله، وحقيقة المعرفة بالله وحقيقة عبادته وحده لا شريك له، فلله ما أفقه من روي هذا الحديث بهذه الألفاظ المختلفة لفظًا المتفقه معنى فعرفوا أن المراد من شهادة أن لا إله إلا الله هو الإقرار بها علمًا ونطقًا وعملاً خلافًا لما يظنه بعض الجهَّال أن المراد من هذه الكلمة هو مجرد النطق بها أو الإقرار بوجود الله أو ملكه لكل شيء من غير شرك فإن هذا القدر قد عرفه عبَّاد الأوثان وأقروا به، فضلاً عن أهل الكتاب ولو كان كذلك لم يحتاجوا إلى الدعوة إليه.

وفيه دليل على أن التوحيد الذي هو إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له وترك عبادة ما سواه هو أول واجب فلهذا كان أول ما دعت إليه الرسل عليهم السلام كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾(١)، وقال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾(٢)، وفي الحديث "أن الإنسان قد يكون قارئًا عالمًا وهو لا يعرف معنى لا إله إلا الله أو يعرفه ولا يعمل به" نبَّه عليه المصنف، واعلم أنه لم يذكر في هذا الحديث ونحوه الصوم والحج مع أن بعث معاذًا كان في آخر الأمر كما تقدم فأشكل ذلك على كثير من العلماء، وإيضاح ذلك أنه كان يذكر في كل مقام ما يناسبه، فيذكر تارة الفرائض التي يقاتل عليها كالصلاة، والزكاة ويذكر تارة الصلاة والزكاة، والصيام، إما أن يكون قبل فرض الحج وإما أن يكون المخاطب بذلك ليس عليه حج وأما الصلاة والزكاة فلهما شأن ليس لسائر الفرائض ولهذا ذكر الله تعالى في كتابه القتال عليهما لأنهما عبادتان ظاهرتان بخلاف الصوم.

---

(١) الأنبياء، آية: ٢٦.

(٢) النحل، آية: ٣٦ .

وفي الصحيحين عن سهل ابن سعد أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: «لأعطين الراية غدًا رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله يفتح الله على يديه، فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يُعطاها، فقال: أين عليّ بن أبي طالب، فقيل: هو يشتكي عينيه. قال: فأرسلوا إليه فأتى به فبصق في عينيه، ودعا له فبرأ كأن لم يكن به وجع وأعطاه الراية وقال: انفذ على رِسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه. فو الله لأن يهدي الله بِكَ رجلاً واحدًا خير لك مِنْ حُمْرِ النِّعَمِ».

قوله: «وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه» أي في الإسلام أي إذا أجابوا إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حقوقه التي لابد من فعلها كالصلاة والزكاة، وهذا كقوله في حديث أبي هريرة «فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم وأموالهم إلا بحقها» وقد فسره أبو بكر الصديق لعمر رضى الله عنهما لما قاتل أهل الردة الذين يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله فقال له عمر كيف نقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها». قال أبو بكر فإن الزكاة حق المال والله لو منعوني عناقًا كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها.

وحاصله أنهم إذا أجابوا إلى الإسلام الذي هو التوحيد فأخبرهم بما يجب عليهم بعد ذلك من حق الله تعالى في الإسلام من الصلاة والزكاة والصيام والحج وغير ذلك من شرائع الإسلام الظاهرة وحقوقه فإن أجابوا إلى ذلك فقد أجابوا إلى الإسلام حقًا، وإن امتنعوا عن شيء من ذلك فالقتال باق بحاله إجماعًا فالتكلم بكلمتي الشهادة دليل العصمة لا أنه عصمة، أو يقال هو العصمة لكن بشرط العمل يدل على ذلك قول الله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا﴾[1] ولو كان النطق بالشهادتين

---

(١) النساء، آية: ٩٤.

عاصمًا لم يكن للتثبت معنى ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا﴾ أي عن الشرك وفعلوا التوحيد ﴿وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾(١) فدلَّ على أن القتال يكون على هذه الأمور وفيه أن لله تعالى حقوقًا في الإسلام من لم يأت بها لم يكن مسلمًا كإخلاص العبادة له والكفر بما يعبد من دونه. وفيه بعث الإمام الدعاة إلى الله كما كان النبيُّ ﷺ وخلفاؤه الراشدون يفعلون وفيه تعليم الإمام أمرائه وعماله ما يحتاجون إليه.

يقول شيخ الإسلام ابن عبد الوهاب (٢) في تفسير نصوص هذا الباب التي أوردها «فيه مسائل: الأولى: أن الدعوة إلى الله طريق من اتبعه ﷺ، الثانية: التنبيه على الإخلاص، الرابعة: من دلائل حسن التوحيد كونه تنزيهًا لله تعالى عن المسبة، الخامسة: أن من قبح الشرك كونه مسبة لله، السادسة: وهي من أهمها إبعاد المسلم عن المشركين لئلا يصير منهم ولو لم يشرك، السابعة: كون التوحيد أول واجب، الثامنة: أنه يبدأ به قبل كل شيء حتى الصلاة، التاسعة: أن معنى "أن يوحدوا الله" معنى شهادة أن لا إله إلا الله، العاشرة: أن الإنسان قد يكون من أهل الكتاب وهو لا يعرفها أو يعرفها ولا يعمل بها، الخامسة والعشرون: الدعوة إلى الإسلام قبل القتال، السادسة والعشرون: أنه مشروع لمن دُعوا قبل ذلك وقوتلوا، الثامنة والعشرون: المعرفة بحق الله في الإسلام».

أقول تعليقًا:

أول واجب هو التوحيد كما يقال عن الإيمان أنه أول ما يجب على المكلف وبه تقبل وتصح الأعمال. والتوحيد والإيمان عند الإطلاق شيء واحد وليس أول ما يجب على المكلف أو أول ما يخاطب به هو البراءة الإجمالية والإقرار الإجمالي وعقد الإسلام فقط بل أول ما يخاطب به

(١) التوبة، آية: ٥.

(٢) كتاب مجموعة التوحيد، ص ١٧٤ وما بعدها.

المكلف هو إخلاص العبادة لله بالإتيان والترك ﴿وَمَا أُمِرُوا إلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّـهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾(١) ومازال للموضوع مزيد بيان. ويقول المؤلف في تفسير قوله تعالى: ﴿فـإن تابوا﴾ أي من الشرك وفعلوا التوحيد ولم يقل التزموا بالتوحيد وإن خالفوه بالشرك الأكبر بالوقوع في بعض مفرداته مع البراءة منه. وفيه أن الإسلام هو التوحيد، والطاعات هى حقوق الإسلام وحقوق التوحيد.

(٤) باب "تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله":

وقول الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمْ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾(٢) الآية، وقوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ۞ إلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي﴾(٣) الآية، وقوله ﷻ: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾(٤) الآية، وقوله ﷻ: ﴿وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾(٥) الآية، وفى الصحيح عن النبيّ ﷺ أنه قال: «من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حَرُم ماله ودمه وحسابه على الله عزَّ وجل».

يقول الشيخ ابن عبد الوهاب(٦) وشرح هذه الترجمة وما بعدها من الأبواب فيه أكبر المسائل وأهمها وهي تفسير التوحيد وتفسير الشهادة وبيَّنها بأمور واضحة منها آية الإسراء بيَّن فيها الرد على المشركين الذين يدعون الصالحين، ففيها بيان أن هذا هو الشرك الأكبر، ومنها آية براءة بين فيها أن أهل الكتاب اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله وبين

(١) البينة، آية: ٥.
(٢) الإسراء، آية: ٥٧.
(٣) الزخرف، الآيتان: ٢٦-٢٧.
(٤) التوبة، آية: ٣١ .
(٥) البقرة، آية: ١٦٥.
(٦) مجموعة التوحيد، ص ١٧٧.

أنهم لم يؤمروا إلا بأن يعبدوا إلهًا واحدًا مع أن تفسيرها الذي لا إشكال فيه طاعة العلماء والعبَّاد في المعصية[١]، لا دعاؤهم إياهم، ومنها قول الخليل عليه السلام للكفار ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ۞ إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهدِينِ﴾[٢] فاستثنى من المعبودين ربَّه، وذكر سبحانه أن هذه البراءة وهذه الموالاة هى شهادة لا إله إلا الله فقال ﷻ: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[٣]، ومنها آية البقرة في الكفار الذين قال الله فيهم ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْ النَّارِ﴾ [٤] ذكر أنهم يحبون أندادهم كحب الله فدل على أنهم يحبون الله حبًا عظيمًا ولم يدخلهم في الإسلام[٥]. فكيف بمن أحب الند أكبر من حبِّ الله فكيف بمن لا يحب إلا الند وحده ولم يحب الله.

ومنها قوله ﷺ: «من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله» وهذا من أعظم ما يبين معنى "لا إله إلا الله" فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصمًا للدم والمال بل ولا معرفة معناها مع لفظها بل ولا الإقرار بذلك بل ولا كونه لا يدعو[٦] إلا الله وحده لا شريك له بل لا يحرم ماله ودمه حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله فإن شكَّ أو توقف لم يحرم ماله ودمه فيا لها من مسألة، ما أعظمها وأجلها ويا له من بيان ما أوضحه وحجة ما أقطعها للمنازع.

يقول الشيخ سليمان بن عبد الله في كتابه شرحًا لهذا الباب[٧]:

"تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله": «التوحيد اسم لمعنى عظيم وقول له معنى جليل هو أجل من جميع المعاني وحاصله هو البراءة من

---

(١) في التحليل والتحريم ومطلق التشريع المطلق.
(٢) الزخرف، آية: ٢٦.
(٣) الزخرف، آية: ٢٧.
(٤) البقرة، آية: ١٦٧.
(٥) لا دخول في حقيقة الإسلام إلا بالتوحيد وترك الشرك جملة وتفصيلاً.
(٦) لا دخول في حقيقة الإسلام إلا بالتوحيد وترك الشرك جملة وتفصيلا.
(٧) تيسير العزيز الحميد، ص ١٣٩-١٥٢.

عبادة كل ما سوى الله، والإقبال بالقلب والعبادة على الله وذلك هو معنى الكفر بالطاغوت والإيمان بالله وهو معنى لا إله إلا الله كما قال تعالى: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَانُ الرَّحِيم﴾(١)، وقال حكاية عن مؤمن آل فرعون: ﴿وَيَاقَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ۞تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ۞ لاَ جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلاَ فِي الآخِرَةِ...﴾(٢) الآيات. والآيات في هذا كثيرة تبين أن معنى لا إله إلا الله هو البراءة من عبادة ما سوى الله من الشفعاء والأنداد وإفراد الله بالعبادة فهذا هو الهدي ودين الحق الذي أرسل الله به رسله وأنزل به كتبه.

أما قول الإنسان "لا إله إلا الله" من غير معرفة لمعناها ولا عمل به أو دعواه أنه من أهل التوحيد وهو لا يعرف التوحيد بل ربما يخلص لغير الله من عبادته في الدعاء والخوف والذبح والنذر والتوبة والإنابة وغير ذلك من أنواع العبادات فلا يكفي في التوحيد بل لا يكون إلا مشركًا والحالة هذه كما هو الشأن في عبّاد القبور، ثم ذكر المصنف الآيات التي تدل على هذا فقال: قال ﷻ: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمْ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾(٣). قلت: يبين معنى هذه الآية الآية التي قبلها وهي قوله: ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً ۞ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمْ... ﴾(٤) فتبين أن معنى التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله هو ترك ما عليه المشركون من دعوة الصالحين والاستشفاع بهم إلى الله في كشف الضر وتحويله ـ فكيف

---

(١) البقرة، آية: ١٦٣ .
(٢) غافر، آيات: ٤١-٤٣ .
(٣) الإسراء، آية: ٥٧.
(٤) الإسراء، الآيتان: ٥٦-٥٧.

بمن أخلص لهم الدعوة ــ وأنه لا يكفي في التوحيد(١) دعواه والنطق بكلمة الشهادة من غير مفارقة لدين المشركين وأن دعاء الصالحين لكشف الضر أو تحويله هو الشرك الأكبر، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ۞ إلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي...﴾(٢) فتبين بهذا أن معنى لا إله إلا الله هو البراءة مما يعبد من دون الله وإفراد الله بالعبادة، وذلك هو التوحيد لا مجرد الإقرار بوجود الله وملكه وقدرته وخلقه لكل شيء ــ فإن هذا يقر به الكفار ــ وذلك هو معنى قوله ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ فاستثنى من المعبودين ربَّه وذكر سبحانه أن هذه البراءة وهذه الموالاة هي شهادة "أن لا إله إلا الله".

قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾(٣) الأحبار: العلماء، والرهبان هم العباد. ومراد المصنف رحمه الله بإيراد هذه الآية هنا أن الطاعة في تحريم الحلال وتحليل الحرام من العبادة المنفية عن غير الله تعالى ولهذا فسرت العبادة بالطاعة وفسر الإله بالمعبود المطاع فمن أطاع مخلوقًا في ذلك فقد عبده، إذ معنى التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله يقتضي إفراد الله بالطاعة وإفراد الرسول بالمتابعة فإن من أطاع الرسول ﷺ فقد أطاع الله وهذا أعظم ما يبين التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله لأنها تقتضي نفي الشرك في الطاعة.

---

(١) ما أفقه الشيخ وحفيده في بيان الحق فدعوي التوحيد غير النطق وبيَّنا أنَّ كلاهما لا يكفي بل لابد من ترك الشرك. ويقول البعض أنه بالنطق يتحقق الإقرار الإجمالي والبراءة الإجمالية من الشرك فإذا وقع في مفردات الشرك مع ذلك فلا بأس به لأنه لم ينقض إقراره وبراءته بالشرك وإنما تنقض البراءة والإقرار بالعناد مع الشرك بعد إقامة الحجة فيكون ذلك دليلاً على نقض الميثاق وهذا من أبين الباطل.

(٢) الزخرف، آية: ٢٦-٢٧ .

(٣) التوبة، آية: ٣١.

قول الله ﷻ: ﴿وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ الآية (١). ومن الأمور المبينة لتفسير التوحيد وشهادة أن لا إلــه إلا الله آية البقرة في الكفار الذين قال الله فيهم ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْ النَّارِ﴾(٢) فقد ذكر سبحانه أنهم يحبون أندادهم كحب الله فدلّ على أنهم يحبــون الله حبًــا عظيمًا ولم يدخلهم في الإسلام فكيف بمن أحب الندَّ حبًا أكبر من حــب الله وكيف بمن لا يحب إلا الند وحده ولم يحب الله. قلت مراده أن معنى التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله هو إفراد الله بأصل الحب الذي يــستلزم إخــلاص العبادة لله وحده لا شريك له وعلى قدر التفاضل في هذا الأصل وما ينبنــي عليه من الأعمال الصالحة يكون تفاضل الإيمان والجزاء عليه في الآخرة.

فمن أشرك بالله تعالى في ذلك فهو المشرك لهذه الآيــة وأخبــر الله تعالى عن أهل هذا الشرك أنهم يقولون لآلهتهم وهم في الجحيم ﴿تَاللَّــهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۞ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(٣) ومعلــوم أنهــم مــا ساووهم به في الخلق والرزق والملك وإنما ساووهم في المحبة والتعظــيم والطاعة والعبادة، قال في الصحيح عن النبيّ ﷺ قال: «من قال لا إلــه إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه علــى الله» قولــه من قال: «لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله ...» اعلم أن النبيَّ ﷺ في هذا الحديث علَّق عصمة المال والدم بأمرين: الأول: قول لا إله إلا الله والثاني: الكفر بما يعبد من دون الله ، فلم يكتفي باللفظ المجرد عن المعني، بل لابد من قولها والعمل بها، قال المصنف: وهذا من أعظم ما يبين معنى لا إله إلا الله فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصمًا للدم والمال بــل ولا معرفــة معناها مع التلفظ بها ولا الإقرار بذلك.

(١) البقرة، آية: ١٦٥.
(٢) البقرة، آية: ١٦٧.
(٣) الشعراء، الآيتان: ٩٧-٩٨.

بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له، بل لا يحرم دمه وماله حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله فإن شك أو تردد لم يحرم ماله ودمه، فيا لها من مسألة ما أجلها ويا له من بيان ما أوضحه وحجة ما أقطعها للمنازع، قلت: وقد أجمع العلماء على معنى ذلك فلابد في العصمة من الإتيان بالتوحيد والتزام أحكامه، وترك الشرك كما قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾(١) والفتنة هنا هى الشرك، فدلَّ على أنه إذا وجد الشرك فالقتال* باق بحاله، قال تعالى: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(٢) فأمر بقتالهم على فعل التوحيد وترك الشرك وإقامة شعائر الدين الظاهرة فإذا فعلوها خلي سبيلهم ومتي أبوا عن فعلها أو فعل شيء منها فالقتال باق بحاله إجماعًا ولو قالوا لا إله إلا الله وكذلك النبيّ ﷺ علقَّ العصمة بما علقها الله به في كتابه كما في هذا الحديث، وفي "صحيح مسلم" عن أبي هريرة مرفوعًا «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويؤمنوا بي وبما جئت به، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله»، وفي الصحيحين عنه قال: لما توفي رسول الله ﷺ وكفر من كفر من العرب. فقال عمر لأبي بكر: كيف نقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن

---

(١) الأنفال، آية: ٣٩.

* القتال ليس من أجل الكلمة ولكن من أجل ترك الشرك وهي حجة قاطعة والدخول في الإسلام أعني في حقيقته ليس بالكلمة ولكن بترك الشرك وهذا هو البدء وهذا الأمر مهم جدًا وهذه حجة أساسية مع قول الله عزَّ وجل: ﴿قل يا أهل الكتاب...﴾ الآية، في معرفة كيف يكون البدء هل هو بترك الشرك جملة وتفصيلاً أم فقط بالتزام ذلك وإن التبس ببعض مفرداته

(٢) التوبة، آية: ٥.

أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقها وحسابه على الله»، فقال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرَّق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال والله لو منعوني عِقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه فقال عمر بن الخطاب فو الله ما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق».

فانظر كيف فهم الصديق أن النبيَّ ﷺ لم يرد مجرد اللفظ بها من غير إلزام لمعناها وأحكامها فكان ذلك هو الصواب واتفق عليه الصحابة فهذا الحديث كآية براءة بين فيه ما يقاتل عليه الناس ابتداءً فإذا فعلوه وجب الكف عنهم إلا بحقها فإن فعلوا بعد ذلك ما يناقض هذا الإقرار والدخول في الإسلام وجب القتال حتى يكون الدين كله لله، بل لو أقروا الأركان الخمسة وفعلوها وأبوا عن فعل الوضوء للصلاة ونحوه أو عن تحريم بعض محرمات الإسلام كالربا أو الزنا، أو نحو ذلك وجب قتالهم إجماعًا ولم تعصمهم لا إله إلا الله ولا ما فعلوه من الأركان وهذا من أعظم ما يبين معنى لا إله إلا الله وأنه ليس المراد منها مجرد النطق فإذا كانت لا تعصم من استباح محرمًا أو أبى عن فعل الوضوء مثلاً بل يقاتل على ذلك حتى يفعله فكيف تعصم من دان بالشرك وفعله وأحبه ومدحه وأثنى عليه أهله ووالى عليه وعادى عليه، وأبغض التوحيد الذي هو إخلاص العبادة لله وتبرأ منه وحارب أهله وكفَّرهم وصد عن سبيل الله كما هو شأن عبَّاد القبور وقد أجمع العلماء على أن من قال لا إله إلا الله وهو مشرك أنه يقاتل حتى يأتي التوحيد.

وقال شيخ الإسلام لما سئل عن قتال التتار مع التمسك بالشهادتين ولما زعموا من اتباع أصل الإسلام فقال: «كل طائفة ممتنعة من التزام شرائع الإسلام الظاهرة المتواترة من هؤلاء القوم أو غيرهم فإنه يجب قتالهم حتى يلتزموا شرائعه وإن كانوا مع ذلك ناطقين بالشهادتين ملتزمين

بعض شرائعه كما قاتل أبو بكرﷺ مانعى الزكاة وعلى ذلك اتفق الفقهاء بعدهم. قال فأيما طائفة ممتنعة امتنعت عن بعض الصلوات المفروضات أو الصيام أو الحج أو عن التزام تحريم الدماء أو الأموال أو الخمر أو الميسر أو نكاح ذوات المحارم أو عن التزام جهاد الكفار أو ضرب الجزية على أهل الكتاب أو غير ذلك من التزام واجبات الدين أو محرماته التي لا عذر لأحد في جحودها أو تركها والتي يكفر الواحد بجحودها فإن الطائفة الممتنعة تقاتل عليها وإن كانت مقرة بها.

وهذا مما لا أعلم فيه خلافًا بين العلماء، قال: وهؤلاء عند المحققين من أهل العلم ليسوا بمنزلة البغاة بل هم خارجون عن الإسلام وبمنزلة مانعي الزكاة. إلى أن يقول: فإذا كان من التزم شرائع الدين كلها إلا تحريم الميسر أو الربا أو الزنا يكون كافرًا يجب قتاله، فكيف بمن أشرك بالله ودُعيَ إلى إخلاص الدين لله والبراءة والكفر بمن عُبد غير الله فأبي عن ذلك واستكبر وكان من الكافرين. قوله ﷺ: «وحسابه على الله» فمن أتى بالتوحيد والتزم شرائعه ظاهرًا وجب الكف عنه حتى يتبين منه ما يخالف ذلك وفيه وجوب الكف عن الكافر إذا دخل في الإسلام ولو في حال القتال حتى يتبين منه ما يخالف ذلك، وفيه أن الإنسان قد يقول لا إله إلا الله ولا يكفر بما يعبد من دون الله، وفيه أن شروط الإيمان الإقرار بالشهادة والكفر بما يعبد من دون الله مع اعتقاد ذلك واعتقاد جميع ما جاء به الرسول ﷺ، وفيه أن أحكام الدنيا على الظاهر وأن مال المسلم ودمه حرام إلا في حق كالقتل قصاصًا ونحوه». أهـ.

أقول معلقًا:

إن رسول الله ﷺ لم يعط عصمة الدم والمال أبدًا ولا في حالة واحدة لا لفرد ولا لطائفة لمن تلفظ بأي تلفظ كان الشهادتين أو غيرهما معهما أو

من دونهما، مع الوقوع والتلبس بمفردات الشرك والكفر الأكبر اكتفاءً بما يدَّعي كذبًا وبهتانًا من دلالة الشهادتين على الإقرار الإجمالي بالتوحيد والبراءة الإجمالية من الشرك مع إمكان الوقوع في مفردات الشرك في البدء، وكذلك لم يعط عصمة الدم والمال اكتفاءً بدعوى التوحيد والبراءة مع الوقوع أيضًا في مفردات الشرك الأكبر والكفر الأكبر إذا لم تكن الشهادتان تكفيان في الدلالة على هذا الإقرار المزعوم والبراءة المزعومة وكان لابد من دعوى التوحيد للدلالة على ذلك، فلا التلفظ ولا دعوى التوحيد أعطي عصمة وحصانة من الكفر مع وقوع الشرك والكفر الأكبر، ولا أدخل هذا ولا ذلك صاحبه في الإسلام حقيقة مع التلبس بالشرك، بل دلالة الشهادتين إنما هى على إتيان التوحيد وترك الشرك وليست على مجرد البراءة الإجمالية أو الإقرار الإجمالي. والتلفظ برغم هذه الدلالة ودعوى التوحيد لا يدخلان صاحبهما في الإسلام حقيقة مع التلبس بالشرك الأكبر ولا يمنعان عن صاحبهما الردة إن وقع في إحدى مفردات الشرك أو الكفر الأكبر بعد أن تجرد منها.

ولابد من ترك الشرك جملة وتفصيلاً في البدء والنهاية، فالقتال في البدء من أجل ترك الشرك ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾(١)، والنجاة في النهاية من أجل ترك الشرك «مَنْ مَاتَ لا يُشرِك باللهِ شيئًا دخلَ الجنَّة» وكما أوضح الشيخ أن ترك الشرك وإتيان التوحيد لا يتحقق بمجرد الإتيان والترك بل لابد مع ذلك من موالاة لأهل التوحيد وبراءة من أهل الشرك، وهذا هو معنى البراءة وليس معناها مجرد الالتزام بالتوحيد مع إمكان الوقوع في مفردات الشرك كما يحدث في الطاعات والمعاصي فقد أوضحنا قبلاً أن الإنسان إذا التزم بالأوامر والنواهي ثم خالف بالمعصية ولم ينقض التزامه بالرجوع إلى شرع آخر غير شرع الله أو رفض شرع

---

(١) الأنفال، آية: ٣٩.

الله والخروج عليه فإن الحدود كفارات لذنبه، وإن ستره الله فأمره إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له، وهذا في الطاعة والمعصية أو البدعة والسنة، أما في الشرك فالحد ليس كفارة للشرك والله لا يغفر أن يشرك به إلا بالتوبة لاختلاف أحكام التوحيد والشرك عن أحكام الطاعات والمعاصي والسنن والبدع. قال العلماء: ثلاثة أشياء ضد ثلاثة أشياء التوحيد ضده الشرك والسنة ضدها البدعة والطاعة وضدها المعصية، كذلك لا يكفي لتحقيق التوحيد في البدء مجرد العهد أو الميثاق أو الالتزام بالإتيان مع إمكان عدم فعله ولا يكفي لتحقيق التوحيد مجرد الالتزام أو العهد أو الميثاق بالبراءة من الشرك مع إمكان الوقوع في مفرداته، بل لابد من فعل التوحيد وترك الشرك وهذا هو معنى لا إله إلا الله، وبهذا وحده تتحقق العصمة وهذا هو ما يطلب في البداية من الناس بقول الله ﷻ: ﴿قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾(١) وهذا ما يُقاتل عليه الناس حتى يأتوا به ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾(٢) ودعوة الرسل إلى قومهم ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾(٣) لم يقولوا لهم اعطوا الميثاق والعهد بهذا في البداية وإن ظللتم متلبسين بالشرك فأنتم مسلمون بذلك مع الشرك حتى تأتيكم الشرائع بترك الشرك تباعًا، فمن علمها تركه ومن جهلها ظل متلبسًا به، ومن علمها وظل متلبسًا به لضعف بشري أو لتقليد أو لتأويل لم يكفر بالشرك حتى ينضاف إليه العناد، فيدلّ ذلك على نقض الميثاق فيكون كفره بالنقض وليس بالشرك، وإنما يأتي دور الشرك لدلالته مع العناد على النقض، فإذا ثبت عدم النقض مع التلبس بالشرك فلا يكفر بالشرك، بل

---

(١) آل عمران، آية: ٦٤.
(٢) الأنفال، آية: ٣٩.
(٣) الأعراف، آية: ٥٩.

قالوا لهم ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلاَئِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[2] فالكفر من أجل الشرك وليس من أجل دلالة الشرك مع العناد على النقض ــ اللهم هل بلغت اللهم فاشهد ــ

وقد مرَّ كلام الشيخ سليمان: «وقد أجمع العلماء على أن من قال لا إله إلا الله وهو مشرك أنه يقاتل حتى يأتي بالتوحيد». وقد مرَّ كلام شيخ الإسلام ابن عبد الوهاب أن معنى أن يوحدوا الله، معنى «شهادة لا إله إلا الله» وقوله: «وفيه أنك إذا عرفت حديث أنس عرفت أن قول لا إله إلا الله ليس قولها باللسان بل لابد من ترك الشرك» وإذا كانت هناك كلمة تدعى إليها الناس وتفسير الكلمة الذي لا إشكال فيه هو ما بعدها في قول الله ﷻ: ﴿قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ﴾ وهو ﴿أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾[3] كما قال العلماء تفسيرها ما بعدها، ومعناه الذي لا إشكال فيه هو إفراد الله بالعبادة وترك الشرك جملة وتفصيلا وذلك لأن ﴿شيئًا﴾ نكرة في سياق نهي تفيد العموم والاستغراق والتفصيل وذكر بعض المفردات لها دليل على إرادة المفردات وليس مجرد البراءة الإجمالية من الشرك وهذا هو ما يُدعى إليه الناس في البدء، وأنه كما مر لا يمكن لأحد أن يدخل في حقيقة الإسلام حتى يتجرد من الشرك جملة وتفصيلاً ومن وقع في شيء من مفرداته بعد أن تجرد منه فقد ارتد بما وقع فيه من الشرك الأكبر لا فرق في ذلك بين كثيره وقليله فمن أشرك بالله شيئًا فقد وجبت له النار خالدًا فيها إذا مات على ذلك.

---

(١) المائدة، آية: ٧٢.

(٢) آل عمران، آية: ٨٠.

(٣) آل عمران، آية: ٦٤.

(٥) باب "من الشرك لبس الحلق":

قول الله ﷻ: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ﴾ (١) الآية، وعن عمران بن حصين ﷺ: «أن النبيّ ﷺ رأى رجلاً في يده حلقة من صُفْر فقال ما هذه: قال من الواهنة فقال: انزعها فإنها لا تزيدك إلا وهنًا **فإنك** لو مت وهى عليك ما أفلحت أبدًا»، رواه أحمد بسند لا بأس به، وله عن عقبة ابن عامر مرفوعًا: «من تعلق بتميمة فلا أتمَّ الله له ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له» وفي رواية «من تعلق تميمة فقد أشرك» ولابن أبي حاتم عن حذيفة أنه رأي رجلاً في يده خيط من الحمَّي فقطعه وتلا قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾(٢).

يقول الشيخ بن عبد الوهاب فيه مسائل(٣): الأولى: التغليظ في لبس الحلقة والخيط ونحوهما لمثل ذلك. الثانية: أن الصحابي لو مات وهي عليه ما أفلح، فيه شاهد لكلام الصحابة أن الشرك الأصغر أكبر من الكبائر. الثالثة: أنه لم يعذر بالجهالة. الرابعة: أنها لا تنفع في العاجلة بل تضر لقوله: «لا تزيدك إلا وهناً». الخامسة: الإنكار بالتغليظ على من فعل مثل ذلك. السادسة: التصريح بأن من تعلق شيئًا وُكِّلَ إليه. السابعة: التصريح بأن من تعلق تميمة فقد أشرك. الثامنة: أن تعليق الخيط من الحمي من ذلك. التاسعة: تلاوة حذيفة الآية دليل على أن الصحابة يستدلون بالآيات التي في الشرك الأكبر على الأصغر كما ذكر ابن عباس في آية البقرة. العاشرة: أن تعليق الودع من العين على ذلك. الحادية عشر: الدعاء على مَنْ تعلق تميمة أن الله لا يتم له ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له: أي لا ترك الله له.

---

(١) الزمر، آية: ٣٨.
(٢) يوسف، آية: ١٠٦.
(٣) مجموعة التوحيد، ص ١٧٨ وما بعدها.

يقول الشيخ سليمان[1] شارحًا قول الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾[2] الآية. يقول: «قال مقاتل: فسألهم النبيُّ ﷺ فسكتوا أي لأنهم لا يعتقدون ذلك فيها، وإنما كانوا يدعونها على معنى أنها وسائط وشفعاء عند الله، لا أنهم يكشفون الضر ويجيبون دعاء المضطر، فهم يعلمون أن ذلك لله وحده، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ۞ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾[3].

ويقول تعليقًا على حديث عمران بن حصين قوله ﷺ: «فإنَّك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبدًا» أي لأنه مشرك والحالة هذه والفلاح هو الفوز والظفر والسعادة. قال المصنف: فيه شاهد لكلام الصحابة أن الشرك الأصغر أكبر الكبائر، وأنه لم يعذر بالجهالة، والإنكار بالتغليظ على من فعل مثل ذلك. قلت: وفيه أن الصحابي لو مات وهي عليه ما أفلح أبدًا. ففيه رد على المغرورين الذين يفخرون بكونهم من ذرية الصالحين.

ويقول تعليقًا على حديث ابن أبي حاتم عن حذيفة وأنه رأي رجلاً في يده خيط من الحمي فقطعه وتلا قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾[4] قوله: فقطعه فيه إنكار هذا، وإن كان يعتقد أنه سبب، فالأسباب لا يجوز منها إلا ما أباحه الله ورسوله ﷺ مع عدم الاعتماد عليه، فكيف بما هو شرك كالتمائم والخيوط والخرز والطلاسم ونحو ذلك مما يعلقه الجهَّال. وفيه إزالة المنكر باليد بغير إذن الفاعل وإن كان يظن أن الفاعل يزيله وأن إتلاف آلات المنكر واللهو جائزة وإن لم يأذن صاحبها».

---

(١) تيسير العزيز الحميد، ص ١٥٣ وما بعدها.
(٢) الزمر، آية: ٣٨.
(٣) النحل، الآيتان: ٥٣-٥٤.
(٤) يوسف، آية: ١٠٦ .

(٦) باب قوله تعالى[١]: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ اللاتَ وَالْعُزَّى ۞ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأخْرَى أَلَكُمْ الذَّكَرُ وَلَهُ الأنثَى ۞ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾[٢]:

قال ابن إسحاق في السيرة: وقد كانت العرب اتخذت مع الكعبة طواغيت وهي بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة، لها سدنة وحجاب وتهدي لها كما تهدي للكعبة وتطوف بها وتنحر عندها وهي تعرف فضل الكعبة عليها لأنها عرفت أنها بيت إبراهيم عليه السلام ومسجده.

يقول الشيخ سليمان: «قلت: هذا الذي ذكره ابن إسحاق من شرك العرب هو بعينه الذي يفعله عبّاد القبور بل زادوا على الأولين... إذا تبين هذا فمعنى الآية كما قال القرطبي أن فيها حذفًا تقديره أفرأيتم هذه الآلهة هل نفعت أو ضرت حتى تكون شركاء لله ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾[٣]. أي من حجة ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إلاَّ الظَّنَّ﴾[٤]. أي ليس لهم مستند إلا حسن ظنهم بآبائهم الذين سلكوا هذا المسلك الباطل قبلهم وإلا حظ أنفسهم في رياستهم وتعظيم آبائهم الأقدمين. وعن أبي واقد الليثي قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ونحن حدثاء عهد بكفر وللمشركين سدرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط فمررنا بسدرة فقلنا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. فقال رسول الله ﷺ: الله أكبر إنها السنن قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿اجْعَل لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُون﴾ ؟ لتركبن سنن من كان قبلكم». رواه الترمذي وصححه.

يقول الشيخ سليمان: قوله: ونحن حدثاء عهد بكفر أي قريبوا عهد بكفر فيه دليل أن غيرهم لا يجهل هذا وأن المنتقل من الباطل الذي اعتاده قلبه لا

---

(١) تيسير العزيز الحميد، ص ١٧٨ .
(٢) النجم، آيات: ١٩-٢٢ .
(٣) النجم، آية: ٢٣.
(٤) النجم، آية: ٢٣.

يأمن أن يكون في قلبه بقية من تلك العادات الباطلة، قوله ﷺ: قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿اجْعَل لَنَا إِلَهًا﴾، أخبر ﷺ أن هذا الأمر الذي طلبوه منه وهو اتخاذ شجرة للعكوف عندها وتعليق الأسلحة بها تبركًا كالأمر الذي طلبه بنو إسرائيل من موسى عليه السلام حيث قالوا: ﴿اجْعَل لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾، فإذا كان اتخاذ شجرة لتعليق الأسلحة والعكوف عندها اتخاذ إله مع الله مع أنهم لا يعبدونها ولا يسألونها فما الظن بما حدث من عبَّاد القبور من دعاء الأموات والاستغاثة بهم والذبح والنذر لهم والطواف بقبورهم وتقبيلها وتقبيل أعتابها وجدرانها والتمسح بها والعكوف عندها وجعل السدنة والحجاب لها وأي نسبة بين هذا وبين تعليق الأسلحة على شجرة تبركًا، وفيها أن معنى الإله هو المعبود، وأن من أراد أن يفعل الشرك جهلاً فنهي عن ذلك فانتهى لا يكفر وإن لا إله إلا الله تنفي هذا الفعل مع دقته وخفائه على أولئك الصحابة فكيف بما هو أعظم منه، ففيه رد على الجهال الذين يظنون أن معناها الإقرار بأن الله خالق كل شيء وأن ما سواه مخلوق ونحو ذلك من العبارات والإغلاظ على من وقع منه ذلك جهلاً.

أقول تعليقًا: يظهر من كلام الشيخ هنا أن الشرك هنا أصغر لقوله في المسألة الحادية عشر: إن الشرك فيه أكبر وأصغر لأنهم لم يرتدوا بهذا، والرابعة عشر: سد الذرائع، الخامسة عشر: النهي عن التشبه بأهل الجاهلية، التاسعة عشر: أن ما ذمّ الله به اليهود والنصارى في القرآن فهو لنا، الحادية والعشرون إن سنة أهل الكتاب مذمومة كسنن المشركين.

أقول معلقًا: الشبهة الطارئة في الكفر الأكبر والشرك الأكبر لا يكفر بها المسلم إذا نهي فانتهي وأُمِرَ فأتمر ونُبِّه فتنبه، لكونه لم يفعل الكفر وهذا واضح في قول قوم موسى ﴿اجْعَل لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾(١).

---

(١) الأعراف، آية: ١٣٨.

فإنهم لم يفعلوا بعد أن نبههم موسى عليه السلام فتنبهوا أو لم يفعلوا الكفر، أما في حالة رسول الله ﷺ فقد يكون الفعل ذريعة إلى الشرك إذا كان مجرد التبرك وقد يكون شركًا أكبر إذا كان فيه معنى العكوف والقضية قضية عين تحتمل الأمرين معًا وهذا ليس حجة لصعوبة معرفة الأكبر من الأصغر وحديث العهد بالكفر إذا وقع في الكفر الأكبر كفر به ولكن لا يُكَفَّر به حتى تقوم عليه الحجة وغيره في الأمور الظاهرة ممن يقيم في عمران المسلمين يكفر به ويُكَّفر به ولا يقام عليه حد الردة حتى يستتاب إلا إذا كانت الردة مغلَّظة، بسبّ أو حرابة أو كان زنديقًا منافقًا لا يستتاب أو ممتنع لا تدركه اليد ولا تصل إليه القدرة.

(٧) باب "ما جاء في الذبح لغير الله":

وقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَاي وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لاَ شَرِيكَ لَهُ﴾[١] الآية، وقوله ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾[٢].

يقول الشيخ سليمان[٣]: في الآية دليل بل دلائل متعددة على أن الذبح لغير الله شرك وفيها بيان العبادة وأن التوحيد مناف للشرك مضاد له. وعن طارق بن شهاب أن رسول الله ﷺ قال: «دخل الجنة رجل في ذباب ودخل النار رجل في ذباب. قالوا وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: مرَّ رجلان على قوم لهم صنم لا يجاوزه أحدٌ حتى يقرب له شيئًا فقالوا لأحدهما قرِّب قال ليس عندي شيء أقرِّب قالوا له قرِّب ولو ذبابًا فقرَّبَ ذبابًا فخلوا سبيله فدخل النَّار فقالوا للآخر قرِّب فقال ما كنت لأقرب لأحد شيئًا دون الله عزَّ وجلَّ فضربوا عنقه فدخل الجنة» رواه أحمد. أهـ.

---

(١) الأنعام، الآيتان: ١٦٢-١٦٣.

(٢) الكوثر، آية: ٢.

(٣) تيسير العزيز الحميد، ص ١٩٣.

يقول الشيخ ابن عبد الوهاب[1]: «والثامنة: هذه القصة العظيمة وهي قصة الذباب، التاسعة: كونه دخل النار بسبب ذلك الذباب الذي لم يقصده بل فعله تخلصًا من شرهم، العاشرة: معرفة قدر الشرك في قلوب المؤمنين كيف صبر ذلك على القتل ولم يوافقهم على طلبهم، مع كونهم لم يطلبوا إلا العمل الظاهر، الحادية عشر: أن الذي دخل النار مسلم لأنه لو كان كافرًا لم يقل دخل النار في ذباب، الثانية عشر: فيه شاهد للحديث الصحيح «الجنَّةُ أقربُ إلى أحَدِكُم مِنْ شِرَاكِ نَعْلِه والنَّارُ مثل ذلك»، الثالثة عشر: معرفة أن عمل القلب[2] هو المقصود الأعظم حتى عند عبدة الأوثان».

(٨) باب "من الشرك النذر لغير الله":

قوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾[3]، وقوله ﷻ: ﴿وَمَا أَنفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾[4]، وفي الصحيح عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه».

فيقول الشيخ ابن عبد الوهاب: فيه مسائل: الأولي: وجوب الوفاء بالنذر، الثانية: إذا ثبت كونه عبادة لله فصرفه إلى غيره شرك، الثالثة: أن نذر المعصية لا يجوز الوفاء به.

يقول الشيخ سليمان أخبر تعالى بأن ما أنفقناه من نفقة أو نذرناه من نذر متقربين بذلك إليه أنه يعلمه ويجازينا عليه فدلَّ ذلك على أنه عبادة وبالضرورة يدري كل مسلم أن من صرف شيئًا من أنواع العبادة لغير الله فقد أشرك.

---

(١) مجموعة التوحيد، ص١٨٤.

(٢) المعني لقولهم قرِّب لمواطأة الباطن للظاهر والشرك والهلاك حدث بالظاهر منفردًا دون مواطأة الباطن ولا قصد الكفر لمجرد فعل الكفر الأكبر كما هو واضح من كلام الشيخ.

(٣) الإنسان، آية: ٧ .

(٤) البقرة، آية: ٢٧٠.

(٩) باب "من الشرك أن يستغيث بغير الله":

يقول الشيخ سليمان[١]: «اعلم أن الدعاء نوعان: دعاء عبادة ودعاء مسألة: ويراد به في القرآن هذا تارة وهذا تارة ويراد به مجموعهما وهما متلازمان. دعاء المسألة هو طلب ما ينفع الداعي من جلب نفع أو كشف ضر ولهذا أنكر تعالى على من عُبِدَ من دونه ولا يملك ضرًا ولا نفعًا كقوله: ﴿قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا﴾[٢] الآية، وقال سبحانه: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[٣]. فكل دعاء عبادة مستلزم لدعاء مسألة، وكل دعاء مسألة مستلزم لدعاء العبادة. وبهذا التحقيق يندفع عنك ما يقوله عبَّاد القبور إذا احتج عليهم بما ذكر الله في القرآن من الأمر بإخلاص الدعاء له. قالوا: المراد به العبادة فيقولون في مثل قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾[٤] .أي لا تعبدوا مع الله أحدًا فيقال لهم، وإن أريد به دعاء العبادة فلا ينفي أن يدخل دعاء المسألة في العبادة لأن دعاء العبادة مستلزم لدعاء المسألة كما أن دعاء المسألة متضمن لدعاء العبادة، هذا لو لم يرد في دعاء المسألة بخصوصه من القرآن إلا الآيات التي ذكر فيها دعاء العبادة، فكيف وقد ذكر في القرآن في غير موضع. قال تعالى﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾[٥]، وقال ﷻ: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾[٦]، وقال تعالى: ﴿أغير الله تدعونَ إنْ كنتم صادقين﴾، وقال سبحانه: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي﴾[٧]، وقال ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ

(١) تيسير العزيز الحميد، ص ٢١٥-٢٣١.
(٢) الأنعام، آية: ٧١.
(٣) المائدة، آية: ٧٦.
(٤) الجن، آية: ١٨.
(٥) الأعراف، آية: ٥٥.
(٦) الأعراف، آية: ٥٦.
(٧) مريم، آية: ٤٨.

مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾[1]. فثبت بهذا أن الدعاء عبادة من أَجَل العبادات بل هو أكرمها على الله كما تقدم فإن لم يكن الإشراك فيها شركًا فليس في الأرض شرك، وإن كان في الأرض شرك فالشرك في الدعاء أولى أن يكون شركًا من الإشراك في غيره من أنواع العبادة بل الإشراك في الدعاء هو أكبر شرك المشركين الذين بعث إليهم رسول الله ﷺ فإنهم يدعون الأنبياء والصالحين والملائكة ويقربون إليهم ليشفعوا لهم عند الله.

وإذا تبين ذلك فاعلم أن العلماء أجمعوا على أن من صرف شيئًا من نوعي الدعاء لغير الله فهو مشرك ولو قال لا إله إلا الله محمدًا رسول الله وصلي وصام، إذ شرط الإسلام مع التلفظ بالشهادتين أن لا يعبد إلا الله فمن أتي بالشهادتين وعبد غير الله فما أتي بهما حقيقة وإن تلفظ بهما كاليهود الذين يقولون: لا إله إلا الله وهم مشركون ومجرد التلفظ بهما لا يكفي في الإسلام[2] بدون العمل بمعناهما واعتقاده إجماعًا.

قال الإمام أبو الوفاء على بن عقيل الحنبلي: لما صعبت التكاليف على الجهَّال والطغام عدلوا عن أوضاع الشرع إلى تعظيم أوضاع صنعوها ووضعوها لأنفسهم فسهلت عليهم إذ لم يدخلوا بها تحت أمر غيرهم وهم عندي كفار لهذه الأوضاع مثل تعظيم القبور وخطاب الموتى بالحوائج وكتب الرقاع فيها: يا مولاي افعل كذا وكذا أو إلقاء الخرق على الشجر اقتداء بمن عبد اللات والعزى.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: فإذا كان على عهد رسول الله ﷺ ممن انتسب إلى الإسلام من مَرَقَ منه مع عبادته العظيمة فليعلم أن المنتسب

---

(١) فاطر، آية: ١٣.

(٢) أكرر لا يدخل الإنسان في حقيقة الإسلام إلا بالتوحيد وترك الشرك ولا إسلام مع الشرك لا بدءًا ولا استمرارًا ولا انتهاءً، والمقصود بالتوحيد والشرك هو الإتيان والترك جملة وتفصيلاً ليس مجرد الالتزام الذي يثبت بادعاء التوحيد مع إمكان الوقوع في مفردات الشرك والكفر الأكبر.

إلى الإسلام والسنة في هذه الأزمان أيضًا قد يمرق أيضًا من الإسلام وذلك بأسباب منها:

الغلو الذي ذمه الله في كتابه حيث قال: ﴿يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾(١) وكذلك الغلو في بعض المشايخ بل الغلو في على بن أبي طالب بل الغلو في المسيح عليه السلام فكل من غلا في نبيّ أو رجل صالح وجعل فيه نوعًا من الإلهية مثل أن يقول: يا سيدي فلان انصرني أو أغثني أو ارزقني أو أجبرني أو أنا في حسبك ونحو هذه الأقوال، فكل هذا شرك وضلال يستتاب صاحبه فإن تاب وإلا قتل، فإن الله إنما أرسل الرسل وأنزل الكتب ليعبد وحده ولا يدعي معه إله آخر والذين يدعون مع الله آلهة أخري مثل المسيح والملائكة والأصنام لم يكونوا يعتقدون أنها تخلق الخلائق أو تنزل المطر أو تنبت النبات وإنما كانوا يعبدونهم أو يعبدون قبورهم أو يعبدون صورهم ويقولون ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾(٢).

وقال شيخ الإسلام: من جعل بينه وبين الله وسائط يتوكل عليهم ويدعوهم ويسألهم كفر إجماعًا. نقله عنه غير واحد مقررين له منهم ابن مفلح في "الفروع"، وصاحب "الإنصاف"، وصاحب "الغاية"، وصاحب "الإقناع"، وشارحه وغيرهم ونقله صاحب "القواطع" في كتابه عن صاحب "الفروع" وقال الإمام الحافظ بن عبد الهادي في رده على السبكى: وقوله أي قول السبكى: إن المبالغة في تعظيمه أي تعظيم الرسول ﷺ واجبه إن أريد به المبالغة بحسب ما يراه كل أحد تعظيمًا حتى الحج إلى قبره والسجود له والطواف به واعتقاد أنه يعلم الغيب وأنه يعطي ويمنع ويملك ــ لمن استغاث به من دون الله ــ الضر والنفع وأنه يقضي حوائج السائلين ويفرِّج كربات المكروبين وأنه يشفع فيمن يشاء ويدخل الجنة من

(١) النساء، آية: ١٧١.
(٢) الزمر، آية: ٣ .

شاء فدعوى المبالغة في هذا التعظيم مبالغة في الشرك وانسلاخ من جملة الدين. قلت: هذا هو اعتقاد عبَّاد القبور فيمن هو دون رسول الله ﷺ فضلاً عن الرسول». أهـ.

يقول الشيخ[١] في تفسير هذا الباب: المسألة الثانية تفسير قوله: ﴿وَلاَ تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنْفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ﴾[٢]، الثالثة: أن هذا هو الشرك الأكبر، الرابعة: أن أصلح الناس لو فعله إرضاء لغيره صار من الظالمين، السادسة: كون ذلك لا ينفع في الدنيا مع كونه كفرًا، الثامنة: أن طلب الرزق لا ينبغي إلا من الله كما أن الجنة لا تطلب إلا منه ومن هذه المسائل أن المدعو غافل عن دعاء الداعي، تسمية تلك الدعوى عبادة وأنها سبب لبغض المدعو للداعي وعداوته له وكفر المدعو بتلك العبادة وتلك الدعوة سبب كون الداعي أضل الناس وذلك تفسيرًا لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لاَ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [٣].

(١٠) باب "ما جاء أن بعض هذه الأمّة يعبد الأوثان"[٤]:

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنْ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾[٥]، وقوله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾[٦]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾[٧]، وعن أبي سعيد الخدرى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لتتبعنَّ

(١) مجموعة التوحيد، ص ١٨٧.
(٢) يونس، آية: ١٠٦.
(٣) الأحقاف، آية: ٥.
(٤) كتاب التوحيد، ص ٢٠٣.
(٥) النساء، آية: ٥١.
(٦) المائدة، آية: ٦٠.
(٧) الكهف، آية: ٢١.

سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخل جحر ضـــبّ لـــدخلتموه قالوا يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال فمن!» أخرجاه.

ولمسلم عن ثوبان ﷺ أن رسول الله ﷺ قـــال: «إن الله زوى لـــي الأرض. إلى قوله: حتى يكون بعضهم يهلـــك بعـــضًا ويـــسبي بعـــضهم بعضًا». رواه البرقاني في صحيحه، وزاد «إنما أخاف على أمتي الأئمـــة المضلين وإذا وقع عليهم السيف لم يرفع إلى يوم القيامة ولا تقوم الـــساعة حتى يلحق حيٌّ من أمتي بالمشركين وحـــــتى يعبـــد فئـــام مـــن أمتـــي الأوثان...» إلى آخر الباب.

يقول الشيخ سليمان[1] في تفسير حديث ثوبان: «والمعنى أن الله تعالى لا يسلط الكفار على معظم المسلمين وجماعتهم وإمامهم ما داموا بضد هـــذه الأوصاف المذكورة في قوله حتى يكون يهلك بعضهم بعضًا فأما إذا وجدت هذ الأوصاف فقد يسلط الكفار على جماعتهم ومعظمهم وإمامهم كما وقع».

يقول الشيخ ابن عبد الوهاب[2]: «فيه مسائل: الرابعة: وهي أهمها، ما معنى الإيمان بالجبت والطاغوت؟ هل هو اعتقـــاد قلـــب أو هـــو موافقـــة أصحابها مع بغضها ومعرفة بطلانها، الخامسة: قـــولهم إن الكفـــار الـــذين يعرفون كفرهم أهدي سبيلاً من المـــؤمنين، الـــسادسة وهـــي المقـــصودة بالترجمة: أن هذا لابد أن يوجد في هذه الأمة كما تقرر فـــي حـــديث أبـــي سعيد، السابعة: التصريح بوقوعها، أعني عبادة الأوثان في هذه الأمـــة فـــي جموع كثيرة، الثامنة: العجب العجاب. خروج من يدعي النبوة مثل المختار مع تكلمه بالشهادتين وتصريحه أنه من هذه الأمة وأن الرســـول حـــق وأن القرآن حق وفيه أن محمدًا خاتم النبيِّن ومع هذا يصدق في هـــذا كلـــه مـــع التضاد[3] الواضح، الرابعة عشر: التنبيه على معنى عبادة الأوثان».

---

(١) تيسير العزيز الحميد، ص ٣٧٢.
(٢) كتاب التوحيد، ص ٢٠٣.
(٣) السبب جناية التأويل على الدين.

(١١) باب "ما جاء في الرياء":

يقول الشيخ سليمان(١): «قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلى أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ...﴾(٢) الآية. في الآية دليل على الشهادتين وأن الله تعالى فرض على نبينا ﷺ أن يخبرنا بتوحيد الإلهية ــ وإلا فتوحيد الربوبية لم ينكره الكفار الذين كذبوه وقاتلوه ــ ذكر عن السلف من أهل العلم في الآية أنواع مما يفعله الناس اليوم ولا يعرفون معناه الأول: العمل الصالح الذي يفعله كثير من الناس ابتغاء وجه الله من صدقة وصلاة وإحسان إلى الناس وترك الظلم ونحو ذلك مما يفعله الإنسان أو يتركه خالصًا لله ولكنه لا يريد ثوابه في الآخرة وإنما يريد أن يجازيه الله بحفظ ماله وتنميته أو حفظ أهله وعياله أو إدامته النعم عليه ولا همة له في طلب الجنة والنجاة من النار فهذا يعطي ثوابه في الدنيا وليس له في الآخرة نصيب. النوع الثاني: أن يعمل أعمالاً صالحة يقصد بها مالاً مثل أن يحج بمال يأخذه لا لله أو يهاجر لدنيا يصيبها. النوع الثالث: أن يعمل بطاعة الله مخلصًا في ذلك لله وحده لا شريك له لكنه على عمل يكفره كفرًا يخرجه عن الإسلام مثل اليهود والنصارى إذا عبدوا الله وتصدقوا أو صاموا ابتغاء وجه الله والدار الآخرة ومثل كثير من هذه الأمة الذين فيهم كفر(٣) أو شرك أكبر يخرجهم من الإسلام بالكلية إذا أطاعوا الله طاعة خالصة يريدون بها ثواب الله في الدار الآخرة لكنهم على أعمال تخرجهم من الإسلام وتمنع قبول أعمالهم فهذا النوع قد ذكر أيضًا في الآية عن أنس بن مالك وغيره». أهـ.

---

(١) تيسير العزيز الحميد، ص ٥٣٦.

(٢) الكهف، آية: ١١٠.

(٣) نكرة معناها أي كفر أو شرك أكبر كان.

(١٢) باب من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرمه الله فقد اتخذهم أربابًا من دون الله.

لقول الشيخ سليمان: «لما كانت الطاعة من أنواع العبادات بل هي العبادة، فإنها طاعة الله بامتثال ما أمر به على ألسنة رسله عليهم السلام نبه المصنف رحمه الله بهذه الترجمة على وجوب اختصاص الخالق تبارك وتعالى بها والمقصود هنا الطاعة الخاصة في تحريم الحلال أو تحليل الحرام فمن أطاع مخلوقًا في ذلك غير الرسول ﷺ ـ فإنه لا ينطق عن الهوى ـ فهو مشرك كما بين النبيّ ﷺ مبلغًا عن ربّه ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾(١) وفسرها النبيُّ ﷺ بطاعتهم في تحريم الحلال وتحليل الحرام، ثم ذكر حديث عديّ ابن حاتم وعلق عليه بقوله: صرح رسول الله ﷺ في هذا الحديث بأن عبادة الأحبار والرهبان هى طاعتهم في تحريم الحلال وتحليل الحرام وهو طاعتهم(٢) في خلاف حكم الله ورسوله».

(١٣) باب قول الله عزّ وجل ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيدًا﴾(٣) الآيات.

يقول الشيخ سليمان: لما كان التوحيد الذي هو معنى شهادة أن لا إله إلا الله مشتملاً على الإيمان بالرسول ﷺ مستلزمًا له وذلك هو الشهادتان ولهذا جعلهما النبيُّ ﷺ ركنًا واحدًا في قوله بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، نبَّه في هذا الباب على ما تضمنه التوحيد واستلزمه من تحكيم الرسول ﷺ في موارد النزاع إذ هو مقتضى

(١) التوبة، آية: ٣١.
(٢) المعني أن تخاطب بخلاف حكم الله ورسوله فتقبله وتطيعه.
(٣) النساء، آية: ٦٠.

شهادة أن لا إله إلا الله ولازمها الذي لابد منه لكل مؤمن فإن من عــرف أن لا إله إلا الله فلابد من الانقياد لحكم الله والتسليم لأمره الذي جاء مـن عنده على لسان رسوله محمد ﷺ فمن شهد أن لا إله إلا الله ثم عدل إلـى تحكيم غير الرسول ﷺ في موارد النزاع فقد كذب في شهادته وإن شـئت قلت لما كان التوحيد مبنيًا على الشهادتين إذ لا تنفك إحداهما عن الأخرى لتلازمهما وكما تقدم في هذا الكتاب[١]. فى معنى شهادة أن لا إلــه إلا الله التي تتضمن حق الله على عباده. نبَّه في هذا الباب على معنى شــهادة أن محمد رسول الله التي تتضمن حق الرسول ﷺ فإنها تتضمن أنــه عبـد لا يعبد ورسول صادق لا يكذب بل يطاع ويتبع لأنه المبلغ عن الله تعالى.

ومن لوازم ذلك متابعته وتحكيمه في موارد النزاع وترك التحاكم إلى غيره كالمنافقين الذين يدعون الإيمان به ويتحاكمون إلى غيره وبهذا يتحقق العبد بكمال التوحيد وكمال المتابعة وذلك هو كمال سعادته وهو معنى الشهادتين إذا تبين هذا فمعني الآية المترجم لها: أن الله تبارك وتعالى أنكر على من يدعي الإيمان بما أنزل الله على رسوله ﷺ وعلى الأنبياء قبله وهو مع ذلك يريد أن يتحاكم في فصل الخصومات إلى غير كتاب الله وسنة رسوله ﷺ... وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾[٢] أي بالطاغوت وهو دليل على أن التحاكم إلى الطاغوت مناف للإيمان مضاد له فلا يصح الإيمان إلا بالكفر به وترك التحاكم إليه فمن لم يكفر بالطاغوت لم يؤمن بالله.

قولــه: ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالاً بَعِيــدًا﴾[٣] أي لأن إرادة التحاكم إلى غير كتاب الله وسنة رسوله ﷺ من طاعة الشيطان وهو إنمـا يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير.

---

(١) كتاب التوحيد.
(٢) النساء، آية:٦٠.
(٣) النساء، آية: ٦٠.

(١٤) باب "قول ما شاء الله وشئت":

يقول الشيخ سليمان[١]: «ولابن ماجة عن الطفيل أخي عائشة رضى الله عنهما لأمها قال: رأيت كأني أتيت على نفر من اليهود قلت إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون عزير بن الله، قالوا: وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد ثم مررت بنفر من النصارى. فقلت: إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون المسيح ابن الله. قالوا وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون ما شاء الله وشاء محمد. فلما أصبحت أخبرت بها من أخبرت ثم أتيت النبيَّ ﷺ فأخبرته، قال هل أخبرتَ بها أحدًا. قلت: نعم. قال: فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد فإن طفيلاً رأى رؤيا أخبر بها من أخبر منكم وإنكم قلتم كلمة كان يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها فلا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد ولكن قولوا ما شاء الله وحده».

يقول الشيخ سليمان: وقوله «إنكم قلتم كلمة كان يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها وفي رواية أحمد والطبراني وإنكم كنتم تقولون كلمة كان يمنعني الحياء منكم أن أنهاكم عنها...» وفيه الدليل على أنها من الشرك الأصغر إذ لو كانت من الأكبر لأنكرها من أول مرة قالوها.

يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب[٢]: المسألة الرابعة: أن هذا ليس من الشرك الأكبر لقوله «يمنعني كذا وكذا».

(١٥) باب مَنْ هزلَ بشيءٍ فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول وقول الله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾[٣] الآية:

يقول الشيخ سليمان[٤]: «قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ الآية. ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ﴾ أي سألت المنافقين الذين تكلموا

---

(١) تيسير العزيز الحميد، ص ٦٣٠ وما بعدها.
(٢) مجموعة التوحيد، ص ٢٢٦.
(٣) التوبة، آية: ٦٥.
(٤) المصدر السابق، ص٦٧١ وما بعدها.

بكلمة الكفر استهزاءً ﴿لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ أي يعتذرون بأنهم لم يقصدوا الاستهزاء والتكذيب وإنما قصدوا الخوض في الحديث واللعب. ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ لم يعبأ باعتذارهم إما لأنهم كانوا كاذبين فيه[1] وإما لأن الاستهزاء على وجه الخوض واللعب لا يكون صاحبه معذورًا وعلي التقديرين فهذا عذر باطل فإنهم أخطأوا موقع الاستهزاء وهل يجتمع الإيمان بالله وكتابه ورسوله والاستهزاء بذلك في قلب؟ بل ذلك عين الكفر فلذلك كان الجواب مع ما قبله ﴿لاَ تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ وقول من يقول إنهم كفروا بعد إيمانهم بلسانهم مع كفرهم أولاً بقلوبهم لا يصح لأن الإيمان باللسان مع كفر القلب قد قارنه الكفر فلا يقال قد كفرتم بعد إيمانكم فإنهم لم يزالوا كافرين في نفس الأمر، وإن أريد أنكم أظهرتم الكفر بعد إظهاركم الإيمان فهم لم يظهروا ذلك إلا لخوضهم وهم مع خوضهم مازالوا هكذا، بل لما نافقوا وحُذِّروا أن تنزل عليهم سورة تبين ما في قلوبهم من النفاق وتكلموا بالاستهزاء أي. صاروا كافرين بعد إيمانهم ولا يدل اللفظ على أنهم مازالوا منافقين. إلى أن قال تعالى: ﴿لاَ تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ...﴾ الآية فدَّل على أنهم عند أنفسهم لم يكونوا قد أتوا كفرًا بل ظنوا أن ذلك ليس بكفر فتبين أن الاستهزاء بآيات الله ورسوله كفر يكفر به صاحبه بعد إيمانه».

يقول شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب[2]: عن ابن عمر ومحمد بن كعب وزيد بن أسلم وقتادة دخل حديث بعضهم في بعض: أنه قال رجل في غزوة تبوك «ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونًا ولا أكذب ألسنًا ولا أجبن عند اللقاء» يعني رسول الله ﷺ وأصحابه القراء فقال له عوف

---

(١) يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «إنهم لم يكونوا كاذبين في اعتذارهم بل كانوا صادقين ولم يعلموا أنهم يكفرون بما صدر عنهم ولم يعتقدوه ولم يقصدوا به الكف».

(٢) مجموعة التوحيد، ص ٢٢٨ وما بعدها.

ابن مالك كذبت ولكنك منافق لأخبرن رسول الله ﷺ فذهب عوف إلى رسول الله ﷺ ليخبره فوجد القرآن قد سبقه فجاء ذلك الرجل إلى رسول الله ﷺ وقد ارتحل ﷺ وركب ناقته فقال: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونتحدث حديث الركب نقطع به عناء الطريق قال ابن عمر: كأني أنظر إليه متعلقًا بنسعة ناقة رسول الله ﷺ وأن الحجارة تنكب رجليه وهو يقول: إنما كنا نخوض ونلعب، فيقول له رسول الله ﷺ: ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾(١) ما يلتفت إليه وما يزيد عليه».

يقول الشيخ في "المسائل": «فيه مسائل، الأولى: وهي العظيمة أن من هزل بهذا فهو كافر. الثانية: أن هذا هو تفسير الآية فيمن فعل ذلك كائنًا من كان. الثالثة: الفرق بين النميمة وبين النصيحة لله ولرسوله. الرابعة: الفرق بين العفو الذي يحبه الله وبين الغلظة على أعداء الله. الخامسة: أن من الأعذار ما لا ينبغي أن يقبل». أهـ.

٩- فهم حقيقة لا إله إلا الله محمد رسول الله وحقيقة التوحيد من خلال بعض النقول من كتاب "فتح المجيد شرح كتاب التوحيد" للشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ:

(١) باب "فضل التوحيد وما يُكَفِّر به من الذنوب"(٢):

عن عبادة بن الصامت ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه والجنَّة حق والنَّار حق أدخله الله الجنَّة على ما كان من العمل».

قوله: «مَنْ شَهِدَ أَنَّ لاَ إِلهَ إلاَّ الله» أي من تكلم بها عارفًا لمعناها عاملا بما تقتضيه باطنًا وظاهرًا فلابد في الشهادتين من العلم واليقين

(١) التوبة، آية: ٦٥.
(٢) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، طبعة دار الحديث، ص ٣٦ .

والعمل بمدلولهما كما قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ﴾[١]، وقوله ﷻ: ﴿إِلاَّ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[٢] أما النطق بها من غير معرفة لمعناها ولا يقين ولا عمل بمقتضاها من البراءة من الشرك وإخلاص القول والعمل قول القلب واللسان وعمل القلب والجوارح فغير نافع بالإجماع. قال القرطبي في "المفهم على صحيح مسلم"، باب "لا يكفي مجرد التلفظ بالشهادتين بل لابد من استيقان القلب"، هذه الترجمة تنبيه على فساد مذهب غلاة المرجئة القائلين بأن التلفظ بالشهادتين كاف في الإيمان وأحاديث[٣] هذا الباب تدل على فساده بل هو مذهب معلوم الفساد من الشريعة لمن وقف عليها ولأنه يلزم منه تسويغ النفاق والحكم للمنافق بالإيمان الصحيح وهو باطل قطعًا. وفي هذا الحديث ما يدل على هذا وهو قوله «من شهد» فإن الشهادة لا تصح إلا إذا كانت عن علم ويقين وإخلاص وصدق.

ومعنى "لا إله إلا الله" لا معبود بحق إلا الله وهو في غير موضع من القرآن. ويأتيك في قول البضاعى صريحًا "وحده" تأكيد للإثبات، "لا شريك له" تأكيد للنفي قاله الحافظ، كما قال تعالى: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَانُ الرَّحِيم﴾[٤]، وقال ﷻ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُون﴾[٥]، وقال ﷻ: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا[٦] اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ فأجابوه ردًا عليه بقولهم أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾[٧]، وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ

---

(١) محمد، آية: ١٩.

(٢) الزخرف، آية: ٨٦.

(٣) رتّب الإمام مسلم عليه رحمة الله أحاديثَ باب الإيمان للدلالة على فساد مذهب المرجئة.

(٤) البقرة، آية: ١٦٣ .

(٥) الأنبياء، آية: ٢٥ .

(٦) معنى العبادة معلوم بضرورة اللغة والفطرة وبيان الرسل والواقع فهم يمارسون فيه العبادة فعلاً لله ولغيره والخلاف على مَنْ الذي يقصد بها هل هو الله وحده أم الله ومعه الشركاء.

(٧) الأعراف، آية: ٧٠.

﴿الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾(١) فتضمن ذلك نفي الإلهية عما سوى الله وهي العبادة وإثباتها لله وحده لا شريك له والقرآن من أوله إلى آخره يبين هذا ويقرره ويرشد إليه.

قال في "قرة العيون": وقد تضمنت هذه الكلمة العظيمة نفيًا وإثباتًا فنفت الإلهية عن كل ما سوى الله بقولك "لا إله" وأثبت الإلهية لله وحده بقولك "إلا الله" قال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(٢) فكم ضلَّ بسبب الجهل لمعناها مَنْ ضلَّ وهم الأكثرون فقلبوا حقيقة المعني وأثبتوا الإلهية المنفية لمن نفيت عنه من المخلوقين أرباب القبور والمشاهد والطواغيت والأشجار والأحجار والجنِّ وغير ذلك واتخذوا ذلك دينًا وشبهوا وزخرفوا واتخذوا التوحيد بدعة وأنكروا على من دعاهم إليه فلم يعرفوا منها ما عرف أهل الجاهلية من كفار قريش ونحوهم فإنهم عرفوا معناها وأنكروا ما دلت عليه من الإخلاص كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ۝ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾(٣) والمشركون من أواخر هذه الأمة أنكروا ما أنكره أولئك على من دعاهم إلى ترك عبادة ما كانوا يعبدونه من دون الله من الموتى والقبور والمشاهد والطواغيت ونحوها فأولئك عرفوا المعني وأنكروه وهؤلاء جهلوا المعني وأنكروه ولذلك تجده يقول "لا إله إلا الله" ويدعو مع الله غيره. قاله الوزير أبو المظفر في "الإفصاح": قوله شهادة "أن لا إله إلا الله" يقتضي أن يكون الشاهد عالمًا بأنه لا إله إلا الله كما قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ﴾(٤).

---

(١) الحج، آية: ٦٢.

(٢) آل عمران، آية: ١٨.

(٣) الصافات، الآيتان: ٣٥-٣٦ .

(٤) محمد، آية: ١٩.

وجملة الفائدة في ذلك أن تعلم أن هذه الكلمة مشتملة على الكفر بالطاغوت والإيمان بالله فإنك لما نفيت الإلهية وأثبت الإيجاب لله سبحانه كنت ممن كفر بالطاغوت وآمن بالله.

قال شيخ الإسلام: «الإله هو المعبود المطاع، فإن الإله هو المألوه. والمألوه هو الذي يستحق أن يعبد وكونه يستحق أن يعبد هو بما اتصف به من الصفات التي تستلزم أن يكون هو المحبوب غاية الحب المخضوع له غاية الخضوع... فـ "لا إله إلا الله" لا تنفع إلا من عرف مدلولها نفيًا وإثباتًا واعتقد ذلك وقبله وعمل به وأما من قالها من غير علم واعتقاد وعمل فهذا جهل صرف، فهي حجة عليه بلا ريب... فإن مشركي العرب ونحوهم جحدوا لا إله إلا الله لفظًا ومعني وهؤلاء أقروا بها لفظًا وجحدوها معنى... بل زاد شركهم على شرك العرب بمراتب فإن أحدهم إذا وقع في شدة أخلص الدعاء لغير الله تعالى ويعتقدون أنه أسرع فرجًا لهم من الله بخلاف حال المشركين الأولين فإنهم كانوا يشركون في الرخاء وأما في الشدائد فإنما يخلصون لله وحده. كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾(١)

... قوله في الحديث «عبده ورسوله» أتي بهاتين الصفتين وجمعهما دفعًا للإفراط والتفريط فإن كثيرًا ممن يدعي أنه من أمته أفرط بالغلو قولا وفعلاً وفرَّط بترك متابعته واعتمد على الآراء المخالفة لما جاء به وتعسف في تأويل أخباره وأحكامه وصرفها عن مدلولها والصدوف عن الانقياد لها مع إطراحها، فإن شهادة أن محمدًا رسول الله تقتضي الإيمان به، وتصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر والانتهاء عما عنه نهي وزجر. وأن يعظم أمره ونهيه ولا يقدم عليه قول أحد كائنًا من كان والواقع اليوم وقبله ممن ينتسب إلى العلم من القضاة والمفتين خلاف ذلك.

---

(١) العنكبوت، آية: ٦٥.

قوله[١]: على ما كان من العمل ــ هذه الجملة جواب الشرط ــ قال الحافظ معنى قوله «على ما كان من العمل»، أي من صلاح أو فساد لأن أهل التوحيد لابد لهم من دخول الجنة... قال القاضي عياض ما ورد في حديث عباده يكون مخصوصًا لمن قال ما ذكره ﷺ وقرن بالشهادتين حقيقة الإيمان والتوحيد الذي ورد في حديثه فيكون له من الأجر ما يرجح على سيئاته ويوجب له المغفرة والرحمة ودخول الجنة لأول وهلة.

وقوله[٢] ﷺ :«من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله» ــ وهو حقيقة معناها الذي دلت عليه هذه الكلمة من الإخلاص ونفي الشرك، والصدق والإخلاص متلازمان لا يوجد أحدهما بدون الآخر فإن من لم يكن مخلصًا فهو مشرك ومن لم يكن صادقًا فهو منافق والمخلص أن يقولها مخلصًا الإلهية لمن لا يستحقها غيره وهو الله تعالى ــ وهذا التوحيد أساس الإسلام الذي قال فيه الخليل عليه السلام ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾[٣]، وقالت بلقيس ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٤]، وقال الخليل ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ﴾[٥] والحنيف هو الذي ترك الشرك رأسًا وتبرأ منه وفارق أهله وعاداهم وأخلص أعماله الباطنة والظاهرة لله وحده كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾[٦] فإسلام الوجه لله هو إخلاص العبادة المنافي للشرك والنفاق وهو معنى الآية ونحوها إجماعًا فهذا هو الذي ينفعه قوله "لا إله إلا الله" ولهذا قال تعالى: ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾

---

(١) فتح المجيد، ص ٤٨.
(٢) قرة عيون الموحدين، مكتبة التوعية الإسلامية، ص ٢٩ .
(٣) البقرة، اية: ١٢٨.
(٤) النمل، آية: ٤٤.
(٥) الأنعام، اية: ٧٩.
(٦) لقمان، آية: ٢٢.

وهذا بخلاف من يقولها وهو يدعو غير الله ويستغيث به من ميت أو غائب لا ينفع ولا يضر كما نري عليه أكثر الخلق، فهؤلاء وإن قالوا فقد تلبسوا بما يناقضها فلا تنفع قائلها إلا بالعلم بمدلولها نفيًا وإثباتًا والجاهل بمعناها وإن قالها لا تنفعه لجهله بما وضعت له من الوضع العربي الذي أريد منها من نفي الشرك، وكذلك إذا عرف معناها بغير تيقن له، فإذا انتفى اليقين وقع في الشك ومما قيدت به في الحديث قوله ﷺ: «غير شاك» فلا تنفع إلا من قالها بعلم ويقين لقوله «صادقًا من قلبه» ــ خالصًا من قلبه ــ وكذلك من قالها غير صادق في قوله فإنها لا تنفعه لمخالفة القلب اللسان كحال المنافقين الذين يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم وكذلك حال المشرك فلا تقبل من مشرك لمنافاة الشرك للإخلاص ولما دلت عليه هذه الكلمة مطابقة فإنها دلت على نفي الشرك والبراءة منه والإخلاص لله وحده لا شريك له مطابقة ومن لم يكن كذلك لم ينفعه قوله "لا إله إلا الله" كما هو حال كثير من عبدة الأوثان، يقولون: لا إله إلا الله وينكرون ما دلت عليه من الإخلاص ويعادون أهله وينصرون الشرك وأهله. وقد قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ۝إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ۝وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾(١) وهى لا إله إلا الله وقد عبَّر عنها الخليل بمعناها الذي وضعت له ودلت عليه. وهو البراءة من الشرك وإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له. وكذلك من قالها ولم يقبل ما دلت عليه من الإخلاص كان قوله لهذه الكلمة كذبًا منه بل قد عكس مدلولها فأثبت ما نفته من الشرك ونفي ما أثبتته من الإخلاص. أهـ.

قلت: "الشيخ عبد الرحمن آل الشيخ" فتبين بهذا السياق معنى شهادة أن لا إله إلا الله وأنها تتضمن ــ ترك الشرك لمن قالها بصدق ويقين وإخلاص ــ وفي الحديث الدليل على أنه لا يكفي في الإيمان النطق من

(١) الزخرف، آيات: ٢٦-٢٨ .

غير اعتقاد وبالعكس. قال ﷺ: «يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة وما يزن خردلة وما يزن ذرة»، وقال ﷺ: «يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة(١) من إيمان».

عن أنس(٢) سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة». قوله ﷺ: «ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا» شرط ثقيل في الوعد بحصول المغفرة وهو السلامة من الشرك كثيره وقليله، صغيره وكبيره، ولا يسلم من ذلك إلا من سلَّمه الله تعالى وذلك هو القلب السليم كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ۝إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.

وفي هذا الحديث ما يبين معنى لا إله إلا الله التي رجحت جميع المخلوقات وجميع الحسنات وإن ذلك ترك الشرك قليله وكثيره وذلك يقتضي كمال التوحيد فلايسلم من الشرك إلا مَنْ حقق التوحيد وأتى بما تقتضيه هذه الكلمة من العلم واليقين والصدق والإخلاص والمحبة والقبول والانقياد. قوله تعالى(٣) ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾(٤)، وقال تعالى عن خليله إبراهيم: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا۝ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ

(١) من الإيمان الواجب زيادة على التوحيد لأن التوحيد لا يتبعض هكذا يقول العلماء في تفسير الحديث إجماعًا.
(٢) فتح المجيد، ص ٥٩.
(٣) المصدر السابق، ص ٦٤ .
(٤) الممتحنة، آية: ٤.

إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾[1] فهذا هو تحقيق الإخلاص والتوحيد وهو البراءة من الشرك وأهله واعتزالهم والكفر بهم وعداوتهم وبغضهم،

قال المصنِّف الشيخ محمد بن عبد الوهاب في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾[2]، قال: لئلا يستوحش سالك الطريق مِنْ قلة السالكين ﴿قَانِتًا لِلَّهِ﴾ لا للملوك ولا للتجار المترفين ﴿حَنِيفًا وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ خلافًا لمن كثر سوادهم وزعم أنه من المسلمين.

(٢) باب "الخوف من الشرك":

قال تعالى:﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾[3]. قال في قرة العيون[4]: «قال النووي رحمه الله تعالى: أما دخول المشرك النار فهو على عمومه فيدخلها ويخلد فيها ولا فرق بين الكتابي اليهودي والنصراني وبين عبدة الأوثان وسائر الكفرة ولا فرق عند أهل الحق بين الكافر عنادًا وغيره ولا بين من خالف ملة الإسلام وبين من انتسب إليها ثم حكم بكفره بجحده ما يكفر بجحده ــ وأما دخول من مات غير مشرك الجنة فهو مقطوع به. قال الشيخ حامد الفقي: هذا قول أهل السنة والجماعة لا اختلاف بينهم في ذلك وهذه الآية من أعظم ما يوجب الخوف من الشرك لأن الله تعالى قطع المغفرة من المشرك وأوجب له الخلود في النار وأطلق ولم يقيد ثم قال سبحانه: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[5] مخصص ومقيد فيما دون الشرك ــ فهذا الذنب الذي هذا شأنه لا يأمن أن يقع فيه فلا يرجى معه نجاة إن لم يتب منه قبل الوفاة».

---

(١) مريم، الآيتان: ٤٨-٤٩ .

(٢) النحل، آية: ١٢٠.

(٣) النساء، آية: ٤٨، ١١٦ .

(٤) قرة عيون الموحدين، طبعة مكتبة التوحيد الإسلامية، ص ٤٣.

(٥) النساء، آية: ٤٨.

قوله[1]: «مَنْ لقى الله لا يشرك به شيئًا»، قال القرطبي: أي لم يتخذ معه شريكًا في الإلهية ولا في الخلق ولا في العبادة ومن المعلوم من الشرع المجمع عليه عند أهل السنة أن من مات على ذلك فلابد له من دخول الجنة، وإن جرت عليه قبل ذلك أنواع من العذاب. والمحنة أن مَنْ مات على الشرك لا يدخل الجنة ولا يناله من الله رحمة ويخلد في النار أبد الآباد من غير انقطاع. وقال غيره اقتصر على نفي الشرك لاستدعائه التوحيد بالاقتضاء واستدعائه إثبات الرسالة باللزوم ــ إذْ مَنْ كذَّب رسل الله فقد كذَّب الله ومَنْ كذَّب الله فهو مشرك وهو كقولك من توضأ صحت صلاته ــ أي مع سائر الشروط. فالمراد من مات حال كونه مؤمنًا بجميع ما يجب الإيمان به إجمالا في الإجمالي وتفصيلاً في التفصيلي.

(٣) باب "الدعاء إلى شهادة[2] أن لا إله إلا الله":

قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾[3]، قال المصنِّف رحمه الله: فيه مسائل، منها التنبيه على الإخلاص لأن كثيرًا ولو دعا إلى الحق فهو يدعو إلى نفسه، ومنها أن البصيرة من الفرائض، ومنها: أن من دلائل حسن التوحيد أنه تنزيه لله تعالى عن المسبَّة، ومنها أن من قبح الشرك كونه مسبة لله، ومنها إبعاد المسلم عن المشركين لئلا يصير منهم ولو لم يشرك... السابعة: كون التوحيد أول واجب وأنه يبدأ به قبل كل شيء حتى الصلاة، وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذًا إلى اليمن قال: «إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله» وفي رواية «إلى أن يوحدوا الله».

---

(١) فتح المجيد، ص ٨٣.

(٢) المصدر السابق، ص ٨٧.

(٣) يوسف، آية: ١٠٨.

قال في قرة العيون[1]: وكانوا يقولونها لكنهم جهلوا معناها الذي دلت عليه من إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له وترك عبادة ما سواه فكان قولهم لا إله إلا الله لا ينفعهم لجهلهم بمعني هذه الكلمة كحال أكثر المتأخرين من هذه الأمة فإنهم كانوا يقولونها مع ما كانوا يفعلونه من الشرك بعبادة الأموات والغائبين والطواغيت والمشاهد فيأتون بما ينافيها فيثبتون ما نفته من الشرك باعتقادهم وقولهم وفعلهم وينفون ما أثبتته من الإخلاص وظنوا أن معناها القدرة على الاختراع تقليدًا للمتكلمين من الأشاعرة وغيرهم وهذا توحيد الربوبية الذي أقر به المشركون فلم يدخلهم في الإسلام ﴿قُلْ لِمَنْ الأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[2] وأمثال هذه الآيات في القرآن كثير وهذا التوحيد قد أقر به مشركو الأمم وأقر به أهل الجاهلية الذين بعث فيهم محمد ﷺ فلم يدخلهم في الإسلام لأنهم قد جحدوا ما دلت عليه هذه الكلمة من توحيد الإلهية وهو إخلاص العبادة ونفي الشرك والبراءة منه كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ﴾[3] الآية. فهذا التوحيد هو أصل الإسلام قال تعالى: ﴿إِنْ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾[5]، وقال سبحانه: ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾[6]، وقال تعالى: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[7]، ﴿أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾[8] أشار المصنف رحمه الله بذكر هذه الرواية «أن

(١) قرة عيون الموحدين، ص ٤٨.
(٢) المؤمنون، آية: ٨٤.
(٣) آل عمران، آية: ٦٤.
(٤) يوسف، آية: ٤٠.
(٥) فاطر، آية: ١٣.
(٦) غافر، آية: ١٢.
(٧) غافر، آية: ١٤.
(٨) الزمر، آية: ٣.

يوحدوا الله» إلى التنبيه على معنى شهادة أن لا إلـــه إلا الله، فـــإن معناهـــا توحيد الله بالعبادة ونفي عبادة ما سواه، وفي رواية «فليكن أول ما تـــدعوهم إليه عبادة الله» وذلك هو الكفر بالطاغوت والإيمان بالله. قال تعالى: ﴿فَمَـــنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انفِصَامَ لَهَا﴾[١]. والعروة الوثقي هى "لا إله إلا الله" وفي رواية البخاري فقال ﷺ: «ادعهـــم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأنِّي رسول الله».

قلت "الشيخ عبد الرحمن آل الشيخ": لابد في شهادة أن لا إلـــه إلا الله من سبعة شروط لا تنفع قائلها إلا باجتماعها. أحدها: العلم المنافي للجهـــل، والثاني: اليقين المنافي للشك، والثالث: القبول المنافي للرد، والرابع: الانقياد المنافي للترك، والخامس: الإخلاص المنافي للشرك، والـــسادس: الـــصدق المنافي للكذب، والسابع: المحبة المنافية لضدها. وفيه دليل على أن التوحيـــد الذي هو إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له وترك عبادة ما سواه هو أول واجب، ولهذا كان أول ما دعت إليه الرسل عليهم السلام أن ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾[٢] وفيه معنى "لا إله إلا الله" وتقدم أن لا إله إلا الله قـــد تقيدت بالكتاب والسنة بقيود ثقال منها العلم، واليقين والإخلاص، والـــصدق، والمحبة والقبول، والانقياد، والكفر بما يعبد من دون الله. فإذا اجتمعت هـــذه القيود لمن قالها نفعته هذه الكلمة، وإن لم تجتمع هـــذه لـــم تنفـــع، والنـــاس متفاوتون في العلم بها والعمل، فمنهم من ينفعه قولها، ومنهم من لا ينفعـــه كما لا يخفى. قوله ﷺ[٣] لعليّ في غزوة خيبر قال: «أنفذ على رسلك حتـــى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام». قوله ﷺ: «ثم ادعهم إلـــى الإســـلام»

---

(١) البقرة، آية: ٢٥٦.
(٢) الأعراف، آية: ٥٩.
(٣) فتح المجيد، ص ٩٨.

أي الذي هو معنى لا إله إلا الله وأن محمدًا رسـول الله وإن شـئت قلـت الإسلام هو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله.

وما اقتضته الشهادتان من إخلاص العبادة لله وحده وإخلاص الطاعة لرسوله ﷺ ... فتبين أن أصل الإسلام هو التوحيد ونفي الشرك في العبادة وهو دعوة جميع المرسلين وهو الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة فيما أمرهم به على ألسنة رسله.

أقـول معلقًا:

واضح جدًا أنه لا دخول في حقيقة الإسلام بغيـر التوحيـد وتـرك الشرك جملة وتفصيلا بل والبراءة من أهله ومعـاداتهم، وأنـه لا وجـود لحقيقة الإسلام بغير التوحيد وترك الشرك جملة وتفصيلا والبراءة من أهله ومعاداتهم لا فرق في ذلك بين بدء واستمرار وانتهاء.

ويقول الملبسون المضللون المحرفون للكلم عن مواضعه الذين يزعمون لأنفسهم صفة أهل السنة والجماعة وهم من أبعد الناس عنها ويتهمون أئمـة أهل السنة بالبدعة وأنهم خوارج مبتدعون، فقالوا ولبئس ما قالـوا:

١- إن المشرك مسلم إذا كان معه عقد الإسلام بالانتساب أو بالدعوى أو التلفظ. قلبوا الحقيقة، حقيقة أن لا إله إلا الله ؛ فالانتساب أو الدعوى لا تنفع صاحبها مع الشرك. قلبوها وجعلوها حصانة له من الكفـر مـع الشرك، وأثبتوا له بها مع الشرك صفة الإسلام وحقيقته.

٢- وقالوا: إن الشرك لا يكفر به صاحبه في وجود هذه الحصانة.

٣- وأنه إذا مات عليه دخل الجنة.

٤- وليس فرضًا على الناس أن يتركوا الشرك **حتى يكونوا مسلمين فـي الحقيقة ونفس الأمر** بل هم مسلمون بغير ذلك ويتركون الشرك تباعًا

كالمعاصي إذا أتاهم من يعلمهم ذلك ويأمرهم به وإن لم يأتهم فلا حرج عليهم مع التلبس بالشرك وهم مسلمون بعقد الإسلام مع تلبسهم بالشرك الأعظم وإن ماتوا على ذلك دخلوا الجنة.

٥- وقالوا إن الناس في عهد رسول الله ﷺ كانوا كذلك أغلبهم متلبسين بالشرك مع عقد الإسلام وأقرهم على ذلك.

٦- وقالوا: إن الشرك لم يحرم بحده جملة في بدء الرسالة وإنما حرم تباعًا منجمًا؟؟ كالمعاصي.

٧- وقالوا: إن الذين كفروا من الأمم السابقة لم يكن بسبب الشرك أو الكفر الأعظم ولكن لأنه لم يكن معهم عقد الإسلام.

وكل واحدة من هذه الشناعات إنكار[١] لمعلوم من الدين بالضرورة.

١- والله يقول: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِين﴾[٢]، ويقول ﷻ: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنْ الْمُشْرِكِينَ﴾[٣]، ويقول ﷻ: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ۞لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[٤]، ويقول ﷻ: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ۞وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾[٥]. فلا إسلام بغير الحقيقة وترك الشرك والإسلام هو ترك الشرك فكيف يكون الإسلام مع الشرك؟

---

(١) لازم الأقوال.

(٢) آل عمران، آية: ٦٧.

(٣) الأنعام، آية: ١٤.

(٤) الأنعام، الآيتان: ١٦٢-١٦٣.

(٥) الزمر، الآيتان: ١١-١٢ .

٢- والله يقول: ﴿وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلاَئِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾(١) فالشرك كفر بمنافاته لحقيقة الإسلام.

٣- والله يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾(٢)، ويقول ﷻ: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾(٣).

٤- ودعوة الرسل أول ما يدعون إليه أقوامهم: أن يعبدوا الله ما لهم من إلهٍ غيره. التوحيد وترك الشرك جملة وتفصيلاً وبغير هذا لا يكونون مسلمين. فالتوحيد هو أول ما يجب على المكلف وبه تقبل وتصح الأعمال وبدونه لا يكون المسلم مسلمًا.

٥- ولم يحدث أن تلبس مسلم بالشرك وأقره الرسول على ذلك بل أول ما حدث ولاء للكافرين من بعض من ينتسب إلى الإسلام أو مظاهرة للمشركين أو إعراض عن حكم الله إلى حكم كعب بن الأشرف أو إلى أبي برزة الأسلمى كانت كل هذه الأفعال كفرًا كفر به صاحبه، ولم يكن الفعل قبل ورود النص التفصيلي فيه على وضع البراءة الأصلية كشأن المحرمات قبل التحريم مثل الخمر والربا والميسر أو الاستغفار للمشركين يقول الله فيها: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾(٤)، ويقول: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَايَتَّقُونَ﴾(٥) بل كان الفعل كفرًا كفروا به ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾(٦) رغم كونه أول ما وقع اكتفاء بتحريم الشرك بحده وليس

(١) آل عمران، اية: ٨٠.
(٢) النساء، آية: ٤٨، ١١٦.
(٣) المائدة، آية: ٧٢.
(٤) المائدة، آية: ٩٣.
(٥) التوبة، اية: ١١٤.
(٦) النساء، آية: ٨٩.

بمفرداته كتحريم البدع والفِرَق فإنما تحرم بحدها وليس بمفرداتها «كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار» اكتفاء بوجود حد البدعة في الاعتقاد أو القول أو العمل دون وجود بيان تفصيلي من الرسول ﷺ بالمحرمات من البدع ولا يوجد تفصيل بهذه المحرمات أبدًا ولا يمكن أن يوجد بخلاف المعاصي فإنه لا تحريم إلا بنص ولا تجريم إلا بتحريم ولا عقوبة إلا بتجريم. أما الشرك فيحرم بقول الرسول ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾(١) وبقول "لا إله إلا الله محمدًا" رسول الله فيحرم بحده دون حاجة إلى بيان تفصيلي بمفرداته كالبدع سواء بسواء أو إن صح القول أن البدع تحرم بحدها مثلما يحرم الشرك بحده، كل ما فيه حد الشرك فهو حرام ويكفر به صاحبه وكل ما فيه حد البدع فهو حرام ولا يكفر به صاحبه إلا أن تكون البدعة بعينها كفرًا.

٦- إذا كان الشرك يحرم تباعًا لوجدنا تحريم عبادة الأصنام في العام الأول من البعثة وعبادة الملائكة في العام الثاني وعبادة الجن في العام الثالث وعبادة الكواكب في العام الرابع وعبادة النجوم في العام الخامس وعبادة المسيح وعزير في العام السادس وعبادة الأحبار والرهبان بعد الهجرة... إلخ. ولكن الشرك حرم جملة بحده بقوله لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله دون حاجة إلى العلم بمفرداته.

٧- الكفر والردة والجاهلية في الأمم السابقة كانت مسبوقة بإسلام، فالإسلام سابق منذ أن خلق الله آدم عليه السلام. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في تفسير قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾(٢) يقول شيخ الإسلام في "منهاج السنة": وقال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ يعني فاختلفوا

---

(١) الأعراف، آية: ٥٩.

(٢) البقرة، آية: ٢١٣.

كما في سورة يونس وكذلك في قراءة بعض الصحابة وهذا على قراءة الجمهور من الصحابة والتابعين أنهم كانوا على دين الإسلام. وفي تفسير ابن عطية عن ابن عباس أنهم كانوا على الكفر وهذا ليس بشيء وتفسير ابن عطية عن ابن عباس ليس بثابت عن ابن عباس بل ثبت عنه أنه قال كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام وقد قال في سورة يونس ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾(١) فذمّهم على الاختلاف بعد أن كانوا على دين واحد فعلم أنه كان حقًا. أهـ.

والذين كفروا بالشرك من اليهود والنصارى كفروا مع بقاء انتسابهم ومع بقاء دعواهم للإسلام ومع بقائهم على بعض شعائرهم وشرائعهم وتكاليفهم الشرعية، والحبران اللذان قال لهما رسول الله ﷺ: «أسلما فإنكما لم تسلما قالا له أسلمنا قبلك وقال لهما كذبتما يمنعكما من الإسلام استحلالكما الخنزير وقولكما المسيح بن الله وعبادتكما الصليب» أو كما قال ﷺ والذين يؤتيهم الله أجرهم مرتين من أهل الكتاب قالوا: ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾(٢) فصدقهم الله بما قالوا لأنهم كانوا فعلاً مسلمين ببقائهم على دين الحق الذي جاء به عيسى حتى اتبعوا محمدًا ﷺ يقول الله تعالى عنهم: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ۞وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ۞أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾(٣)، والله ﷻ يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(٤) ويقول عن غيرهم ممن بقي على نفس الانتساب ونفس الدعوى

---

(١) يونس، آية: ١٩.
(٢) القصص، آية: ٥٣.
(٣) القصص، آيات: ٥٢-٥٤.
(٤) البقرة، آية: ٦٢.

لكن مع التلبس بالشرك الذي كفروا بــه: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُــوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾(١)، وقال ﷻ: ﴿لَقَدْ كَفَــرَ الَّــذِينَ قَــالُوا إِنَّ اللَّــهَ ثَالِــثُ ثَلاَثَةٍ﴾(٢)، وقال ﷻ: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلاَ بِــالْيَوْمِ الآخِــرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَــرَّمَ اللَّهُ وَرَسُــولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنْ الَّــذِينَ أُوتُــوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾(٣) الآيات فلم يكن لهــم من الانتساب ودعوى الإسلام والبقاء على بعض الشرائع حصانة من الكفر مع التلبس بالشرك، ومن لم يتلبس منهم بشرك ظل على إسلامه وقــال الله عنه: ﴿لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(٤) لا فرق بين انتساب وانتــساب، أمتنا وأمة اليهود وأمة النصارى والصابئين وسائر الأمم لا يفيد الانتــساب شيئًا. الشرك هو الشرك والإسلام هو الإسلام.

(٤) باب "تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله"(٥):

قول الله تعالى: ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً﴾(٦) الآية. أكثر المفسرين على أنها نزلــت فــيمن يعبد المسيح وأمه والعزير والملائكة وقد نهى الله عن ذلك أشد النهي كما في هذه الآية من التهديد والوعيد على ذلك وهذا يدل على أن دعاءهم من دون الله شرك بالله ينافي التوحيد وينافي شــهادة أن لا إلــه إلا الله فــإن التوحيد أن لا يدعي إلا الله وحده وكلمة الإخلاص نفت هــذا الــشرك لأن دعوة غير الله تأليه وعبادة له والدعاء مخ العبادة.

قولــه تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمْ الْوَسِيلَةَ﴾(٧)

(١) المائدة، آية: ٧٢.
(٢) المائدة، آية: ٧٣ .
(٣) التوبة، آية: ٢٩.
(٤) يونس، آية: ٦٢.
(٥) فتح المجيد، ص ١٠٤.
(٦) الإسراء، آية: ٥٦.
(٧) الإسراء، آية: ٥٧.

قال في قرة العيون(١): «أي أولئك الذين يدعوهم أهل الشرك ممن لا يملك كشف الضر ولا تحويله من الملائكة والأنبياء والصالحين كالمسيح وأمه والعزير فهؤلاء دينهم التوحيد بخلاف من دعاهم من دون الله ووصفهم بقوله: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمْ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾. فيطلبون القرب من الله بالإخلاص له وطاعته فيما أمر وترك ما نهاهم عنه، وأعظم القُرَب (من الله) التوحيد الذي بعث الله به أنبياءه ورسله وأوجب عليهم العمل به والدعوة إليه وهذا الذي يقربهم إلى الله أي إلى عفوه ورضاه ووصف ذلك بقوله ﷻ: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ فلا يرجون أحدًا سواه ولا يخافون غيره وذلك هو توحيده لأن ذلك يمنعهم من الشرك ويوجب لهم الطمع في رحمة الله والهرب من عقابه. والداعي لهم والحالة هذه قد عكس الأمر وطلب منهم ما كانوا ينكرون من الشرك بالله في دعائهم لمن كانوا يدعونه من دون الله ففيه معنى قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾(٢) وفيه الرد على من ادعي أن شرك المشركين إنما هو بعبادة الأصنام. وتبين هذه الآية أن الله تعالى أنكر على من دعا معه غيره من الأنبياء والصالحين والملائكة ومن دونهم وأن دعاء الأموات والغائبين لجلب نفع أو دفع ضر هو من الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله وأن ذلك ينافي ما دلت عليه حكمة الإخلاص.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ۞إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾(٣) الآية. فتدبر كيف عبر الخليل عن هذه الكلمة العظيمة بمعناها الذي دلت عليه ووضعت له من البراءة من كل ما يعبد من دون الله من المعبودات في الخارج كالكواكب والهياكل

(١) قرة عيون الموحدين، طبعة دار الصحابة للتراث، ص ٤٩.
(٢) فاطر، آية: ١٤.
(٣) الزخرف، آية: ٢٦.

والأصنام التي صورها قوم نوح على صور الصالحين ود وسواع ويغوث ويعوق ونسرا وغيرها من الأوثان والأنداد التي يعبدها المشركون بأعيانها ولم يستثن من جميع المعبودات إلا الذي فطره وهو الله وحده لا شريك له. فهذا الذي دلت عليه كلمة الإخلاص مطابقة. كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ﴾(١). فكل عبادة يقصد بها غير الله من دعاء وغيره فهي باطلة وهو الشرك الذي لا يغفره الله، قال تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ۞ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ الآية(٢)، قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾(٣) الآية، وفي الحديث الصحيح أن النبيَّ ﷺ تلا هذه الآية على عديّ بن حاتم. فقال: يا رسول الله لسنا نعبدهم، قال: «أليس يحلون لكم ما حرَّم الله فتحلونه ويحرمون ما أحل الله فتحرمونه؟ قال: بلى. قال النبيّ ﷺ: فتلك عبادتهم». فصارت طاعتهم في هذه المعصية عبادة لغير الله وبها اتخذوهم أربابًا، كما هو الواقع في هذه الأمة وهذا من الشرك الأكبر المنافي للتوحيد الذي هو مدلول شهادة أن لا إله إلا الله فتبين بهذه الآية أن كلمة الإخلاص نفت هذا كله لمنافاته لمدلول هذه الكلمة فأثبتوا ما نفته من الشرك وتركوا ما أثبتته من التوحيد.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾(٤) الآية. فكل من اتخذ ندًا لله يدعوه من دون الله، ويرغب إليه، ويرجوه لما يؤمله منه من قضاء حاجاته، وتفريج كرباته، كحال عبَّاد القبور والطواغيت والأصنام فلابد أن يعظموهم ويحبوهم لذلك، فإنهم أحبوهم مع الله وإن

---

(١) لقمان، آية: ٣٠.
(٢) غافر، آية : ٧٣.
(٣) التوبة، آية:٣١.
(٤) البقرة، آية: ١٦٥.

كانوا يحبون الله تعالى ويقولون ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ ويصلون ويصومون. فاتخاذهم الأنداد يحبونهم كحب الله يبطل كل قول يقولونه، وكل عمل يعملونه، لأن المشرك لا يقبل منه عمل ولا يصح منه، وهؤلاء وإن قالوا "لا إله إلا الله" فقد تركوا كل قيد قيدت به هذه الكلمة العظيمة، من العلم بمدلولها، لأن المشرك جاهل بمعناها ومن جهله بمعناها جعل لله شريكًا في المحبة وغيرها، وهذا هو الجهل المنافي للعلم بما دلت عليه من الإخلاص، ولم يكن صادقًا في قولها لأنه لو عرف معناها وما دلت عليه لأنكره أو شك فيه ولم يقبله قوله تعالى:﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾[1] الآية. هذه الآية رد على من يدعو صالحًا ويقول أنا لا أشرك بالله شيئًا، الشرك عبادة الأصنام، قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ... ﴾[2] الآية. تبين أن معنى "لا إله إلا الله" توحيد الله بإخلاص العبادة له والبراءة من كل ما سواه.

قال المصنف رحمه الله: وذكر سبحانه أن هذه البراءة وهذه الموالاة هي شهادة "أن لا إله إلا الله" قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾[3] الآية. دلت الآية على أن من أطاع غير الله ورسوله، وأعرض عن الأخذ بالكتاب والسنة في تحليل ما حرَّم الله أو تحريم ما أحلَّه الله، وأطاعه في معصية الله، واتبعه فيما لم يأذن به الله فقد اتخذه ربًّا ومعبودًا. فكلمة الإخلاص "لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ" تنفي كل شرك في أي نوع كان من أنواع العبادة، وتثبت العبادة بجميع أفرادها لله تعالى. وقد تقدم بيان أن الإله هو المألوه أي المعبود الذي تؤلهه القلوب بالحب والتعظيم والطاعة وغيرها من أنواع العبادة فـ "لا إله إلا الله" نفت كل

---

(١) الإسراء، آية: ٥٦.

(٢) الزخرف، آية: ٢٦.

(٣) التوبة، آية: ٣١.

ذلك عن غير الله، وأثبتته لله وحده، فهذا ما دلت عليه كلمة الإخلاص مطابقة. فلابد من معرفة معناها واعتقاده وقبوله والعمل به باطنًا وظاهرًا. وفي الصحيح عن النبيّ ﷺ أنه قال: «من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حُرِّمَ ماله ودمه».

قال في "قرة العيون"[1]: «فيه دليل على أنه لا يحرم ماله ودمه إلا إذا قال: "لا إله إلا الله " وكفر بما يعبد من دون الله ، فإن قالها ولم يكفر بما يعبد من دون الله ، فدمه وماله حلال لكونه لم ينكر الشرك ويكفر به، ولم ينفه كما نفته "لا إله إلا الله"».

قلت "الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ": وفي الحديث معنى قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾[2]

قال المصنف رحمه الله تعالى[3]: وهذا من أعظم ما يبين معنى "لا إله إلا الله" فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصمًا للدم والمال، بل ولا معرفة معناها مع التلفظ بها، بل ولا الإقرار بذلك، ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له، بل لا يحرم ماله ودمه حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله فإن شك أو تردد لم يحرم ماله ودمه.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾[4] الآية، وقال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ...﴾[5] أمر بقتالهم حتى يتوبوا من الشرك ويخلصوا أعمالهم لله تعالى ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإن أبوا عن ذلك أو بعضه قوتلوا إجماعًا.

---

(١) قرة عيون الموحدين، طبعة دار الصحابة للتراث، ص ٥٤.
(٢) البقرة، آية: ٢٥٦.
(٣) المصدر السابق، ص ٥٧.
(٤) التوبة، آية: ٥.
(٥) الأنفال، آية: ٣٩.

وفي "صحيح مسلم": «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويؤمنوا بي وبما جئت به فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله». وفي الصحيحين: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله».

وهذان الحديثان تفسير الآيتين آية الأنفال وآية براءة وقد أجمع العلماء على أن من قال لا إله إلا الله ولم يعتقد معناها ولم يعمل بمقتضاها أنه يقاتل حتى يعمل بما دلت عليه من النفي والإثبات.

قلت "الشيخ عبد الرحمن بن حسن الشيخ": وأفاد الحديث أن الإنسان قد يقول لا إله إلا الله ولا يكفر بما يعبد من دون الله فلم يأت بما يعصم دمه وماله كما دلّ على ذلك الآيات المحكمات. قال المصنف الآيات والأحاديث السابقة فيها أكبر المسائل وأهمها[1]:

١- آية الإسراء بين فيها الرد على المشركين الذين يدعون الصالحين ففيها بيان أن هذا هو الشرك الأكبر ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ...﴾[2] الآية.

٢- آية براءة ﴿اتخذوا أحبارهم...﴾[3] الآية. بين أنهم لم يؤمروا إلا بأن يعبدوا إلهًا واحدًا مع أن تفسيرها الذي لا إشكال فيه طاعة العلماء والعباد في المعصية لادعاؤهم إياهم.

٣- قول الخليل ﷺ: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ...﴾[4] الآية. هذه البراءة وهذه الموالاة هى تفسير شهادة أن لا إله إلا الله.

---

(١) فتح المجيد، ص ١١٨.
(٢) الإسراء، آية: ٥٧.
(٣) التوبة، آية: ٣١.
(٤) الزخرف، الآيتان: ٢٦-٢٧.

٤- قولــه «من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله...» هذا من أعظم ما يبين معنى لا إله إلا الله.

فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصمًا للدم والمال بل ولا معرفة معناها مع التلفظ بها، بل ولا الإقرار بذلك بل ولا كونه لا يــدعو إلا الله وحــده لا شريك له، بل لا يحرم ماله ودمه حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله فإن شك أو توقف لم يحرم ماله ودمه.

(٥) باب "ما جاء في الذبح لغير الله"[(١)]:

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ۞لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[(٢)]. فالله تعالى أمر عباده بأن يتقربوا إليه بالنسك كما تعبدهم بالــصلاة وغيرهــا مــن أنــواع العبادات فإن الله أمرهم أن يخلصوا جميع أنواع العبادة له دون كل ما سواه.

قال في قرة العيون[(٣)]: إن هذه الآية دلــت علــى أن أقــوال العبــد وأعماله الباطنة والظاهرة لا يجوز أن يصرف منها شيء لغير الله كائنًــا من كان فمن صرف منها شيئًا لغير الله فقد وقع فيما نفاه الله تعــالى مــن الشرك بقوله سبحانه: ﴿وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ﴾[(٤)] والقرآن كله في تقريــر هذا التوحيد في العبادة وبيانه ونفي الشرك والبراءة منه[(٥)]. عن طارق بن شهاب أن رسول الله ﷺ قال: «دخل الجنة رجل في ذباب ودخــل النــار رجل في ذباب قالوا وكيف ذلك يا رسول الله ؟ قال مرَّ رجلان على قــوم لهم صنم لا يجوزه أحد حتي يقرب له شيئًا فقالوا لأحدهما قرِّب قال لــيس

(١) فتح المجيد، ص ١٥٤.
(٢) الأنعام، الآيتان: ١٦٢-١٦٣.
(٣) قرة عيون الموحدين، ص ٧٧.
(٤) يوسف، آية: ١٠٨.
(٥) فتح المجيد، ص ١٦١.

عندي شيء أقرب قالوا قرِّب ولو ذبابًا فقرب ذبابًا فخلوا سبيله فدخل النار وقالوا للآخر قرِّب فقال: ما كنت لأقرب لأحد شيئًا دون الله عــزَّ وجــل فضربوا عنقه فدخل الجنة» رواه أحمد.

وفي هذا الحديث التحذير من الوقوع في الشرك وأن الإنسان قد يقع فيه وهو لا يدري أنه من الشرك الذي يوجب النار. وفيه أنه دخل النــار بسبب لم يقصده ابتداءً وإنما فعله تخلصًا من شر أهل الصنم. وفيه أن هذا الرجل كان مسلمًا قبل ذلك وإلا فلو لم يكن مسلمًا لم يقل دخل النــار فــي ذباب. وفيه أن عمل القلب هو المقصود الأعظم حتى عند عبدة الأوثان.

قال في قرة العيون[1]: ... لأنه قصد غير الله بقلبه أو انقــاد بعملــه فوجبت له النار ففيه معنى حديث «من لقى الله لا يشرك به شــيئًا دخــل الجنة ومن لقيه يشرك به شيئًا دخل النار».

فإذا كان هذا فيمن قرب للصنم ذبابًا فكيف بمن يستسمن الإبل والبقــر والغنم ليتقرب بنحرها وذبحها لمن كان يعبده من دون الله من ميت أو غائب أو طاغوت أو مشهد أو شجر أو حجر أو غير ذلك. والمشركون في أواخر هذه الأمة يعدون ذلك أفضل من الأضحية في وقتها الذي شرعت فيه وربما اكتفي بعضهم بذلك عن أن يضحي لشدة رغبته وتعظيمه ورجائه لمن كــان يعبد من دون الله وقد عمت البلوى بهذا وما هو أعظم منه.

(٦) باب "من الشرك الاستعاذة بغير الله"[2]:

قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنْ الإنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِــنْ الْجِــنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾[3]. قلت: "الشيخ عبد الرحمن بن حسن": ... والاســتعاذة من العبادات التي أمر الله بها عباده. كما قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِــنْ

(١) قرة عيون الموحدين، ص ٨٠.
(٢) فتح المجيد، ص ١٧٨ .
(٣) الجن، آية ٦.

الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(١). فما كان عبادة لله فصرفه لغير الله شرك في العبادة فمن صرف شيئًا من هذه العبادات لغير الله فقد جعله شريكًا لله في عبادته ونازع الربِّ في إلهيته كما إن من صلي لله وصلي لغيره يكون عابدًا لغير الله ولا فرق.

قوله تعالى(٢): ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ...﴾(٣) الآية. قال شيخ الإسلام: أن دعاء العبادة مستلزم لدعاء المسألة، كما أن دعاء المسألة متضمن لدعاء العبادة. إلى أن يقول: إن كل أمر شرعه الله لعباده وأمرهم به ففعله لله عبادة فإذا صرف من تلك العبادة شيئًا لغير الله فهو مشرك مصادم لما بعث الله به رسوله من قوله ﴿قُلْ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾(٤).

قال شيخ الإسلام في "الرسالة السنية": «فإذا كان على عهد النبيّ ﷺ ممن انتسب إلى الإسلام من مرق منه مع عبادته العظيمة فليعلم أن المنتسب إلى الإسلام والسنة في هذه الأزمان قد يمرق أيضًا من الإسلام لأسباب منها الغلو في بعض المشايخ بل الغلو في على بن أبي طالب بل الغلو في المسيح، فكل من غلا في نبيٍّ أو رجل صالح وجعل فيه نوعًا من الإلهية مثل أن يقول يا سيدي فلاني انصرني أو أغثني أو ارزقني أو أنا في حسبك ونحو هذه الأقوال فكل هذا شرك وضلال يستتاب صاحبه فإن تاب وإلا قتل فإن الله تعالى إنما أرسل الرسل وأنزل الكتب ليعبد وحده لا شريك له ولا يدعي معه إله آخر والذين يدعون مع الله آلهة أخري مثل المسيح والملائكة والأصنام فلم يكونوا يعتقدون أنها تخلق الخلائق أو تنزل

---

(١) الأعراف، آية: ٢٠٠.

(٢) فتح المجيد، ص ١٨٥.

(٣) المائدة، آية: ٧٦.

(٤) الزمر، آية: ١٤.

المطر أو تنبت النبات وإنما كانوا يعبدونهم أو يعبدون قبـورهم أو يعبـدون صورهم يقولـون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَـى﴾(١)، ويقولـون: ﴿هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾(٢). فبعث الله سبحانه الرسل تنهي أن يدعي أحـد من دون الله لادعاء عباده ولا دعاء استغاثة، وقال أيضًا: من جعل بينه وبين الله وسائط يتوكل عليهم ويدعوهم ويسألهم كفر إجماعًا». أهـ.

وفي الرسالة السادسة للشيخ عبد الرحمن بن حـسن آل الـشيخ قـال رحمه الله(٣): «ما ذكرت من معرفتك جهل أكثر الناس بمعنى لا إلـه إلا الله وإن تكلموا بها لفظًا فقد أنكروها معنى فانتبه لأمور ستة أو سبعة لا يـسلم العبد من الكفر والنفاق إلا باجتماعها وباجتماعها والعمل بمقتـضاها يكـون العبد مسلمًا إذ لابد من مطابقة القلب للسان علمًا وعملاً واعتقـادًا وقبـولاً ومحبة وانقيادًا فلابد من العلم بها المنافي للجهل ولابد من الإخلاص المنافي للشرك ولابد من الصدق المنافي للكذب بخلاف المشركين والمنافقين ولابـد من اليقين المنافي للشك والريب فقد يقولها وهو شاك في مدلولها ومقتضاها ولابد من المحبة المنافية للكراهة ولابد من القبول المنافي للرد فقد يعـرف معناها ولا يقبله كحال مشركي العرب ولابد أيضًا من الانقياد المنافي للترك كترك مقتضياتها ولوازمها وحقوقها المصححة للإسلام والإيمان». أهـ.

لا دخول في حقيقة الإسلام لمن لم يتجرد عن الشرك ومن تلبس بـه ارتد وكفر به ومن مات عليه مات كافرًا مخلدًا في النار أبد الآباد لا يغفر الله له ومن أشرك في شيء واحد كمن أشرك في كل شيء حتي لو كـان هذا الشيء تقريب الذباب للصنم بغير قصد للكفر تخلصًا من أهل الـصنم ولا حصانة للمشرك لا بالانتساب ولا بدعوى الإسلام ولا بالإقامة علـى

---

(١) الزمر، آية: ٣.
(٢) يونس، آية: ١٨.
(٣) مجموعة الرسائل والمسائل، ج٢، قسم ٢ ، ص ٨١.

بعض الشرائع فإنه لا عمل يقبل ولا يصح مع الشرك ولا إله إلا الله لا تنفع صاحبها مع التلبس بالشرك تعطيه حصانة من الكفر مع التلبس، والمشرك ليس مسلمًا ولا دخول في حقيقة الإسلام بدون التوحيد وترك الشرك جملة وتفصيلاً .

أما حكم الإسلام فيثبت بطرقه الشرعية وهي ثلاث:

- التبعية: تثبت حكم الإسلام للرضيع الوليد بتبعية أبويه أو أفضلهما دينًا، وللقيط بتبعية الدار وكذلك للمجنون.
- الدلالة: لمن وجدناه يؤدي شعيرة تميز المسلم عن الكافر.
- النص: على التفصيل المذكور في كتب الفقه والذي ذكره الشوكاني في نيل الأوطار والذي سيأتي بيانه بالتفصيل عند الكلام عن الأحكام.

كذلك أحكام الردة لها ضوابطها في حالات الفرد والجماعات، مع مراعاة المقاصد الشرعية المختلفة، وبعد ثبوت البينات وإجراءات الاستتابة وإقامة الحجة وكل ما يتصل بهذا الشأن، وسيأتي الكلام عنه تفصيلاً. وليس كل من ثبت له حكم الإسلام يكون مسلمًا في الحقيقة ونفس الأمر، وأبيّن ما يدل على ذلك حال المنافقين تجري عليهم الأحكام الشرعية للمسلمين وهم كفار يعاملون معاملة المسلمين، ولهذه الأحكام والمعاملات تفصيلات أيضًا تذكر في حينها، وإنما أردنا هنا فقط أن نفرق بين الأمرين الدخول في حقيقة الإسلام: توحيد الألوهية المتضمن والمستلزم لتوحيد الربوبية، وإثبات حكم الإسلام: بالتبعية والدلالة والنص.

الباب الخامس

معنى الإيمان وحقيقة الكفر والشرك

المقابلة لحقيقة الإيمان والإسلام

• التلازم بين الظاهر والباطن في الإيمان وفساد مـذهب المرجئـة الذي لا يقول بهذا التلازم:

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية(١): «"فصل"، الوجه الثاني: مـن غلـط المرجئة ظنهم أن ما في القلب من الإيمان ليس إلا التـصديق فقـط دون أعمال القلوب كما تقدم عن جهمية المرجئة. الثالث ظنهم أن الإيمان الذي في القلب يكون تامًا بدون شيء من الأعمال.

ولهذا يجعلون الأعمال ثمرة الإيمان ومقتضاه بمنزلة الـسبب مـع المسبب ولا يجعلونها لازمة له والتحقيق أن إيمان القلب التام يستلزم العمل الظاهر بحسبه لا محالة وتمنع أن يقوم بالقلب إيمان تام بدون عمل ظاهر ولهذا صاروا يقدرون مسائل يمتنع وقوعها لعدم تحقق الارتباط الذي بـين البدن والقلب مثل أن يقولوا رجل في قلبه من الإيمان مثل ما في قلب أبي بكر وعمر وهو لا يسجد لله سجدة ولا يصوم رمضان ويزني بأمه وأخته ويشرب الخمر نهار رمضان يقولون: هذا مؤمن تام الإيمان فيبقي سـائر المؤمنين ينكرون هذا غاية الإنكار.

قال أحمد بن حنبل: حدثنا خلف بن حيان حدثنا معقل بـن عبيـد الله العبسى قال: قدم علينا سالم الأفطس بالإرجاء فنفر منه أصـحابنا نفـورًا شديدًا منهم ميمون بن مهران وعبد الكريم بن مالك فإنه عاهد الله ألا يؤيه وإياه سقف بيت إلا المسجد قال معقل: فحججت فدخلت على عطاء بن أبي رباح في نفر من أصحابي وهو يقرأ: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُـلُ وَظَنُّـوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾(٢). قلت إن لنا حاجة فأخْلنا ففعل فأخبرته أن قومًا قبلنا قـد أحدثوا وتكلموا وقالوا إن الصلاة والزكاة ليستا من الدين فقال: أو ليس الله

---

(١) كتاب الإيمان، ص ١٥٥.

(٢) يوسف، آية: ١١٠.

تعالى يقول: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾[1]. فالصلاة والزكاة من الدين قال فقلت إنهم يقولون ليس في الإيمان زيادة فقال: أو ليس قد قال الله تعالى فيما أنزل: ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾[2] هذا الإيمان فقلت إنهم انتحلوك وبلغني أن ابن ذر دخل عليك في أصحاب له فعرضوا عليك قولهم فقبلته فقلت هذا الأمر فقال: لا والله الذي لا إله إلا هو مرتين أو ثلاث ثم قال قدمت المدينة فجلست إلى نافع فقلت يا أبا عبد الله إن لي إليك حاجة فقال سر أم علانية فقلت لا بل سر قال رُبَّ سرٍ لا خير فيه قلت ليس من ذلك فلما صلينا العصر قام وأخذ بثوبي ثم خرج من الخوخة ولم ينتظر القاص فقال حاجتك قال فقلت أخلني هذا فقال تنح قال فذكرت له قولهم فقال قال رسول الله ﷺ : «أمرت أن أضربهم بالسيف حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوا لا إله إلا الله عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله» قال: قلت إنهم يقولون نحن نقر بأن الصلاة فرضٌ ولا نصلي وبأن الخمر حرام ونشربها وبأن نكاح الأمهات حرام ونحن ننكح فنثر يده من يدي وقال: "من فعل هذا فهو كافر"». أهـ.

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية[3]: «والشافعي رحمه الله كان معظمًا لعطاء بن أبي رباح ويقول ليس في التابعين أتبع للحديث منه وكذلك أبو حنيفة قال ما رأيت مثل عطاء، وقد أخذ الشافعي هذه الحجة عن عطاء فروي ابن أبي حاتم في مناقب الشافعي: حدثنا أبي حدثنا عبد الملك بن عبد الحميد الميموني حدثنا أبو عثمان بن محمد بن محمد الشافعي سمعت أبي يقول ليلة للحميدي ما يحتج عليهم يعني أهل الأرجاء بآية أحج من

(١) البينة، آية: ٥.
(٢) الفتح، آية: ٤.
(٣) كتاب الإيمان ، ص ١٥٨.

قولـــه ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾(١)،(٢).

وقال الشافعي في "الأم" في "باب النية في الصلاة": يحـــتج بـــأن لا تجزئ الصلاة إلا بنية بحديث عمر بن الخطاب عـــن النبـــيّ ﷺ: «إنمـــا الأعمال بالنيات» ثم قال: وكان الإجماع من الصحابة والتابعين من بعدهم ومن أدركناهم **يقولون: الإيمان: قول وعمل ونية لا يجزي**(٣) **واحد مـــن الثلاثة إلا بالآخر**. وقال حنبل: حدثنا الحميدى وآخرون أن أناسًا يقولـــون من أقر بالصلاة والزكاة والصوم والحج ولم يفعل من ذلك شـــيء حتـــى يموت ويصلي مستدبر القبلة حتى يموت فهو مؤمن ما لم يكن جاحـــدًا إذا علم أن تركه ذلك غير إيمانه إذا كان مقرًا بالفرائض واستقبال القبلة فقلت هذا الكفر الصراح وخلاف كتاب الله وسنة رسوله وعلماء المسلمين قـــال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ...﴾(٤). وقال حنبـــل سمعت أبا عبد الله أحمد بن حنبل يقول من قال هذا فقد كفر بالله وردَّ على الله أمره وعلي الرسول ما جاء به». أهـــ.

ويقول شيخ الإسلام(٥): «فإن الإيمان أصله الإيمان الذي في القلـــب ولابد فيه من شيئين: تصديق القلب وإقراره ومعرفته ويقال لهذا قول القلب قال الحسن بن محمد التوحيد قول القلب والتوكل عمل القلب، فلابد فيه من

---

(١) البينة، آية: ٥.

(٢) الدين لا يكون دينًا إلا بعمل أي إذا كان توحيد العبادة وهو الذي اقتـــصر الأمـــر عليه في الآية فلا يمكن أن يخلو عنه الإيمان الذي لا يقبل العمل ولا يصح إلا به ويصير قولاً بلا عمل وفي هذا إبطال لقول المرجئة.

(٣) هكذا الإيمان المجمل فلابد فيه من هذا الـــتلازم والإيمـــان الواجـــب والإيمـــان الكامـــل والمستحب، أي مرتبة من مراتب الإيمان تتخلف بتخلف واحد من أركانه الثلاثـــة ولكـــن الإسلام يتخلف بتخلف الإيمان المجمل ولا يتخلف بتخلف الإيمان الكامل أو الواجب.

(٤) البينة، آية: ٥.

(٥) كتاب الإيمان، ص ١٤٠.

قول القلب وعمله ثم قول البدن وعمله، ولابد فيه من عمل القلب مثل حب الله ورسوله وخشية الله وحب ما يحبه الله ورسوله وبغض ما يبغض الله ورسوله وإخلاص العمل لله وحده وتوكل القلب على الله وحده وغير ذلك من أعمال القلوب التي أوجبها الله ورسوله وجعلها من الإيمان، ثم القلب هو الأصل فإذا كان فيه معرفة وإرادة سرى ذلك إلى البدن بالضرورة ولا يمكن أن يتخلف البدن عما يريده القلب ولهذا قال النبيّ ﷺ في الحديث الصحيح: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ألا وهي القلب». وقال أبو هريرة: "القلب ملك والأعضاء جنوده فإذا طاب الملك طابت جنوده وإذا خبث الملك خبثت جنوده". وقول أبي هريرة تقريب وقول النبيّ ﷺ أحسن بيانًا فإن الملك وإن كان صالحًا فالجند لهم اختيار وقد يعصون به ملكهم وبالعكس فيكون فيهم صلاح مع فساده أو فساد مع صلاحه بخلاف القلب فإن الجسد تابع له لا يخرج عن إرادته قط كما قال النبيّ ﷺ: «إذا صلحت صلح لها سائر الجسد وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد». فإذا كان القلب صالحًا بما فيه من الإيمان علمًا وعملاً قلبيًا لزم ضرورة صلاح الجسد بالقول الظاهر والعمل بالإيمان المطلق كما قال أهل الحديث قول وعمل، قول باطن وظاهر وعمل باطن وظاهر والظاهر تابع للباطن لازم له متي صلح الباطن صلح الظاهر وإذا فسد فسد ولهذا قال من قال من الصحابة عن المصلي العابث: "لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه".

فلابد في إيمان القلب من حب الله ورسوله وأن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما قال تعالى: ﴿وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾[1]. فوصف الذين آمنوا بأنهم

---

(١) البقرة، آية: ١٦٥.

أشد حبًا لله من المشركين لأندادهم. وفي الآية قولان: قيل يحبونهم كحب المؤمنين لله والذين آمنوا أشد حبًا لله منهم لأندادهم، وقيل يحبونهم كما يحبون الله والذين آمنوا أشد حبًا لله منهم لله وهذا هو الصواب، والأول قول متناقض وهو باطل فإن المشركين لا يحبون الأنداد مثل محبة المؤمنين لله وتستلزم المحبة الإرادة والإرادة التامة مع القدرة التامة تستلزم الفعل، فيمتنع أن يكون الإنسان محبًا لله ورسوله مريدًا لما يحبه الله ورسوله إرادة جازمة مع قدرته على ذلك وهو لا يفعله، فإذا لم يتكلم الإنسان بالإيمان مع قدرته دل على أنه ليس في قلبه الإيمان الواجب الذي فرضه الله عليه. ومن هنا يظهر خطأ قول جهم بن صفوان ومن اتبعه، حيث ظنوا أن الإيمان مجرد تصديق القلب وعلمه ولم يجعلوا أعمال القلب من الإيمان، وظنوا أنه قد يكون الإنسان مؤمناً كامل الإيمان بقلبه وهو مع هذا يسبّ الله ورسوله ويعادي الله ورسوله ويعادي أولياء الله ويوالي أعداء الله ويقتل الأنبياء ويهدم المساجد ويهين المصحف ويكرم الكفار غاية الكرامة ويهين المؤمنين غاية الإهانة، قالوا وهذه كلها معاصي لا تنافي الإيمان الذي في قلبه، بل يفعل هذا وهو في الباطن عند الله مؤمن. وقالوا إنما تثبت له في الدنيا أحكام الكفار لأن هذه الأقوال أمارة على الكفر فيحكم بالظاهر، كما يحكم بالإقرار والشهود وإن كان في الباطن قد يكون بخلاف ما أقر به وبخلاف ما شهد به الشهود. فإذا أورد عليهم الكتاب والسنة والإجماع على أن الواحد من هؤلاء كافر في نفس الأمر معذب في الآخرة قالوا: فهذا دليل على انتفاء التصديق والعلم من قلبه فالكفر عندهم شيء واحد وهو الجهل والإيمان شيء واحد وهو العلم أو تكذيب القلب وتصديقه فإنهم متنازعون هل تصديق القلب شيء غير العلم أو هو هو؟ وهذا القول مع أنه أفسد قول قيل في الإيمان فقد ذهب إليه كثير من أهل الكلام والمرجئة وقد كفَّر السلف كوكيع بن الجراح وأحمد ابن حنبل وأبي

عبيد وغيرهم من يقول بهذا القول وقالوا إبليس كافر بنص القرآن وإنما كُفره باستكباره وامتناعه عن السجود لآدم لا لكونه كذَّب خبرًا وكذلك فرعون وقومه قال الله فيهم: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾(١)، وقال موسى لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاَء إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَافِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾(٢). فموسى وهو الصادق المصدوق يقول: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاَء إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ﴾. فدلَّ على أن فرعون كان عالمًا بأن الله أنزلَ الآيات وهو من أكبر خلق الله عنادًا وبغيًا لفساد إرادته وقصده لا لعدم علمه، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُفْسِدِينَ﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾(٤)، وكذلك اليهود الذين قال الله فيهم: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾(٥). وكذلك المشركين الذين قال الله فيهم: ﴿فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾(٦)».

يقول شيخ الإسلام(٧): «وقد علمنا بالاضطرار أن اليهود وغيرهم كانوا يعرفون أن محمدًا رسول الله وكان يحكم بكفرهم فقد علمنا من دينه ضرورة أنه يكفَّر الشخص مع ثبوت التصديق بنبوته في القلب إذا لم يعمل بهذا التصديق بحيث يحبه ويعظمه ويسلم لما جاء به.

---

(١) النمل، آية: ١٤.
(٢) الإسراء، آية: ١٠٢.
(٣) القصص، آية: ٤.
(٤) النمل، آية: ١٤.
(٥) البقرة، آية: ١٤٦.
(٦) الأنعام، آية: ٣٣.
(٧) الإيمان، ص ٢٧٧.

ويقول: ذكر الخطابي في "شرح البخاري" كلامًا يقتضي تلازمهما مع افتراق اسميهما وذكره البغوي في "شرح السنة" فقال قد جعل النبيُّ ﷺ الإسلام اسمًا لما ظهر من الأعمال وجعل الإيمان اسمًا لما بطن من الاعتقاد وليس ذلك لأن الأعمال ليست من الإيمان أو لأن التصديق بالقلب ليس من الإسلام بل ذلك تفصيل لجملة واحدة هى كلها شيء واحد وجماعها الدين ولذلك قال النبيّ ﷺ: «هذا جبريل جاءكم يعلمكم دينكم» والتصديق والعمل يتناولهما اسم الإسلام والإيمان جميعًا يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ﴾(١)، وقوله ﷻ: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمْ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾(٢)، وقوله ﷻ: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾(٣). فبين أن الدين الذي رضيه ويقبله من عباده هو الإسلام ولا يكون الدين في محل الرضا والقبول إلا بانضمام التصديق إلى العمل». أهـ.

- **لابد من ترك القول المخالف والإتيان بالقول الموافق:**

يقول شيخ الإسلام في(٤): «وأما الشبهة الثانية فجوابها من ثلاث أوجه:

أحدها: أن من تكلم بالتكذيب والجحد وسائر أنواع الكفر من غير إكراه على ذلك فإنه يجوز أن يكون في ذلك في نفس الأمر مؤمنًا ومن جوَّز هذا فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه.

الثاني: أن الذي عليه الجماعة إن من لم يتكلم بالإيمان بلسانه من غير عذر لم ينفعه ما في قلبه من المعرفة وإن القول من القادر عليه شرط في صحة(٥) الإيمان حتى اختلفوا في تكفير من قال: إن المعرفة تنفع من غير عمل الجوارح.

---

(١) آل عمران، آية: ١٩.
(٢) المائدة، آية: ٣.
(٣) آل عمران، آية: ٨٥.
(٤) الصارم المسلول، ص ٤٦١.
(٥) قد مرَّ الكلام على هذا في الكلام عن حقيقة الإيمان فلا داعي للتكرار نقلاً عن الفتاوى وغيرها

الثالث: أن من قال: أن الإيمان مجرد معرفة القلب من غير احتياج إلى النطق باللسان، يقول: لا يفتقر الإيمان في نفس الأمر إلى القول الذي يوافقه باللسان، لا يقول أن القول الذي ينافي الإيمان لا يبطله فإن القول قولان: قول يوافق تلك المعرفة وقول يخالفها فهب أن القول الموافق لا يشترط لكن القول المخالف ينافيها فمن قال بلسانه كلمة الكفر من غير حاجة عامدًا لها عالمًا بأنها كلمة كفر فإنه يكفر بذلك ظاهرًا وباطنًا ولا يجوز أن يقال: إنه في الباطن يجوز أن يكون مؤمنًا ومن قال ذلك فقد مرق من الإسلام قال سبحانه: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنْ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(١). ومعلوم أنه لم يرد بالكفر هنا اعتقاد القلب فقط لأن ذلك لا يكره الرجل عليه وهو قد استثنى من أكره ولم يُرد من قال واعتقد لأنه استثني المكره وهو لا يكره على العقد والقول وإنما يكره على القول فقط، فعلم أنه أراد من تكلم بكلمة الكفر فعليه غضبٌ من الله وله عذاب عظيم وأنه كافر بذلك إلا من أكره وهو مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدرًا من المكرهين فإنه كافر أيضًا فصار من تكلم بالكفر كافرًا إلا من أكره فقال بلسانه كلمة الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان وقال تعالى في حق المستهزئين: ﴿لاَ تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾(٢). فبيَّن أنهم كفار بالقول مع بيان أنهم لم يعتقدوا صحته وهذا باب واسع والفقه فيه ما تقدم من أن التصديق بالقلب يمنع إرادة التكلم وإرادة فعل فيه استهانة واستخفاف كما أنه يوجب المحبة والتعظيم واقتضاؤه وجود هذا وعدم هذا أمر جرت به سنة الله في مخلوقاته كاقتضاء إدراك الموافق للذة وإدراك المخالف للألم، فإذا عدم المعلول كان مستلزمًا لعدم العلة وإذا وجد الضد كان مستلزمًا لعدم الضد الآخر فالكلام

---

(١) النحل، آية: ١٠٦.

(٢) التوبة، آية: ٦٦.

والفعل المتضمن للاستخفاف والاستهانة مستلزم لعدم التصديق النافع ولعـدم الانقياد والاستسلام ولذلك كان كفرًا». أهـ.

وإكراه الإجبار يفسد الإرادة فيمنع وقوع الفعل ويرفع تكييفه الشرعي وهو مرتبط برخصة «إنْ عادوا فعد» والأصل فيه الإيمان قـولاً وعمـلاً ظاهرًا وباطنًا والقول والعمل المخالف وقع باطلاً فكأنه لم يقع ولا تأثير له بانتفاء الإرادة وباعتبار الأقوال والأفعال في هذه الحالة كأفعال العجماوات والجمادات ليس لها تكييف شرعي. وإكراه التهديد يستجاب فيه في الأقوال فقط إذا كان ملجئًا لأن الأقوال لا تقتضي أثرها بالضرورة، فـيمكن فيهـا التقية "ليس التقية بالعمل وإنما التقية باللسان" والأعمال تقتـضي أثرهـا بالضرورة فلا يمكن فيها التقية، ولذلك لا يستجاب فيها للإكراه في أعمال الكفر "حديث الذباب" من رفض تقريب شيء قتل ومن قرَّب ذبابًا لينجـو بنفسه من القتل كفر، كذلك لا يجوز التحول عن الدين بعد إعلانه ﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾(١)، ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا﴾، «لا تشرك بـالله وإنْ قُتلت وحُرقت» وأما قبل الإعلان فيجوز للمسلم أن يكتم إيمانه ولكن كتمان الدين الحق شيء وإظهار الدين الباطل شيء آخر.

يقول شيخ الإسلام في هذا(٢): «وأما قوله تعالى: ﴿إِلاَّ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾(٣). قال مجاهد إلا مصانعة، والتقاة ليست بأن أكذب وأقول بلساني ما ليس في قلبي فإن هذا نفاق ولكن أفعل ما أقدر عليه كما في الصحيح عن النبيّ ﷺ: «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان». فالمؤمن إذا كان بين الكفار والفجار لم يكن عليه أن يجاهدهم بيده مع عجزه ولكن إذا أمكنه بلسانه وإلا فبقلبـه مع أنه لا يكذب ويقول بلسانه ما ليس في قلبه إمَّا أن يظهر دينه وإمـا أن

(١) الأعراف، آية: ٨٩.
(٢) منهاج السنة، ج٣، ص ٢٦٠.
(٣) آل عمران، آية: ٢٨.

يكتمه وهو مع هذا لا يوافقهم على دينهم كله بل غايته أن يكون كمؤمن آل فرعون وامرأة فرعون وهو لم يكن موافقًا لهم على جميع دينهم ولا كان يكذب ولا يقول بلسانه ما ليس في قلبه بل كان يكتم إيمانه وكتمان الدين شيء وإظهار الدين الباطل شيء آخر فهذا لم يبحه الله قط إلا لمن أكره بحيث أبيح له النطق بكلمة الكفر والله تعالى قد فرَّق بين المنافق والمكره، والرافضة حالهم من جنس حال المنافقين لا من جنس حال المكره الذي أكره على الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان فإن هذا الإكراه لا يكون عامًا من جمهور بني آدم بل المسلم يكون أسيرًا في بلاد الكفر ولا أحد يكرهه على كلمة الكفر ولا يقولها ولا يقول بلسانه ما ليس في قلبه وقد يحتاج إلى أن يلين لناس من الكفار ليظنوه منهم وهو مع هذا لا يقول بلسانه ما ليس في قلبه بل يكتم ما في قلبه، وفرقٌ بين الكذب وبين الكتمان فكتمان ما في النفس يستعمله المؤمن حيث يعذره الله تعالى في الإظهار كمؤمن آل فرعون أما الذي يتكلم بالكفر فلا يعذره إلا إذا أكره، والمنافق الكذاب لا يعذر بحال ولكن في المعاريض مندوحة من الكذب». أهـ.

ويقول شيخ الإسلام(١): «وهذا نبيُّ الله ﷺ كان بمكة هو وأصحابه في غاية الضعف ومع هذا فكانوا يباينون الكفار ويظهرون مباينتهم بحيث يعرف المؤمن من الكافر وكذلك هاجر من هاجر منهم إلى أرض الحبشة مع ضعفهم وكانوا يباينون النصارى». أهـ.

فالذي يكتم إيمانه ينطق بالشهادتين ويقرأ القرآن ويذكر الله ويغتسل من الجنابة ويتوضأ للصلاة يفعل كل ذلك فيقع فيه القول والعمل الظاهر الموافق لما في نفسه ولكن لا يظهره للناس. والذي يكتم إيمانه لا يقع في القول المخالف ولا يترك القول الموافق بينه وبين نفسه وبينه وبين الله بل يصوم ويصلي.

---

(١) منهاج السنة، ج٤، ص ١٠٨.

ونحن نتكلم هنا عن حقيقة الإيمان والإسلام أي بين المرء ونفسه وبينه وبين الله ولا يعنينا هنا حكمه على غيره وحكم غيره عليه فهذه مسألة أخري لها ضوابطها سوف نتعرض لها فيما بعد فلا الإكراه يمنع الإقرار مع التصديق ولا العجز أيضًا فإذا فقد الإنسان القدرة على النطق بل إذا فقد حاسة النطق والسمع والبصر وبقي له إدراكه وحاسة اللمس استطاع أن يعبر عما في نفسه والصلاة يقوم بها المؤمن بالإيماء حتى وهو في حالات الاحتضار ويقَدِّر في نفسه حركاتها والإكراه على كلمة الكفر والإجبار على أي شيء كان مؤقت طارئ أما الموقف الدائم بعيدًا عن حالات الإجبار التي لا يمكن أن تستمر دومًا «فلا تشرك بالله وإن قطعت وحرقت»، «ودخل رجل النار في ذبابة» ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا﴾[1] لابد في ذلك من موافقة ما في النفس بالقول والعمل الموافق وإلا أصبح الإيمان حديث نفس وخواطر قلب أو انقلب إلى شك أو ذهب بالكلية، عرف ثم أنكر، فالإيمان لا يستقر مع القلب كقيم ثابتة إلا بالعمل الظاهر، وبغيره يصير حديث نفس وخواطر قلب وهذا هو معنى ليس الإيمان بالتمني.

يقول شيخ الإسلام[2]: «وقول القائل المحبة للإحسان محبة العامة وتلك محبة الخاصة ليس بشيء، بل كل مؤمن يحب الله لذاته ولو أنكر ذلك بلسانه ومن لم يكن الله ورسوله أحب إليه مما سواهما لم يكن مؤمنًا ومن قال: إنِّي لا أجد هذه المحبة في قلبي لله ورسوله فأحد الأمرين لازمه. إما أن يكون صادقًا في هذا الخبر فلا يكون مؤمنًا فإن أبا جهل وأبا لهب وأمثالهما إذا قالوا ذلك كانوا صادقين في هذا الخبر وهم كفَّار أخبروا عما في نفوسهم من الكفر مع أن هؤلاء في قلوبهم محبة الله لكن مع الشرك به فإنهم اتخذوا من دون الله أندادًا يحبونهم كحبِّ الله ولهذا

---

(١) الأعراف، آية: ٨٩.

(٢) منهاج السنة، ج٣، ص ٩٩-١٠١.

أبغضوا الرسول وعادوه لأنه دعاهم إلى عبادة الله وحده ورفض ما يحبونه معه فنهاهم أن يحبوا شيئًا كحبِّ الله فأبغضوه على هذا فقد يكون بعض هؤلاء المشركين الذين اتخذوا من دون الله أندادًا يحبونهم كحبِّ الله يفضل ذلك الندّ على الله في أشياء، وهؤلاء قد يعلمون أن الله عزَّ وجل أجل وأعظم لكن تهوى نفوسهم ذلك الند أكثر والربُّ تعالى إذا جعل من يحب الأنداد كحبه مشركين، فمن أحب الند أكثر كان أعظم شركًا وكفرًا، كما قال تعالى: ﴿وَلاَ تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾(١). فلولا تعظيمهم لآلهتهم على الله لما سبُّوا الله إذا سُبَّت آلهتهم وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنْ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾(٢). وقال أبو سفيان يوم أحد: أعل هبل أعل هبل فقال ﷺ:« ألا تجيبوه؟ قالوا: وما نقول؟ قال: قولوا: الله أعلى وأجل. وقال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم. فقال ﷺ: ألا تجيبوه. قالوا: وما نقول؟ قال: قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم».

ويوجد كثير من الناس يحلف بند جعله لله وينذر له ويوالي في محبته ويعادي من يبغضه ويحلف به فلا يكذب ويوفي بما ينذره له وهو يكذب إذا حلف بالله ولا يوفي بما نذره لله ولا يوالي في محبة الله ولا يعادي في الله كما يوالي ويعادي لذلك الند، فمن قال إني لا أجد في قلبي أن الله أحبّ إلى مما سواه فأحد الأمرين لازم إما أن يكون صادقًا فيكون كافرًا مخلدًا في النار من الذين اتخذوا من دون الله أندادًا يحبونهم كحبِّ الله، وإما أن يكون غالطًا في قوله لا أجد في قلبي هذا والإنسان قد يكون في قلبه معارف وإرادات ولا يدري أنها في قلبه فوجود الشيء في القلب شيء

(١) الأنعام، آية: ١٠٨.
(٢) الأنعام، آية: ١٣٦.

والدراية به شيء آخر، ولهذا يوجد الواحد من هؤلاء يطلب تحصيل ذلك في قلبه وهو حاصل في قلبه فتراه يتعب تعبًا كثيرًا لجهله، وهذا كالموسوس في الصلاة فإن كل من فعل فعلاً باختياره وهو يعلم ما يفعله فلابد أن ينويه ووجود ذلك بدون النية التي هى الإرادة ممتنع.

إلى أن يقول: وكذلك كثير من المعارف قد يكون في نفس الإنسان ضروريًا وفطريًا وهو يطلب الدليل عليه لإعراضه عما في نفسه وعدم شعوره بشعوره فهكذا كثير من المؤمنين يكون في قلبه محبة الله ورسوله وقد نظر في كلام الجهمية والمعتزلة نفاة المحبة واعتقد ذلك قولاً صحيحًا لما ظنه من صحة شبهاتهم أو تقليدًا لهم فصار يقول بموجب ذلك الاعتقاد وينكر ما في نفسه. إلى أن يقول: وقد ثبت في الصحيحين عن النبيّ ﷺ أنه قال: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبّ إليه من ولده ووالده والناس أجمعين». وما من مؤمن إلا وهو يجد في قلبه للرسول من المحبة ما لا يجد لغيره حتى أنه إذا سمع محبوبًا له من أقاربه أو أصدقائه يسب الرسول هان عليه عداوته ومهاجرته بل وقتله لحب الرسول وإن لم يفعل ذلك لم يكن مؤمناً قال تعالى: ﴿لاَ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمْ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾(١). بل قد قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾(٢). فتوعد من كان الأهل والمال أحبَّ إليه من الله ورسوله والجهاد في سبيله وفي الصحيحين عنه ﷺ: «ثلاث من كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان مَنْ كان

(١) المجادلة، آية: ٢٢.
(٢) التوبة، آية: ٢٤.

اللهُ ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما ومن كان يحبُّ المــرء لا يحبــه إلا لله ومَنْ كان يكره أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقــي في النار» ثبت في الصحيحين عن النبيّ ﷺ أنه قال: «كل مولودٍ يولد على الفطرةِ» وفي "صحيح مسلم" عنه أنه قال: «يقول الله تعالى: خلقتُ عِبَادي حُنَفَاءً فاجْتَالتْهُم الشَّيَاطِينُ وحرَّمَتْ عليهم مــا أحْلَلْــتُ لهــم وأمــرتْهُم أن يُشركوا بي ما لم أنزِّلْ به سلطانًا» فالله فطر عباده علــى الحنيفيــة ملــة إبراهيم وأصلها محبة الله وحده فما من فطرة لم تفسد إلا وتجد فيها محبة الله تعالى لكن قد تفسد الفطرة إما: لكبر وغرض فاسد كما في فرعــون، وإما بأن يشرك معه غيره في المحبة كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ النَّــاسِ مَــنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾(١).

وأما أهل التوحيد الذين يعبدون الله مخلصين له الدين فإن في قلوبهم محبة الله لا يماثله فيها غيره ولهذا كان الربُّ محمودًا حمدًا مطلقًا على كل ما فعله وحمدًا خاصًا على إحسانه إلى الحامد فهذا حمــد الــشكر والأول حمده على كل ما عمله كما قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾(٢). والحمد ضد الــذم والحمــد خبــر بمحاســن المحمود مقرون بمحبته والذم خبر بمساوي المذموم مقرون ببغــضه ولا يكون حمد المحمود إلا مع محبته ولا يكون ذم المذموم إلا مع بغــضه... فلا تكون عبادة إلا بحب المعبود ولا يكون حمدًا إلا بحب المحمود وهــو سبحانه المعبود المحمود وفي "صحيح مسلم" «أفضل ما قلتُ أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير» فجمع بين التوحيد والتحميد». أهـــ.

---

(١) البقرة، آية: ١٦٥.

(٢) الأنعام، آية: ١.

واضح من كلام شيخ الإسلام أن ما في الباطن لا يستقر كيفين إلا بالعمل الظاهر ولا ينضبط من حيث وقوعه ومن حيث الدراية به إلا بالعمل الظاهر والأعمال أصدق تعبير للإنسان عما في نفسه من شعوره هو لشعوره أو من تعبيره عنه.

يقول شيخ الإسلام(١): «ولا فرق بين من يعتقد أن الله ربُّه وأن الله أمره بهذا الأمر ثم يقول أنه لا يطيعه لأن أمره ليس بصواب ولا سداد وبين من يعتقد أن محمدًا رسول الله وأنه صادق واجب الاتباع في خبره وأمره ثم يسبه أو يعيب أمره أو شيئًا من أحواله أو تنقص انتقاصًا لا يجوز أن يستحقه الرسول وذلك أن الإيمان قول وعمل فمن اعتقد الوحدانية في الألوهية لله سبحانه وتعالى والرسالة لعبده ورسوله ثم لم يتبع هذا الاعتقاد موجبه من الإجلال والإكرام الذي هو حال في القلب يظهر أثره على الجوارح بل قارنه الاستخفاف والتسفيه والازدراء بالقول أو بالفعل كان وجود ذلك الاعتقاد كعدمه وكان ذلك موجبًا لفساد ذلك الاعتقاد ومزيلاً لما فيه من المنفعة والصلاح إذ الاعتقادات الإيمانية تزكي النفوس وتصلحها فمتي لم توجب زكاة النفس ولا صلاحها فما ذاك إلا لأنها لم ترسخ في القلب ولم تصر صفة ونعتًا للنفس ولا صلاحًا وإذا لم يكن علم الإيمان المفروض صفة لقلب الإنسان لازمة له لم ينفعه فإنه يكون بمنزلة حديث النفس وخواطر القلب، والنجاة لا تحصل إلا بيقين في القلب ولو أنه مثقال ذرة(٢) هذا فيما بينه وبين الله أما في الظاهر فتجرى الأحكام على ما يظهره من القول والفعل». أهـ.

---

(١) الصارم المسلول، ص ٣٢٤.

(٢) زيادة على التوحيد.

ويقول شيخ الإسلام[1]: «أحدها: أن الإيمان وإن كان أصله تصديق القلب فذلك التصديق لابد أن يوجب حالاً في القلب وعملاً له وهو تعظيم الرسول وإجلاله ومحبته فإذا لم تحصل هذه الحال والعمل في القلب لم ينفع ذلك التصديق ولم يغن شيئًا وإنما يمتنع حصوله إذا عارضه معارض من حسد الرسول أو التكبر عليه أو الإهمال له وإعراض القلب عنه ومتي حصل المعارض كان وجود ذلك التصديق كعدمه بل يكون ذلك المعارض موجبًا لعدم المعلول الذي هو حال في القلب وبعدمه يزول التصديق الذي هو العلة فينقلع الإيمان بالكلية من القلب وهذا هو الموجب لكفر من حسد الأنبياء أو تكبر عليهم أو كره فراق الإلف والعادة مع علمه بأنهم صادقون وكفرهم أغلظ من كفر الجهَّال». أهـ.

ويقول[2]: «واعلم أن الإيمان وإن قيل هو التصديق فالقلب يصدق بالحق والقول يصدق ما في القلب والعمل يصدق القول والتكذيب بالقول مستلزم التكذيب بالقلب ورافع للتصديق الذي كان في القلب إذ أعمال الجوارح تؤثر في القلب كما أن أعمال القلب تؤثر في الجوارح». أهـ.

ويقول شيخ الإسلام ردًا على المرجئة: «وأما قولهم أن الله قد فرَّق بين الإيمان والعمل الصالح في مواضع فهذا صحيح وقد بينَّا أن الإيمان إذا أطلق أدخل الله ورسوله فيه الأعمال المأمور بها وقد يقرن بالأعمال وذكرنا نظائر لذلك كثيرة وذلك لأن أصل الإيمان ما في القلب والأعمال الظاهرة لازمة لذلك ولا يتصور وجود إيمان القلب الواجب مع عدم جميع أعمال الجوارح بل متي نقصت الأعمال الظاهرة كان لنقص الإيمان الذي في القلب فصار الإيمان متناولاً للملزوم واللازم». أهـ.

---

(١) الصارم المسلول، ص ٤٥٧.

(٢) المصدر السابق، ص ٤٦٣.

ويقول شيخ الإسلام بعد أن يقرر أنه يمتنع تكليف الإنسان أن يعتقد خلاف ما يعلمه وإن طلب كذب نفساني يخالف العلم لا يمكن التكليف به إذ هو أمر لا حقيقة له يقول: «ولهذا(١) لما قسم الأولون والآخرون العلم إلى تصور وتصديق وجعلوا التصور هو العلم بالمفردات الذي هو مجرد تصورها والتصديق العلم بالمركبات الخبرية من النفي والإثبات فسموا العلم بذلك تصديقًا وجعلوا نفس العلم هو نفس التصديق ولو كان في النفس تصديق لتلك القضايا الخبرية ليس هو العلم لوجب الفرق بين العلم بها وتصديقها ولا ريب أن هذا العلم والتصديق قد يعتقده الإنسان فيعقله ويضبطه ويلتزم بموجبه وقد لا يعتقده ولا يعقله ولا يضبطه ولا يلتزم بموجبه فالأول هو المؤمن والثاني هو الكافر. إذا كان ذلك فيما جاءت به الرسل عن الله فليس كل من علم شيئًا عقله واعتقده أي ضبطه وأمسكه والتزم موجبه كما أنه ليس كل من اعتقد شيئًا كان عالمًا به فلفظ العقد والاعتقاد شبيه بلفظ العقل والاعتقال ومعنى كل منهما يجامع العلم تارة ويفارقه أخري فمن هنا قد يتوهم أن في النفس خبرًا غير العلم ولفظ العقد والعقل لما كان جاريًا على من يمسك العلم فيعيه ويحفظه تارة ويعمل بموجبه كان مشعرًا بأنه يوصف بذلك تارة وبضده تارة وهو الخروج عن العلم وعن موجبه وقد يستعمل اللفظ فيمن يمسك بما ليس بعلم ومن هذين الوجهين امتنع أن يوصف الله بالاعتقاد فإنه سبحانه وتعالى عالم لا يجوز أن يفارقه علمه ولا يعتقد ما ليس بعلم فوصفه به يدل على جواز وصفه بضد العلم ولفظ الفقه والفهم كلاهما يستلزم علمًا مسبوقًا بعدمه وهذا في حق الله ممتنع». أهـ.

معنى الإيمان وكيف يوجد:

العلم وهو معرفة الشيء على ما هو عليه أو إدراكه على ما هو عليه وإذا عقله الإنسان فاعتقده وأمسكه وضبطه تحول إلى عقيدة راسخة

---

(١) الفتاوى الكبرى، ج٥، ص ٢٠١.

ويقين جازم وذلك إذا صادف العلم محلاً قابلاً أما إذا لم يـصادف محـلاً قابلاً فإنه يتحول إلى حديث نفس وخواطر قلب أو ينقلب إلى شك أو ينقلع بالكلية وهذا العلم إذا ثبت كعقيدة راسخة ويقين جازم فإنه قد يعطي موجبه من الموافقة والموالاة والانقياد. وقد لا يعطي موجبه من الموالاة والموافقة والانقياد إذا صادفته الموانع التي تمنع من ذلـك، وإذا وجـدت الموافقـة والموالاة والانقياد لزم عنه ضرورة إرادة، والإرادة مع القدرة يلزم عنهـا مرادات لا يتخلف البدن عن إرادة القلب فمتي تخلفت المرادات مع القدرة كان ذلك دليلاً على تخلف الإرادة وتخلف الإرادة يكون دليلاً على تخلـف موجب العلم من الموافقة والموالاة والانقياد وتخلف هذا الموجب إمـا أن يكون مع بقاء العلم كعقيدة راسخة ويكون العلم عندئذ حجة على صـاحبه وأشدّ الناس عذابًا عالم لم ينفعه الله بعلمه أو يكون دليلاً على عدم دخـول العلم أصلاً أو دخوله ثم تحوله إلى شك أو خواطر قلب وحديث نفـس أو ذهابه بالكلية عرف ثم أنكر. والإيمان هو العلم مع ثقة وطمأنينة ورضـا وحب وركون واستمساك يعطي موجبه من الموافقة والمـوالاة والانقيـاد التي يلزم عنها إرادة جازمة وهذه الإرادة مع القدرة يلزم عنها مرادات لا يتخلف البدن عن إرادة القلب.

فالموافقة موجب العلم مع الثقة والطمأنينة والحب والرضا والركون والاستمساك والإرادة لازم الموافقة والمرادات لازم الإرادة مـع القـدرة. هذا هو معنى الإيمان.

ومن هنا فإن حقيقة الكفر تكون بمنافاة معنى الإيمان: بالجهـل أو الشك أو التكذيب أو الجحد أو الإعراض والنبذ والخلع والبراءة أو ترك الموافقة والموالاة والانقياد أو العداوة والمحادة والمشاقة والخصومة.

كما أن الكفر يكون بمنافاة حقيقة الإسلام بالشرك والكبر.

وعلى هذا فالكفر يكون بواحد من الأمور التسعة وهي:

الجهل، الشك، التكذيب، الجحد، الإعراض، الخلع والبراءة والنبذ، ترك الموافقة والموالاة والانقياد، والعداوة والمحادة والمشاقة، والشرك والكبر.

لابد في الإيمان من قول وعمل ونية لا يجزئ واحد من الثلاثة عن الآخر كما قال الإمام الشافعي. لا يقال أن الإيمان يزيد وينقص وقد ينقص منه العمل كله فبقيت النية والقول، أو نقص فيه العمل كله والنية كلها وقد بقي معه القول، أو نقص منه القول كله والنية كلها والعمل كله ولم يبق منه شيء فما الذي يصح به الاسم هل هو مجرد الانتساب أو دعوى الإسلام مع الشرك ؟؟ لابد أن يبقى ما يصح الاسم باجتماعه من القول والعمل والنية كما قال الإمام الشافعي وليس وراء ذلك إلا الكفر وذلك واضح من كلام الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ في الكلام عن الدخول في حقيقة الإسلام والذي لا يتحقق إلا باجتماع سبعة أمور ثم ذكرها والإيمان مراتب كل مرتبة لها حدودها.

الإيمان المجمل: التوحيد ما يتسع به الاسم لمسماه من صلب التوحيد وكمالاته أو أقل ما يتحقق به الاسم أو أقل ما ينطبق به الاسم على مسماه ويصح به الاسم وهو صلب التوحيد «الموجبة» ظاهرًا وباطنًا قولاً وعملاً إتيانًا وتركًا إثباتًا ونفيًا.

الإيمان الواجب: فعل الواجب وترك المحرم قولاً وعملاً ظاهرًا وباطنًا.

الإيمان الكامل أو المستحب: بفعل المندوب وبترك المكروه قولاً وعملاً ظاهرًا وباطنًا.

والإيمان الكامل أو المستحب وكذلك الإيمان الواجب قد لا يبقى منه شيء وكذلك مكملات التوحيد وإذا بقى صلب التوحيد فمن مات على ذلك مات مسلمًا مؤمنًا وقد وجبت له الجنة ولم يخلد في النار وصلب التوحيد إما أن يذهب كله أو يبقى كله وما سوى ذلك فإنه يذهب بعضه ويبقى بعضه.

والعاجز: لا يعجز عن الترك وترك العمل عمل يثاب عليه المرء.

ومن فقد السمع والبصر والكلام وبقى له الإدراك يستطيع التعبير باللمس ومن ثم يكون الإقرار، لا يتخلف الإقرار أبدًا، وإذا أداه فقد الحواس إلى فقد الإدراك فهو غير مكلف، والإيمان تكليف وهو أول ما يجب على المكلف وبه تُقبل وتصح الأعمال وإذا لم يكن مكلفًا فقد يمتحن في العرصات يوم القيامة ويثبت له حكم الإسلام في الدنيا بتبعية الدار أو الأبوين أو أفضلهما دينًا والعجز لا يمنع من إخراج زكاة المال والصلاة لا تسقط على المكلف ولو بالإيماء وتقدير حركاتها وهيئاتها، وما عجز عنه الإنسان فالنية الجازمة تقوم مقام العمل خيرًا وشرًا.

والإجبار: يسبقه إسلام أظهره صاحبه للناس أو فيما بينه وبين نفسه وفيما بينه وبين الله والإجبار يمنع وقوع الفعل فكأنه لم يكن وهو على ما كان عليه قبله.

والإكراه: موقف عارض: إذا كان في القول الذي لا يترتب عليه أثره بالضرورة فهو خداع للمكره رفع الله الإثم عن صاحبه وإذا كان في عمل الكفر فإنه لا يجوز (حديث تقريب الذباب) وهذا هو الفرق بين النطق بكلمة الكفر للإكراه الملجئ وعدم الاستجابة للتقريب للصنم ولو ذبابًا لأن الأول لا يترتب عليه أثره بالضرورة والثاني يترتب وإذا كان الإكراه للتحول عن الدين أو الإشراك فإنه لا يجوز «لا تشرك بالله وإن قُتِّلت أو حُرِّقْت» ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَ﴾.

والذي يكتم دينه لا يظهر الدين الباطل ولا يمنع ذلك من الصلاة والصيام والوضوء والاغتسال من الجنابة فمن باب أولى الإقرار وترك الشرك والتزام التوحيد.

وفي الحديث الصحيح «إنما الدنيا لأربعة أنفر: عبد رزقه الله مالاً وعلمًا فهو يتقي فيه ربَّه ويصل فيه رحمه ويعلم لله فيه حقًا فهذا بأفضل المنازل وعبد رزقه الله علمًا ولم يرزقه مالاً فهو صادق النية يقول لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلان فهو بنيته فأجرهما سواء. وعبد رزقه الله مالا ولم يرزقه علمًا فهو يخبط في ماله بغير علم لا يتقي فيه ربَّه ولا يصل فيه رحمه، ولا يعلم لله فيه حقًا فهذا بأخبث المنازل وعبد لم يرزقه الله مالاً ولا علمًا فهو يقول لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان فهو بنيته فوزرهما سواء» رواه الترمذى، وقال حديث حسن صحيح.

وفي الحديث «إن بالمدينة لرجالاً ما سرتم مسيرًا ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم حبسهم المرض». وفي رواية «إلا شركوكم في الأجر» رواه مسلم. وفي الحديث «إن أقوامًا خلفنا بالمدينة ما سلكنا شعبًا ولا واديًا إلا وهم معنا حبسهم العذر» وقال الله عنهم: ﴿تولَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنْ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾(١) وفي حديث أصحاب المغارة «فلما قعدت بين رجليها قالت اتق الله ولا تفضَّ الخاتم إلا بحقه فانصرفت عنها وهي أحبُّ الناس إلى وتركت الذهب الذي أعطيتها اللهم إن كنت فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه...» الحديث.

وبقيت للجهمية شبهة وهي قولهم وجد الإيمان في القلب قبل أن يتكلم به أو يعمل بمقتضاه فهو مؤمن بما في قلبه قبل أن يتكلم بالإيمان أو يعمل به فهو مؤمن لما وجد في قلبه أولاً بمعنى أن الإيمان يوجد منه شيء قبل شيء فما وجد أولاً اكتسب منه صاحبه وصف الإيمان لاحتمال أن يموت قبل أن يترتب عليه مقتضياته فلو مات لحظته وُجِدَ الإيمان في قلبه بحيث لا يتمكن من العمل بمقتضياته حسب الترتيب الزمني وهذه شبهة زائفة

---

(١) التوبة، آية: ٩٢.

لأن الإيمان متي وجد في قلبه أو تكلم به قبل أن يمضي فيه عزيمة لم يكن مؤمناً ومن تكلم بالكفر ولم يمض به عزيمة كان كافرًا فإذا أمضى بالإيمان عزيمة فهذه لحظة إيمانه ليس قبل ذلك. فإن مات لحظتها ولم يفعل شـيئًا فقد فعل ترك الشرك وقد همَّ بما حال الموت بينه وبينه، ومن هم بحـسنة فلم يعملها كتبت له حسنة فقد أتى بما همَّ به من الإقـرار والـدخول فـي التوحيد، ومثال ذلك الجنين في بطن أمه لا يسمى إنـساناً ولا يـنفخ فيـه الروح حتى يكتمل خلقه ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾[١] بعـد أن كـان نطفـة، فعلقة، فمضغة... إلخ. وهو يولد إنسان، لا يسمى الذراع إنسان ولا اليـد إنسان، إنما الإنسان إنسان بما فيه من حياة ومن روح وبـدن يـصح أن يسمى بهما إنسان وإلا كان مسخاً ولهذا قال شيخ الإسلام وغيره إن علـم القلب لا ينفع صاحبه حتى يقترن به عمل القلب وإقرار اللـسان لا ينفـع صاحبه حتى يقترن به الانقياد للشرع وقد مرَّ ذلك.

---

(١) المؤمنون، آية: ١٤.

الباب السادس

مســـالك معرفـــة التوحيـــد

ستة مسالك لمعرفة التوحيد:

- **المسلك الأول: مسلك العلم الضروري:** ويعرف من دعوة الرسل:

دعوة الرسـل:

يقول أبو بطين رحمه الله[١]: «أما بعد فقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[٢] فلما أعلمنا الله سبحانه أنما خلقنا لعبادته وجب علينا الاعتناء بما خلقنا له علمًا وعملاً وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٣] الآية، وقال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾[٤] قال ابن عباس رضى الله عنهما: كل ما في القرآن من الأمر بالعبادة فالمراد به التوحيد وبذلك أرسل الله جميع الرسل، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[٥]، وقال تعالى: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَانِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾[٦]، وكل رسول أول ما يقرع به أسماع قومه أن يقول ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾[٧]». أهـ.

أقـول: وأول ما يتبادر للذهن من معنى العبادة[٨] هو ما يتقرب به الإنسان إلى الله على نحو غيبي غير معقول المعني وأشد الناس تخلفًا في مستواه الثقافي والحضاري وأشد الناس بعدًا عن الدين وأجهلهم به يدرك الفرق بين قوله تعالى: ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنْ

---

(١) الانتصار لحزب الله الموحدين، ص ٤.
(٢) الذاريات، آية: ٥٦.
(٣) البقرة، آية: ٢١.
(٤) النساء، آية: ٣٦.
(٥) الأنبياء، آية: ٢٥.
(٦) الزخرف، آية: ٤٥.
(٧) الأعراف، آية: ٥٩.
(٨) التقرب والاستعانة بالله سبحانه ــ أو بغيره شركًا ــ على وجه غيبي غير معقول المعنى.

الآخَرِ﴾[١] وبين قوله: ﴿فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ۝ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلاَ تَأْكُلُونَ﴾[٢] يدرك الفرق بين القربان للإله والذبيحة للضيف الأول تعبدي معنوي غيبي غير معقول المعنى أي لا يجرى على منطق الأسباب والمسببات الظاهرة، ولا يرجع إلى حقوق العباد التي يتعاطونها فيما بينهم على سنن الفضل أو العدل، والآخر مادي حسي معقول المعنى يرجع إلى منطق الأسباب والمسببات الظاهرة ويرجع إلى حق الضيف وهو من مكارم الأخلاق كالإحسان إلى الوالدين والإحسان إلى الجار والبرِّ بالضيف والمسكين واليتيم وفك العاني فهي حقوق العباد فيما بينهم على سنن الفضل وهذا أيضًا يفترق عن البيع والشراء والإجارة والوصية والزواج والعمل وهي معاوضات تجري على سنن العدل، وكذلك الفرق بين الاستعانة والاستغاثة والاستعاذة بالخالق والمعبود تفترق في العلم الضروري عن الاستعانة والاستغاثة بالمخلوق الأولي غيبية معنوية غير معقولة المعني والثانية مادية حسية معقولة المعني يحكمها منطق الأسباب والمسببات الظاهرة وترجع إما إلى تبادل المصالح بين العباد أو إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم يتفضل به بعضهم على بعض، فالأولى حق الله والثانية حق العبد على العبد فضلاً أو عدلاً. وكذلك الفرق بين الصوم والصلاة والحج والدعاء والنذر وتقديم القربان، وبين البيع والشراء وسائر أنواع التعاملات بين الناس ومن هذا المنطلق يعرف أن عبادة الأوثان والأصنام والصور ومظاهر الطبيعة والشمس والقمر والنجوم والكواكب والملائكة والجن والبشر وعيسى عليه السلام وعزير أو على أو محمد ﷺ أو تقضي الحوائج من الموتى كدعاء المسألة أو دعاء العبادة أو النذر أو تسييب السوائب أو الذبح لغير الله أو الذبح باسم غير الله أو السجود أو الحج أو

---

(١) المائدة، آية: ٢٧.

(٢) الذاريات، الآيتان: ٢٦-٢٧.

التوبة للشيخ أو السجود أو الطواف والاستلام أو التبتل للغير كل ذلك عبادة لغير الله تعالى لأن كله غيبي غير معقول المعنى لا يرجع إلى حقوق العباد بعضهم على بعض ولا يحكمه منطق العباد في تعاملاتهم بالفضل أو العدل ولا يحكمه منطق الأسباب والمسببات الظاهرة التي تدخل وتحكم في وعلي قدرات المخلوق في كل هذا يدرك أنه شرك بدون حاجة إلى خصوصية النصوص عليه لمجرد كونه عبادة هى حق خالص لله عزَّ وجل تصرف إلى غيره فتكون شركًا يَكْفُر ويكفَّر مرتكبه وإذا كان كذلك فمن العلم الضروري أيضًا من قولة الرسول ﷺ: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾[1] أن يعرف الله ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ﴾[2]. وفي الحديث «فليكن أول ما تدعوهم إليه أن يعبدوا الله» ثم في نفس الحديث «فإذا هم عرفوا الله فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم ...» الحديث.

ومعرفة الله تكون بمعرفة صفاته فلا يُعرف الله عزَّ وجل حتى يعرف أنه هو الأول والآخر والظاهر والباطن والحي الذي لا يموت وأنه خالق كل شيء وبكل شيء عليم وعلي كل شيء قدير والقيوم على كل شيء وأنه واحد أحد فرد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد وأنه ليس كمثله شيء وقد يجهل من صفات الله وأفعاله ما يجهل ولكن فرق كبير بين جهل بالصفة لا يؤدي إلى جهل بالذات وبين جهل بالصفة يؤدي إلى جهل بالذات، الجهل بالذات كفر والجهل بالصفة أمر وارد يتعرض له كل مسلم وفي الحديث عن أسماء الله تعالى: «أو استأثرت به في علم الغيب عندك». ومن قول الرسول ﷺ لقومه ﴿أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾[3]،

(١) الأعراف، آية: ٥٩.

(٢) محمد، آية: ١٩.

(٣) الصف، آية: ٥.

﴿أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾[1]. فهي قولة نوح وقول كــل رســول حكيت عنه أو لم تحك يعرف أن جماع الدين أصلان:

١- أن يعبد الله وحده.

٢- وأن يعبد بما شرعه في كل وقت على ألسنة رسله في ذلك الوقت.

فلابد من الرجوع في عبادة الله وحده إلى شرع الله وحده الذي جــاء به رسوله في كل وقت بما أمر به في ذلك الوقت فــلا يعبــد الله بالــدين المبدل ولا بالشريعة المنسوخة ويعبد بالدين المحكم والشريعة الناسخة.

وانظر إلى كلام شيخ الإسلام في هــذا فــي "اقتــضاء الــصراط المستقيم" لم يستدل على ذلك بخصوصية النصوص وإنما احــتج علــى ذلك بالعلم الضروري من دعوة الرسل يقول[2] في هذا: «ولمــا كــان أصل الدين الذي هو دين الإسلام واحدًا وإن تنوعت شرائعه قال النبــيُّ ﷺ في الحديث الصحيح: «إنَّا معاشر الأنبياء ديننا واحــد» و«الأنبيــاء أخوة لعلات» فدينهم واحد وهو عبادة الله وحده لا شريك له وهو يعبــد في كل وقت بما أمر به في ذلك الوقت وذلك هو دين الإسلام في ذلــك الوقت وتنوع الشرائع في الناسخ والمنــسوخ مــن المــشروع كتنــوع الشريعة الواحدة فكما أن دين الإسلام الذي بعث الله به محمــدًا ﷺ هــو دين واحد مع أنه قد كان به وقت يجب استقبال "بيــت المقــدس" فــي الصلاة كما أمر النبي المسلمين بذلك بعد الهجرة ببضعة عــشر شــهرًا وبعد ذلك يجب استقبال الكعبة ويحرم استقبال الصخرة فالــدين واحــد وإن تنوعت القبلة في وقتين من أوقاته ولهذا شــرع الله تعــالى لبنــي إسرائيل السبت ثم نسخ ذلك وشرع لنا الجمعة فكــان الاجتمــاع يــوم السبت واجبًا إذ ذاك ثم صار الواجب هو الاجتماع يوم الجمعة وحــرم

(١) نوح، آية: ٣.
(٢) اقتضاء الصراط المستقيم، مكتبة المدنى، ومطبعة صبرة، ص ٤٥٤.

الاجتماع يوم السبت فمن خرج عن شريعة موسى قبل النسخ لم يكن مسلمًا ومن لم يدخل شريعة محمد ﷺ بعد النسخ لم يكن مسلمًا». أهـ.

والشرع الذي جاء به الرسول ﷺ لم يقتصر على ما يعبد به الله عزَّ وجل بل تعداه إلى ما يقيم القسط بين الناس ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ...﴾(١) الآية. والقسط هو ما أنزل الله يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ...﴾(٢) الآية.

ـ فمن يخرج عن شرع الله الذي جاء به الرسول فيما يعبد به الله ﷻ.
ـ ومن يخرج عن شرع الله الذي جاء به الرسول فيما يقيم القسط بين الناس، فقد رد رسالة الرسول والكتاب الذي جاء به والله الذي أرسله فكفر بكل ذلك يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ۝ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾(٣).

ويقول البيضاوي في تفسير قول الله ﷻ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾(٤) أن من لم يطعه في شريعته فقد رد رسالته ومن فعل ذلك كان كافرًا مستوجب القتل هذا معنى كلامه وقد مرَّ ذكره.

الخروج عن شريعة الرسول فيما يعبد به الله كفر بالرسول وبالرسالة وبالله الذي أرسل الرسول بالرسالة، وكذلك الخروج عن شريعة الرسول فيما يقيم القسط بين الناس كفر بالرسول والرسالة وبالله الذي أرسل الرسول بالرسالة سواء بسواء، والخروج عن شريعة الرسول في أي منها

---

(١) الأعراف، آية: ٢٩.
(٢) الحديد، آية: ٢٥.
(٣) آل عمران، الآيتان: ٣١-٣٢.
(٤) النساء، آية: ٦٤.

يكون بالرجوع إلى شرع آخر غير شرع الله المحكم من الدين المبدَّل والدين المنسوخ. وذلك حكمًا وتحاكمًا وتحكيمًا وتشريعًا وقبولاً في الحياة اليومية فيما يعبد الله به أو فيما يقيم القسط بين الناس أو يكون بالخروج عن شريعة الرسول في أي منهما برد أمر الله عليه وذلك بالإباء من قبول الفرائض أو الاستحلال ومعني كل منها الامتناع من التزام حكم الله بالوجوب أو الامتناع عن التزام حكم الله بالتحريم، أو يكون بالخروج عن شريعة الرسول بالطعن في حكمة التشريع أو الاستهزاء أو الاستخفاف أو الاستهانة وكل هذا من العلم الضروري الذي تقوم الحجة به بكلمة واحدة هى "محمد رسول الله" وأنه الرسول الخاتم وأن شريعته ناسخة لما قبلها.

ولا يتم قبول شرع الرسول إلا بالدخول في ولايته، فالمسلمون أمة واحدة تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يدٌ على من سواهم، فليس من المسلمين من لا يكون يده معهم على من سواهم، وليس من المسلمين من تكون يده مع من سواهم عليهم.

علمًا بأن تقرير تفرد الله عزَّ وجلَّ بالحاكمية سابق من حيث المعنى في دعوة الرسل على تفرده سبحانه وتعالى بالعبادة وذلك في قوله تعالى على لسان نوح: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ۞ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ۞ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[2]، وفى قوله تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[3] ، وقوله تعالى: ﴿إِنْ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[5]

(١) نوح، الآيتان: ٢-٣.
(٢) الأعراف، الآيتان: ٦١-٦٢.
(٣) الإسراء، آية: ٢٣.
(٤) يوسف، آية: ٤٠.
(٥) الأعراف، آية: ٥٤.

• **المسلك الثاني: معرفة التوحيد من دلالة الشهادتين:**

وحقيقة "لا إله إلا الله محمد رسول الله"، معناه أن لا يعبد إلا الله وأنه يعبد بما شرع على ألسنة رسله في كل وقت بما أمر به في ذلك الوقت، وأن محمدًا رسول الله ﷺ وأن يصدق فيما أخبر ويطاع فيما أمر، أي تصديق خبره جملة وعلي الغيب، وقبول شرعه جملة وعلي الغيب ولا يخرج عن شرعه إلى غيره ولا يرد شرعه. وإنه لا إسلام ولا إيمان ولا نجاة ولا ملة ولا دين إلا بهذا، والشرك أن يعبد مع الله غيره، وهو نوعان: شرك في الاعتقاد، وشرك في العبادة. فشرك العبادة أن يعبد مع الله غيره وشرك الاعتقاد ألا يفرد الله عزَّ وجلَّ بصفاته على النحو الذي يليق بجلاله.

وما قاله شيخ الإسلام في "الصارم المسلول" (١): «ألا ترى أن من صدق الرسول بأن ما جاء به هو رسالة الله وقد تضمنت خبرًا وأمرًا احتاج إلى مقام ثان وهو تصديقه خبر الله وانقياده لأمر الله فإذا قال أشهد أن لا إله إلا الله فهذه الشهادة تتضمن تصديقه خبره والانقياد لأمره وأشهد أن محمدًا رسول الله تضمنت تصديق الرسول فيما جاء به من عند الله فبمجموع الشهادتين يتم الإقرار فلما كان التصديق لابد منه في كلا الشهادتين وهو الذي يتلقى الرسالة بالقبول ظن من ظن أنه أصل لجميع الإيمان وغفل عن أن الأصل الآخر لابد منه وهو الانقياد». أهـ.

والانقياد معناه إفراد الله عزَّ وجل بحقه الخالص في العبادات والعادات والمعاملات وقبول شرعه فيها والموالاة على هذا الشرع.

• **المسلك الثالث: معرفة التوحيد من الدلالات اللغوية للإسلام والإيمان قبل تنزيل النصوص التفصيلية المحددة له:**

معنى الإسلام: هو الاستسلام وهو الإخلاص ومعناه الاستسلام لله

---

(١) الصارم المسلول، ص ٤٥٨.

وحده بطاعته وحده وعبادته وحده ولا يتحقق ذلك إلا بقبول الأحكام فمن استسلم لله ولغيره فهو مشرك ومن رد الاستسلام فهو مستكبر وكلاهما كافر.

ومعنى الإيمان: العلم مع ثقة وطمأنينة ورضا وحب وركون واستمساك يوجب موافقة وموالاة وانقياد يلزم منها إرادة في القلب، ولا يمتنع البدن عن إرادة القلب مع القدرة.

وبهذا يكون معنى الكفر أو حقيقته بمنافاة حقيقة الإسلام بالشرك والكبر.

وبمنافاة حقيقة الإيمان بالجهل أو الشك أو التكذيب أو الجحد أو الخلع والإعراض والنبذ والبراءة أو ترك الموافقة والموالاة والانقياد أو المحادة والمشاقة والمعاداة.

وبهذا فإن الشرك والكفر يحرمان بحدهما قبل أن تذكر مفرداتهما بالنصوص الدالة عليها "الانتصار لحزب الله الموحدين" وهما في هذا شبيهان بالبدع فإن البدع تحرم بحدها ولا تحرم بمفرداتها فإن مفرداتها لا تنحصر وقد يشار إلى بعضها تمثيلاً للعام ببعض أفراده "كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار".

والحيل تحرم بحدها وإن ذكرت النصوص كثيرًا من مفرداتها تمثيلاً للعام ببعض أفراده إلا أن أفرادها لا تنحصر وهي تحرم بحدها وليس قياسًا لما لم يذكر على ما ذكر.

وكذلك الفِرَق تحرم بحدها وهو ما تفترق به الأمة افتراقًا دنيويًا إلى شيع لا تفئ بعضها إلى بعض أو افتراقًا دينيًا بالمروق عن الجادة إلى ابتداعات في أصول كلية من الدين مع مباينة وإشهار سيف، والنجاة فيما قال عنه رسول الله ﷺ: «ما أنا عليه وأصحابي» ولم يذكر ما سوى ذلك بمفرداته ولكن يعرف بحده.

والمعاصى: لا يمكن أن تحرم إلا بمفرداتها أو قياسًا على مفرداتها ولا تحرم أبدًا بحدها ولا تحريم إلا بنص على كل فرد منها.

فتعلموا الفروق يا قوم ــ **اللهم هل بلغت اللهم فاشهد ــ**

ومن تعريف القسطلانى للإيمان الذي هو أول واجب على المكلف نقلاً عن الإيجي والغزالى والتفتازانى أنه إذعان لحكم المخبر وقبوله فإن الإيمان يتضمن معنى الإيمان عند الاقتران وهو تصديق الخبر ومعني الإسلام عند الاقتران وهو الاستسلام الذي لا يتحقق إلا بقبول الأحكام. نقول من هذا التعريف فإن قبول الأحكام يستلزم بالضرورة شيئين:

١- التفريق بين حق الله الخالص في العبادات والتوحيد وبين حقوق العباد في العادات والمعاملات وما يترتب على ذلك كما مرَّ ذكره.

٢- الموالاة على الشرع فإنه من تمام قبول الشرع.

- **المسلك الرابع: معرفة التوحيد من معرفة معاني العبادة الخمسة المتصلة بالتوحيد:** وهذه المعاني هى:

١- إنها غاية الحب والحب أصل الولاء والولاء نصرة أو اتباع أو نسك، وإفراد الله بالعبادة إفراده بكل ذلك وهذا هو التوحيد.

٢- إنها غاية الذل وذلك يقتضي تحقيق العبودية لله بقبول شرعه ورفض ما سواه وهو معنى طاعة الله وحده لتحقيق عبادته وحده.

٣- إنها حق الله الخالص في العبادات بصرفها إليه وحده وبقبول شرعه فيها والموالاة على هذا الشرع. وفي العادات والمعاملات بقبول شرعه فيها والموالاة على هذا الشرع.

٤- إنها حق الله الخالص مطلقًا وذلك بإفراده سبحانه بالولاء والحكم والنسك والأعمال القلبية المستقلة عنه أو المتعلقة به.

٥- إنها القصد ومعني توحيد العبادة أن يكون الله سبحانه وتعالى هو المقصود بالطاعات التي هى العبادة بمعناها الشامل والإله هو المعبود، ومعنى لا إله إلا الله؛ لا معبود بحق إلا الله سبحانه وتعالى، والتوحيد هنا هو إفراد الله سبحانه وتعالى بما لا يكون إلا لله في كل ما هو إرادي قصدي طلبى.

- **المسلك الخامس: معرفة التوحيد من معرفة معاني الإسلام بالمطابقة من النصوص:**

والإسلام هو أن يكون الولاء لله وحده ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنْ الْمُشْرِكِينَ﴾(١). وأن يكون الانقياد والخضوع والدين والطاعة ـــ وهو معنى تحقيق العبودية لله بقبول شرعه ورفض ما سواه ـــ لله وحده ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ۝وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾(٢).

وأن يكون الحق خالصًا لله في النسك بقبول شرعه فيها وصرفها إليه عزَّ وجل، وفي الحياة والممات بقبول شرعه فيها وموالاته عليه ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ۝لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾(٣).

- **المسلك السادس: مسلك العلم النظرى:**

ما يرجع إلى التوحيد من إثبات ونفي أو إتيان وترك أو قول وعمل أو اعتقاد ونية أو ظاهر وباطن يعرف بالضوابط الآتية على سبيل الحصر.

---

(١) الأنعام، آية: ١٤.
(٢) الزمر، الآيتان: ١١-١٢.
(٣) الأنعام، الآيتان: ١٦٢-١٦٣.

- **الضابط الأول:** التوحيد هو إفراد الله عزَّ وجلَّ بما لا يكون إلا لله فما لم يكن كذلك فليس من التوحيد.
- **الضابط الثانى:** هذا الإفراد إما أن يكون فى:

١- معرفة الله عزَّ وجل على النحو الذي أخبر به عن نفسه سبحانه وتعالى وهو التوحيد الخبري العلمي المعرفي.

٢- إفراد الله عزَّ وجلَّ بحقه الخالص في الإرادة والقصد والطلب "توحيد العبادة" وهو التوحيد الإرادي القصدي الطلبي.

- **الضابط الثالث:** لما كان التوحيد يفرض بحده والشرك يحرَّم بحده قبل بيان تفصيلاته بمفرداته فكل ما تأخر فرضه أو تحريمه فهو خارج عن التوحيد وعن الشرك الأكبر لأن البيان لا يتأخر عن وقت الحاجة والحاجة للتوحيد وترك الشرك الأكبر قائمة منذ لحظة البلاغ الأول لرسول الله ﷺ ولذا فإن مفردات الشرك الأكبر أو النواقض المكفرة للتوحيد عندما وقعت من مرتكبيها أول ما وقعت وحكاها القرآن عنهم كفرهم بها قبل بيان كونها من مفردات الشرك الأكبر اكتفاء بتحريم الشرك بحده بقوله تعالى: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾(١) فوقعت الأفعال والتروك مجرمة قبل بيان مفرداتها معاقبًا عليها وهذا بخلاف المعاصي فإنه لا تحريم إلا بنص تفصيلي بكل مفردة على حدة ولا تجريم إلا بتحريم ولا عقوبة إلا بتجريم قال تعالى في موالاة الكافرين: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا﴾(٢) وقال في الاستغفار للمشركين: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾(٣) فكلّ ما لم يقع مكفرًا به عند أول وقوعه فليس من النواقض

---

(١) الأعراف، آية: ٥٩.
(٢) النساء، آية: ٨٩.
(٣) التوبة، آية: ١١٥.

المكفرة للتوحيد، وبمعني آخر فإننا نقول كان المسلم مسلمًا قبل فرض الصلاة والصوم والحج والزكاة وقبل فرض القتال وقبل تحريم الخمر، والميسر والربا وقبل فرض الحجاب ولكن لم يُقر أحد على إسلام مع عبادة الأصنام والتحاكم إلى الكهان. وموالاة الكافرين واعتقاد أن عيسى بن الله وأن الملائكة بناته ـ سبحانه وتعالى ـ وأن الله ثالث ثلاثة وأن له سبحانه وتعالى صاحبة وولد أو بنين وبنات وأن بينه وبين الجنة نسبًا والإسلام إنما يكون بترك الشرك بنوعيه في الاعتقاد والعبادة والشرك يعلم بالعلم الضروري من الرسول وكذلك التوحيد بحده في كل من الاعتقاد والعبادة قبل بيان المفردات.

- **الضابط الرابع:** نواقض صلب التوحيد مكفرة فما لم تكن نواقضه مكفرة فليس من صلب التوحيد وربما كان من كمالاته.

ويعرف كون النواقض مكفرة أو غير مكفرة ليعرف إذا كانت نواقض للصلب أو الكمالات بتنزيل الحكم على مناطه.

والمناط: هو الوصف المناسب المؤثر. ومناسبته وتأثيره هو في الحكم الذي يتنزل عليه، ولا فرق في ذلك بين التوحيد وبين غيره من الأحكام المتعلقة بالفروع قال تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا...﴾[1] الآية. فالسرقة: مناط، والقطع: حكم.

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾[2].

الزنا: مناط، والجلد: حكم لغير المحصن، وفي الأثر "زنا ماعز فرجم" الزنا: مناط، والرجم: حكم للمحصن.

---

(١) المائدة، آية: ٣٨.

(٢) النور، آية: ٢.

﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْكَافِرُونَ﴾(١).

ومَنْ لم يشرع للناس ما شرعه الله لهم ليحكم به في مواضع النزاع فيحل حلاله ويحرم حرامه. مَنْ لم يفعل ذلك: مناط، والكفر المخرج من الملة: حكم.

﴿لاَ يَتَّخِذْ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنْ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾(٢). ولاية الكافرين: مناط، والخروج من الملة بانقطاع صلته بالله سبحانه من كل وجه: حكم. وهكذا.

وفي مجال الحديث عن المناط يُجرِّد السياق القرآني المناط كوصف مناسب مؤثر عن مزاحمة الأوصاف الأخرى له، وعن تأثير خصوصية المحل فيه حتى يتجرد للحكم وهذا هو **تنقيح المناط**، إن وجد غير منقح في سياق فإنه يوجد منقحًا في سياق آخر، فلا يحتاج مع بيان القرآن إلى جهد مجتهد في تنقيح المناط. أما **تحقيق المناط** فإن له مسلكان:

- **المسلك الأول:** تقديم الدلالة الاصطلاحية الشرعية على الدلالة العرفية الاستعمالية المستفادة من السياق، وتقديم العرفية الاستعمالية على الإفرادية الوضعية اللغوية المستفادة من وضع اللغة.
- **المسلك الثاني:** أن يكون للدلالة الاصطلاحية الشرعية صور تتمثل فيها يتولى السياق القرآني ذكرها على سبيل الحصر في مناسباتها.

وفي مجال الحديث عن الحكم فلابد من التفريق بين ما ينقل عن الملة وما لا ينقل من الألفاظ والاستعمالات بضوابط لغوية مستفادة من تصرف الشارع في عباراته وبيان ذلك:

---

(١) المائدة، آية: ٤٤.
(٢) آل عمران، آية: ٢٨.

١- **لفظ الكفر:** إذا كان منكرًا ومقيدًا لا ينقل، وإذا كان معرفًا ومطلقًا ينقل عن الملة.

٢- **لفظ الإيمان:** إذا نفي الإيمان وأثبت الإسلام بإشارة لفظية أو معنوية فإن هذا النفي هو للإيمان الواجب مع إثبات الإيمان المجمل، لأنه لا إيمان بلا إسلام ولا إسلام بلا إيمان، وكذلك إذا نفي الإيمان من وجه وأثبته من وجه آخر، فإن هذا نفي للتمام وهو الإيمان الواجب وليس نفيًا للأصل وهو الإيمان المجمل فلا ينقل من الملة.

وذلك مثل إدخال الولدان في مسمى الرجال في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالاً وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ﴾(١). وإخراج الولدان من مسمى الرجال في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾(٢) الآية، وقوله تعالى: ﴿إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً﴾(٣).

فأدخل الولدان في مسمى الرجال باعتبار ثبوت الأصل وأخرجهم من مسمى الرجال باعتبار نقص التمام. وإذا نفي الإيمان من كل وجه وعن كل اعتبار، ولم يثبته بأي وجه أو بأي اعتبار، ولم يثبت مع هذا النفي إسلامًا بإشارة لفظية أو معنوية، وتكرر النفي في مناسبات شتي ووصف مرتكب نفس الفعل بأوصاف أخرى مثل الشرك أو النفاق أو الكفر أو نفي الصلة دل على أن المقصود من النفي هو عدم ثبوت الأصل فينقل عن الملة.

٣- **نفي الصلة:** إذا كان من كل وجه فإنه ينقل عن الملة ﴿فَلَيْسَ مِنْ اللَّهِ

---

(١) النساء، آية: ١٧٦.

(٢) النساء، آية: ٧٥.

(٣) النساء، آية: ٩٨.

فِي شَيْءٍ﴾[(١)] ﴿لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾[(٢)]. وإذا كان من وجه دون وجه لا ينقل عن الملة «من غش أمتي فليس مني».

٤- **لفظ الشرك:** الأصل فيه أنه ينقل عن الملة إلا إذا قامت القرينـــة علـــى كونه شركًا أصغر بدلالة اللفظ أو النص أو نص آخر على نفس الفعل.

٥- **لفظ النفاق:** الأصل فيه أنه ينقل عن الملة إلا إذا قامت القرينة علـــى كونه شعبة من شعب النفاق أو أن الكفر فيه بالمآل وليس في الحال.

٦- **لفظ الفسق والظلم:** حسب القرينة ويستعمل اللفظان في القرآن فيمـــا ينقل وفيما لا ينقل.

٧- **لفظ الضلال:** حسب القرينة ويستعمل في القرآن بمعني الكفر، البدعة، المعصية، الحيرة، وغالب استعماله في السنة بمعني البدعة.

٨- **لفظ اللعن:** إذا كان خبريًا وأبديًا فإنه ينقل وإذا كـــان بمعنـــى الـــدعاء والتأقيت فإنه لا ينقل.

٩- **العذاب المهين** في الكفار و**العذاب الأليم** في الكفار والعصاة من الموحدين.

١٠- **العذاب الأخروي** إذا أفاد التأبيد مع الخلود في النار أو أصحاب النار مع الخلود أو القطع بعدم الخروج من النار وعدم دخول الجنة حتـــى يلجَ الجملُ في سمِّ الخياط أو تحريم الجنة فإنه فيما ينقل إذ مجرد قول لا يدخلون الجنة فمعناه لا يدخلون جنة معينة أو يتأخر دخولهم والقول بالإلقاء في النار فمعناه دخولها ولكن ليس معناه الخلود فيه والتأبيد بل يخرج منها إلى الجنة إذا كان موحدًا والقول بأن هذا جزاؤه فهذا وعيد متوقف على استيفاء شروط وانتفاء موانع وقد لا يتحقق.

---

(١) آل عمران، آية: ٢٨.

(٢) الأنعام، آية: ١٥٩.

١١- لفظ الفاحشة والفحشاء والمنكر والبغي والإثم والمعصية والذنب والسيئة والخطء والخطيئة والغضب والكره والمقت والمكروه، فالأصل أنها فيما لا ينقل وقد تستعمل فيما ينقل بقرينة تدل على ذلك.

أمثلة:

إفراد الله سبحانه وتعالى بالحكم ركن من أركان توحيد العبادة بهذه الضوابط:

قوله تعالى ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾[١] فيه معنى اعتقاد وجوب الصفة لله سبحانه وتعالى وتفرده بها على النحو الذي يليق بكماله جلّ وعلا وفيه معنى ابتغاء الحكم عنده عزّ وجل وقوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾[٢]، ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[٣] فيه فقط معنى ابتغاء الحكم عند الله عزّ وجل، وأن هذه عبادة يقصد بها، وإذا قصد بها غيره كان هذا عبادة لغير الله عزّ وجل، لأنه راجع إلى إفراد الله عزّ وجل بحقه الخالص.

لم يكن المسلم مسلمًا وهو يتحاكم إلى الكهان، وأول ما وقعت الرغبة عن شرع الله إلى غيره وقعت مكفرًا بها، ولم تكن مناسبة وقوعها هى بداية التحريم.

النواقض مكفرة بتنزيل الحكم على مناطه ويراعى في ذلك ضوابط تنقيح المناط، وتحقيق المناط، وتنزيل الحكم على مناطه، وتحديد كون الحكم مما ينقل أو لا ينقل.

مثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾[٤].

---

(١) الشورى، آية: ١٠.

(٢) الأنعام، آية: ١١٤.

(٣) المائدة، آية: ٥٠.

(٤) المائدة، آية: ٤٤.

ــ الدلالة الشرعية الاصطلاحية لكلمة يحكم: يشرع.

ــ الدلالة الاستعمالية: قد تكون يشرع أو يقضي أو يجتهد حسب السياق.

ــ والدلالة اللغوية: من خُيِّر فاختار فقد حكّم فحكم.

فيكون معنى ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْكَافِرُونَ﴾ من لم يشرع للناس ما شرعه الله لهم ليقضي به في مواضع النزاع فيحل حلاله ويحرم حرامه فأولئك هم الكافرون.

أولئك: تعريف، هم: تعريف، ال: تعريف، فالكفر هنا ينقل عن الملة.

والوصف تجرد عن مزاحمة أوصاف أو خصوصية محل فيكون منقحًا وهو محقق أيضًا ولبيان ذلك نقول:

الحكم في قوله تعالى: ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾(١) ينصبُّ على محل هو اليهود متصف بعدة أوصاف هى: سمَّاعون للكذب، أكّالون للسحت، يُحرفون الكلم عن مواضعه، لم يطهر الله قلوبهم وأراد فتنتهم، يتولون عن حكم الله في التوراة إلى غيره مما يدَّعون عدم الإيمان به، إيمانهم زعمٌ باللسان دون موافقة القلب فهنا يوجد محل مع مزاحمة أوصاف فلا ندري هل يختص هذا الحكم بوصف من الأوصاف دون غيره أو ببعض هذه الأوصاف دون غيره أو يختص بها في حالة الاجتماع دون الافتراق أم يختص كل وصف منها في حالة الانفراد والاجتماع وهل للمحل تأثير بحيث لو وجدت هذه الأوصاف في غير هذا المحل لم يختص بهذا الحكم إلى أن يأتي موضع النص من السياق فيتجرد الوصف عن المحل وعن مزاحمة الأوصاف في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْكَافِرُونَ﴾ وهو مناسب يدرك العقل مناسبته ويعتبر الشرع مثله، ويؤثر

(١) المائدة، آية: ٤١.

بحرف الفاء فيكون مناطًا كما سبق بيانه ثم في التحقيق كما مـــرَّ بتقـــديم الدلالة الاصطلاحية على إرادة الدلالة الاســـتعمالية أو القياســـية اللغويـــة الإفرادية ثم الدلالة الاستعمالية في السياق تتفق مع الدلالـــة الاصـــطلاحية على إرادة معنى يشرع من لفظ يحكم وليس معنى يقضي أو يجتهد.

ولكن هناك قاعدة أن الدلالات الإفرادية والاستعمالية يكون لها حظ مـــن الحكم وإن لم تكن مرادة إذا كانت الدلالة الشرعية الاصطلاحية هى المـــرادة، وعليه قيل كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق للجور في القضاء والجرأة على الاجتهاد ومطلق المخالفة الشرعية مع بقاء الالتزام بشرع الله.

مثال آخر: إفراد الله عزَّ وجل بالولاية ركن من أركان التوحيد:

يقول الله ﷻ: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْـــيِ المَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(١). فالولي صفة من صـــفات الله عـــزَّ وجل لابد من اعتقاد وجوبها له جل وعلا وتفرده بها على النحو الذي يليق بكماله سبحانه وتعالى، وقوله ﷻ: ﴿قُلْ أَغَيْـــرَ اللَّـــهِ أَتَّخِـــذُ وَلِيًّـــا فَـــاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنْ الْمُشْرِكِينَ﴾(٢). الاتخاذ معنى إرادي قصدي طلبي فهو يرجع إلى توحيد العبادة، وهنا إفراد الله عزَّ وجل بما لا يكون إلا لله وهذا الإفراد في توحيد العبادة لمعني "أتخذ".

لم يكن المسلم مسلمًا وهو يظاهر المشركين على المسلمين أو يتـــآمر مع الكفار على المسلمين لإبادة خضرائهم أو استئصال شأفتهم أو يكثر سواد الطاعنين في دين الله ترويجًا لباطلهم ابتغاء العزة عندهم أو وهـــو يـــرجح ولاية المشركين على ولاية المسلمين أو يعـــدل ولايـــة المـــسلمين بولايـــة

---

(١) الشورى، آية: ٩.

(٢) الأنعام، آية: ١٤.

المشركين، ترجيحًا أو عدلاً لولاية القبيلة على أو بولاية العقيدة أو وهو منعدم الولاء بين المسلمين والكافرين لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء أو هو داخل تحت ولاية الكافرين بطوعه وإرادته، وعندما وقعت هذه الأفعال لأول مرة حكي عنها القرآن وقرر حكمها تفصيليًا ومع ذلك لم تكن هذه الوقائع هى السبب لبداية التحريم وكان ما قبلها على أصل الإباحة، بل كان التحريم سابقًا عليها اكتفاء بتحريم الشرك بحده لقوله تعالى:﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾(١). ولذلك وقعت هذه الوقائع عندما وقعت أول مرة محرَّمة مجرَّمة مكفرًا بها معاقبًا عليها، وعندما أوشك أن يحدث اقتتال بين الأوس والخزرج على ثارات ودعاوى الجاهلية أخبرهم أنه إذا انتهي وجود الجماعة المسلمة بالتفرق إلى الجماعات العرقية القديمة كان هذا التفرق المطلق كفر كما أن الأحاديث أخبرت أن التشبه المطلق بالكفار كفر.

ومن ناحية تنزيل الحكم على مناطه فهو بقول الله ﷻ: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ۞ كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۞ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ۞ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ فاسقون﴾(٢). فنجد أن حكم اللعن والكفر يترتب على المعصية والاعتداء وعدم التناهي عن المنكر وموالاة الكافرين وذلك في محل هو بني إسرائيل ثم تجد من السياق أن وصف الكفر يختص بوصف واحد من هذه الأوصاف هو موالاة الكافرين لكن مازال في محل هو بني إسرائيل ثم في قوله تعالى: ﴿لاَ يَتَّخِذْ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ

---

(١) الأعراف، آية: ٥٩.

(٢) المائدة، آيات: ٧٨-٨١.

يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنْ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾[1]. اختص حكم الكفر بوصف موالاة الكافرين مجردًا عن خصوصية محل ومزاحمة أوصاف.

ثم تجد أن موالاة الكافرين بمعناها الاصطلاحي الشرعي وليس اللغوي أو الاستعمالي تتمثل في صور هى:

١- مظاهرة المشركين في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمْ الْمَلائِكَةُ...﴾[2]. الآيات، وأسباب النزول.

٢- ترجيح ولاية القبيلة على ولاية العقيدة أو العدل بين ولاية القبيلة وولاية العقيدة في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾[3]. الآيات، وأسباب النزول.

٣- تكثير سواء الطاعنين في دين الله ترويجًا لباطلهم ابتغاء للعزة عندهم.

٤- انعدام الولاء.

٥- الدخول تحت ولاية الكافرين طوعًا والمناطات الثلاثة (٣)، (٤)، (٥) في قوله: ﴿بَشِّرْ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ إلى قوله تعالى:﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنْ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾[4] الآيات.

٦- التآمر مع الكفار على المسلمين بقصد الإضرار بهم في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ...﴾[5] الآيات وغير ذلك كثير من السياقات في القرآن.

---

(١) آل عمران، آية: ٢٨.

(٢) النساء، آيات: ٩٧-٩٩.

(٣) النساء، آيات: ٨٨-٩١.

(٤) النساء، آيات: ١٣٨-١٤٥.

(٥) التوبة، آيات: ١٠٧-١١٠.

٧- التفرق المطلق والتجمع على دعاوى الجاهلية من تخوم الأرض ونعرات الجنس في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾ إلى قوله ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾(١) السياق في سورة آل عمران.

٨- التشبه المطلق في السنة من خلال الأحاديث الصحيحة عنه ﷺ وهذا على سبيل الحصر ولا يدخل فيها أي معاني أخرى مستفادة من احتمالات لفظ الولي أو الولاية أو مشتقاته أو استعمالاته في اللغة.

- **وهنا تعليق مهم جدًا في هذا الصدد:**

النواقض المكفرة للتوحيد بنوعيه هى الشرك الأكبر بنوعيه وهي الكفر الاعتقادي سواء كان ذلك في مجال العلم أو القول أو العمل أو الباطن أو الظاهر.

ما جاء فيه لفظ الكفر وليس ناقضًا للتوحيد بنوعيه الخبري العلمي المعرفي أو الإرادي القصدي الطلبي فهو كفر عملي أو مجازي أو شرك أصغر أو كفر دون كفر مسميات مترادفة لمسمي واحد وسواء كان ذلك في مجال العلم أو القول أو العمل.

البعض يقع في خطأ شنيع ويؤول النصوص التي جاءت في شرك العبادة وهو الشرك الأكبر الذي عني القرآن بتقريره أكثر من أي شيء آخر أقول يخطئ ويؤول هذا الشرك إلى ما يسميه بالكفر العملي ظنًا منه أن الكفر الاعتقادي ليس هو ما يرجع إلى الشرك الأكبر بنوعيه بل ما يرجع إلى شرك الاعتقاد فقط. ومن ثم يثبت التوحيد في العبادة على أنه توحيد في الباطن دون الظاهر وأن الشرك فيه في الباطن فقط أو بدلالة الأقوال والأعمال الظاهرة الدالة على انخرام الباطن بما لا ينحصر ويؤول

(١) آل عمران، آيات: ٩٨-١١٢.

نصوص القرآن والسنة التي جاءت في الأعمال والأقوال الظاهرة من شرك العبادة وهذا خطأ شنيع وسقطة في إحدي وهدات الإرجاء الخطرة والحق أن توحيد الاعتقاد وتوحيد العبادة يثبت قولاً وعملاً إتيانًا وتركًا ظاهرًا وباطنًا بتنزيل الأحكام على المناطات وفقًا للضوابط التي سبق ذكرها والله سبحانه أعلم وهو ولي التوفيق.

وما جاء فيه لفظ الكفر مما ليس ناقضًا للتوحيد وهو إما أن يكون كما أسلفنا القول كفر عملي أو كفر دون كفر أو كفر مجازي أو ربما كان كفر ينقل عن الملة بقيد آخر مثل الاعتقاد أو الاستحلال أو الإجماع على الترك أو الإباء من قبول الفرائض وليس ذلك إعمالاً لقواعد التأويل التي نرفضها تمامًا ولكن إعمالاً للجمع بين النصوص، كما جاء فيمن جاء للعراف إحدى الروايات أنه يكفر بما أنزل على محمد والأخرى بإبطال صلاته أربعين يومًا فيكون الأول لمن يتخذ ذلك مسلكًا ثابتًا نابعًا عن اعتقاد أو توجه ثابت والأخرى لمن فعله عبثًا أو بطريقة عفوية غير مبنية على توجه ثابت، كذلك بعض ما جاء في شأن تارك الصلاة.

في حالة إذا كان النص يفيد النقل عن الملة قطعًا فهو كفر دلالة وليس كفرًا في الحال أي لدلالة النص على عدم وجود الإيمان في قلبه والكفر في الحال هو لنواقض التوحيد المكفرة.

أما كفر اللوازم والمآلات فهو باعتبار لازم القول أو الاعتقاد أو ما يؤول إليه والقاعدة فيه أن الكفر بالمآل ليس بكفر في الحال ولازم المذهب ليس بمذهب ما لم يلتزمه صاحبه والبعض من العلماء يكفر الداعية دون المقلد والبعض لا يكفر هذا ولا ذاك والبعض يفرق بين شدة الالتصاق للازم والمآل وبين بُعدِه والبعض لا يفرق والأقوى فيه ترك التكفير إلا بعد التزام اللوازم أو البقاء على المعتقدات الفاسدة بعد وضوح لوازمها ومآلاتها.

يقول صاحب "الانتصار لحزب الله الموحدين": قال المجد رحمه الله: "كل بدعة كفَّرنا فيها الداعية فإنَّا نُفَسِّق المقلد فيها كَمَنْ يقول بخلق القرآن أو أن علم الله مخلوق أو أن أسماءه مخلوقة أو أنه لا يُري في الآخرة أو سبَّ الصحابة تديناً أو أن الإيمان مجرد الاعتقاد وما أشبه ذلك". والمجد هو أبو البركات عبد السلام بن عبد الله بن تيمية، محدث أصولي فقيه.

- **حقيقة الكفر لا تتقيد بهذه القيود:**

١- التقييد بعقد الإسلام أو بقول لا إله إلا الله أو الانتساب أو دعوى الإسلام:

لا دخول في حقيقة الإسلام إلا بالتوحيد وترك الشرك، وبالشرك ـــ بعد التجرد منه ـــ تحدث الردة عن الإسلام بالكفر المخرج من الملة يقول يوسف عليه السلام في قوله تعالى: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ۞ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾(٢)، ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾(٣)، وقال ﷻ: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنْ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾(٤). استغفروه أي من الشرك، وقال ﷺ: «مَنْ قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله فقد حُرِّمَ دمه وماله». أما أن الشرك يكفر به من يرتكبه فيقول تعالى: ﴿وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلاَئِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ

(١) يوسف، الآيتان: ٣٧-٣٨.
(٢) التوبة، آية: ٥.
(٣) التوبة، آية: ١١.
(٤) هود، آية: ٦١.

مُسْلِمُونَ﴾[1]، ويقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[2]، ويقول عن الأنبياء: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[3]. وفي البخاري "باب المعاصي من أمر الجاهلية ولا يَكْفُر أو يُكَفَّر مرتكبها إلا بالشرك".

أما عن الانتساب فيقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[4]، ويقول ﷻ: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ﴾[5]، ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾[6].

يقول الشيخ أبو بطين رحمه الله[7]: «ومن أعظم المصائب إعراض أكثر الناس عن النظر في معنى هذه الكلمة العظيمة حتى صار كثير منهم يقول: من قال لا إله إلا الله ما نقول فيه شيئًا وإن فعل ما فعل!!! لعدم معرفتهم بمعني هذه الكلمة نفيًا وإثباتًا. مع أن قائل ذلك لابد أن يتناقض فلو قيل له ما تقول فيمن قال: لا إله إلا الله ولا يقر برسالة محمد بن عبد الله؟! لم يتوقف في تكفيره أو أقر بالشهادتين وأنكر البعث؟ لم يتوقف في تكفيره أو استحل الزنا أو اللواط أو نحوهما أو قال إن الصلوات الخمس ليست بفرض أو أن صيام رمضان ليس بفرض؟ فلابد أن يقول بكفر من قال ذلك فكيف لا تنفعه لا إله إلا الله إذًا ولا تحول بينه وبين الكفر؟ فإذا ارتكب ما يناقضها وهو عبادة غير الله وهو الشرك الأكبر الذي هو أكبر

---

(١) آل عمران، آية: ٨٠.
(٢) الزمر، آية: ٦٥.
(٣) الأنعام، آية: ٨٨.
(٤) البقرة، آية: ٦٢.
(٥) المائدة، آية: ٧٣.
(٦) المائدة، آية: ٧٢.
(٧) الانتصار لحزب الله الموحدين، ص ٩.

الذنوب قيل هو يقول لا إله إلا الله ولا يجوز تكفيره لأنـه يـتكلم بكلمـة التوحيد!! لكن آفة الجهل والتقليد أوجبت ذلك».

أقـول قد مرَّ في هذا نقل مستفيض عن الشيخ بن عبد الوهاب والشيخ سليمان والشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ أصحاب كتب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد وأصحاب "تيسير العزيز الحميد" و"فتح المجيد".

٢- حقيقة الكفر لا تتقيد باعتقاده:

يقول صاحب كتاب "إيثار الحق عن الخلـق"(١): «ومـن العجـب أن الخصوم من البهاشمة وغيرهم لم يساعدوا على تكفير النصارى الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ومن قال بقولهم مع نص القرآن على كفرهم إلا بشرط أن يعتقدوا ذلك مع القول وعارضوا هذه الآية الظاهرة بعموم مفهوم قولـه ﷻ: ﴿وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا﴾(٢). كما سيأتي بيانه وضعفه ومع وضـوح الآية الكريمة في الكفر بالقول. إلى أن يقول(٣): وعلي هذا لا يكـون شـيء من الأفعال والأقوال كفر إلا مع الاعتقاد حتى قتل الأنبياء والاعتقـاد مـن السرائر المحجوبة فلا يتحقق كفر كافر قط إلا بالنص الخاص عن شـخص شخص(٤). ولا يدل حرب الأنبياء على ذلك لاحتمال أن يكون على الظـاهر كقوله ﷺ: «فمن حكمت له بمال أخيه فإنما أقطع له قطعة من النار».

ويقول في موضع آخر(٥): وقد بالغ الشيخ أبـو هاشـم وأصـحابه وغيرهم فقالوا: هذه الآية تدل على أن من لم يعتقد الكفر ونطق بـصريح الكفر وبسب الرسل أجمعين وبالبراءة منهم وبتكذيبهم من غير إكراه وهو يعلم أن ذلك كفر أنه لا يكفر وهو ظاهر اختيار الزمخشري في كشافه فإنه

---

(١) إيثار الحق عن الخلق، ص ٤١٨، مكتبة العلم بجدة، مكتبة ابن تيمية.
(٢) النحل، آية: ١٠٦.
(٣) المصدر السابق، ص ٤١٩.
(٤) وهذا باطل إجماعًا.
(٥) المصدر السابق، ص ٤٣٧.

فسَّر شرح الصدر بطيب النفس بالكفر وباعتقاده معًا وهذا كله ممنوع لأمرين "أحدهما" معارضة قولهم بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾(١). فنصَّ بكفر من قال ذلك بغير شرط فخرج المكره بالنص والإجماع وبقي غيره، فلو قال مكلف مختار غير مكره بمقالة النصاري التي نصَّ القرآن على أنها كفر ولم يعتقد صحة ما قال لم يُكَفِّرُوه مع أنه لعلمه بقبح قوله يجب أن يكون أعظم إثمًا من بعض الوجوه لقوله تعالى: ﴿وهم يعلمون﴾ فعكسوا وجعلوا الجاهل بذنبه كافرًا والعالم الجاحد بلسانه مع علمه مسلمًا. "الأمر الثاني" أن حجتهم دائرة بين دلالتين ظنيتين قد اختلف فيهما في الفروع الظنية:

إحداهما: قياس العامد على المكره والقطع على أن الإكراه وصف ملغي مثل كون القائل بالثلاثة نصرانيًا وهذا نازل جدًا ومثله لا يقبل في الفروع الظنية.

وثانيتهما: عموم المفهوم ﴿وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا﴾(٢). فإنه لا حجة لهم في منطوقها قطعًا وفاقًا، وفي المفهوم خلاف مشهور هل هو حجة ظنية مع الاتفاق على أنه هنا ليس بحجة قطعية ثم في إثبات عموم له خلاف، وحجتهم هنا من عمومه أيضًا وهو أضعف منه، بيانه أن مفهوم الآية: ومن لم يشرح بالكفر صدرًا فهو بخلاف ذلك سواء قال كلمة الكفر بغير إكراه أو قالها مع إكراه فاحتمل أن لا يدخل المختار بل رجَّح أن لا يدخل لأن سبب النزول في المكره والعموم المنطوق يضعف شموله بذلك ويختلف فيه فضعف ذلك في الظنيات من ثلاث جهات: من كونه مفهومًا، وكونه عموم مفهوم وكونه على سبب مضاد لمقصودهم.

---

(١) المائدة، آية: ٧٣.

(٢) النحل، آية: ١٠٦.

قال قتادة: نزلت في عمَّار بن ياسر ذكره الذهبي في ترجمته من النبلاء ورواه الواحدي عن ابن عباس فكيف يقدم مع ذلك كله على منطوق ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ﴾(١)». أهـ.

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية (٢) بعد ذكر قوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ۞وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾(٣): «فقد أخبر أنهم كفروا بعد إيمانهم مع قولهم إنما تكلمنا بالكفر من غير اعتقاد له بل كنا نخوض ونلعب وبيَّن أن الاستهزاء بآيات الله كفر ولا يكون هذا إلا ممن شرح صدره بهذا الكلام ولو كان الإيمان في قلبه منعه أن يتكلم بهذا الكلام.

ويقول(٤): إن الله سبحانه لم يقل لهؤلاء المستهزئين قد كذبتم في قولكم: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾(٥). فلم يكذبهم في هذا العذر كما كذبهم في سائر ما أظهروه من العذر الذي يوجب براءتهم من الكفر لو كانوا صادقين، بل بيَّن أنهم كفروا بعد إيمانهم بهذا الخوض واللعب.

ويقول شيخ الإسلام في موضع آخر عن المستهزئين(٦): قال تعالى في حق المستهزئين: ﴿لاَ تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾(٧). فبيَّن أنهم كفار بالقول مع أنهم لم يعتقدوا صحته وهذا باب واسع». أهـ.

وفي "الانتصار لحزب الله الموحدين" (٨): «فتغيير الاسم لا يغير حقيقة المسمى ولا يزيل حكمه كتسمية البوادي سوالفهم الباطلة حقًا وتسمية الظلمة

---

(١) المائدة، آية: ٧٣.
(٢) الإيمان، ص ٢٠٧.
(٣) التوبة، الآيتان: ٦٤-٦٥.
(٤) الصارم المسلول، ص ٤٦٥.
(٥) التوبة، آية: ٦٥.
(٦) الصارم المسلول، ص ٤- ٥.
(٧) التوبة، آية: ٦٦.
(٨) الانتصار لحزب الله الموحدين، ص ٨-٩.

ما يأخذونه من الناس بغير اسمه ولما سمع عدي بن حاتم وهو نصراني قول الله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾[١]. قال للنبيّ ﷺ: لسنا نعبدهم. فقال ﷺ: «أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ويحلـون مـا حرَّم الله فتحلونه. قال: قلت بلى، قال: فتلك عبادتهم» فعـديّ ﷺ مـا كـان يحسب أن موافقتهم فيما ذكر عبادة منهم فأخبر ﷺ أن ذلك عبادة مـنهم لهـم مع أنهم لا يعتقدونه عبادة لهم وكذلك ما يفعله عبَّاد القبور من دعاء أصحابها وسؤالهم قضاء الحاجات وتفريج الكربات والتقرب إليهم بالـذبائح والنـذور عبادة منهم للمقبورين وإن كانوا لا يسمونه ولا يعتقدونه عبادة».

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية عن مانعي الزكاة[٢]: «والصحابة لـم يقولوا هل أنت مقر بوجوبها أو جاحد لها. هذا لم يعهد عن الصحابة بحال بل قال الصديق لعمر رضى الله عنهما: والله لو منعـوني عناقًـا كـانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها. فجعل المبيح للقتال مجـرد المنع لا جحد الوجوب، وقد روى أن طوائف منهم كانوا يقرون بالوجوب لكن يبخلون بها ومع هذا فسيرة الخلفاء فيهم سـيرة واحـدة وهـى قتـل مقاتليهم وسبي ذراريهم وغنيمة أموالهم».

ويقول شيخ الإسلام: «وأيضًا فإن اليهود كانوا يعتقدون صدق الرسول ﷺ ولم يتبعوه، وفرعون كان يعتقد صدق موسى ولم ينقد له، بل جحد بآيات الله ظلمًا وعلوًا، وإبليس لم يكذب في أمر الله تعالى له بالسجود، وإنما أبـى عن الانقياد كفرًا واستكبارًا فلم ينفع الاعتقاد هؤلاء لما تركوا الانقياد». أهـ.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية[٣]: «ويجب أن يعلم أن القول بأن كفـر الساب في نفس الأمر إنما هو لاستحلاله السبّ زلة منكرة وهفوة عظيمـة

---

(١) التوبة، آية: ٣١.
(٢) نقلاً عن الكلمات النافعات من كتاب "عقيدة الموحدين"، ص ٢٣٧.
(٣) الصارم المسلول، ص ٤٥٤.

ويرحم الله القاضي أبي يعلي لقد ذكر في غير موضع ما يناقض ما قاله هنا، وإنما وقع من وقع في هذه المهواة بما تلقوه من كلام طائفة من متأخرى المتكلمين ـ وهم الجهمية الإناث الذين ذهبوا مذهب الجهمية الأولى في أن الإيمان هو مجرد التصديق الذي في القلب وإن لم يقترن به قول اللسان ولم يقتض عملاً في القلب ولا في الجوارح ـ وصرح القاضي أبو يعلي هنا قال عقب أن ذكر ما حكيناه عنه وعلي هذا لو قال الكافر: أنا معتقد بقلبي معرفة الله وتوحيده ولكني لا آتي بالشهادتين كما لا آتي غيرها من العبادات كسلاً. لم يحكم بإسلامه في الظاهر ويحكم به باطنًا. قال: وقول الإمام أحمد: ومن قال أن المعرفة تنفع في القلب من غير أن يتلفظ بها فهو جهمي، محمول على أحد وجهين: أحدهما: أنه جهمي في ظاهر الحكم. الثاني: على أنه يمتنع من الشهادتين عنادًا، لأنه احتج أحمد في ذلك بأن إبليس عرف ربه بقلبه ولم يكن مؤمنًا. ومعلوم أن إبليس اعتقد أنه لا يلزم امتثال أمره تعالى بالسجود لآدم، وقد ذكر القاضي في غير موضع أنه لا يكون مؤمنًا حتى يصدق بلسانه مع القدرة وبقلبه، وإن الإيمان قول وعمل كما هو مذهب الأئمة كلهم مالك وسفيان والأوزاعي والليث والشافعي وأحمد وإسحاق ومن قبلهم وبعدهم من أعيان الأمة وليس الغرض هنا استيفاء الكلام في الأصل وإنما الغرض التنبيه على ما يختص هذه المسألة وذلك من وجوه:

أحدها: أن الحكاية المذكورة عن الفقهاء أنه "إن كان مستحلاً كفر وإلا فلا" ليس لها أصل، وإنما نقلها القاضي من كتاب بعض المتكلمين الذين نقلوها عن الفقهاء، وهؤلاء نقلوا قول الفقهاء بما ظنوه جاريًا على أصولهم أو بما قد سمعوه من بعض المنتسبين إلى الفقه ممن لا يعد قوله قولاً. وقد حكينا نصوص أئمة الفقهاء وحكاية إجماعهم عمن هو من أعلم الناس بمذاهبهم، فلا يظن ظان أن في المسألة خلافًا يجعل المسألة من

مسائل الخلاف والاجتهاد، وإنما ذلك غلط لا يستطيع أحد أن يحكي عن واحد من الفقهاء أئمة الفتوى هذا التفصيل البتة.

الوجه الثاني: أن الكفر إذا كان هو الاستحلال فإنما معناه اعتقاد أن السبَّ حلال فإنه لما اعتقد أن ما حرَّمه الله تعالى حلال كفر، ولا ريب أن من اعتقد في المحرمات المعلوم تحريمها أنها حلال كفر لكن لا فرق في ذلك بين سبِّ النبيّ وبين قذف المؤمنين والكذب عليهم والغيبة لهم إلى غير ذلك من الأقوال التي عُلِمَ أن الله حرَّمها فإنه من فعل شيئًا من ذلك مستحلاً كفر مع أنه لا يجوز أن يقال من قذفَ مسلمًا أو اغتابه كفر يعني بذلك إذا استحله.

الوجه الثالث: أن اعتقاد حِلِّ السب كفر سواء اقترن به وجود السب أو لم يقترن فإذًا لا أثر للسب في التكفير وجودًا وعدمًا وإنما المؤثر هو الاعتقاد وهو خلاف ما أجمع عليه العلماء.

الوجه الرابع: أنه إذا كان المكفر هو اعتقاد الحل فليس في السب ما يدل على أن الساب مستحل فيجب أن لا يكفر لا سيما إذا قال: "أنا أعتقد أن هذا حرام وإنما أقول غيظًا وسفهًا أو عبثًا أو لعبًا" كما قال المنافقون: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾(١). وكما إذا قال إنما قذفت هذا وكذبت عليه لعبًا وعبثًا، فإن قيل لا يكونون كفارًا فهو خلاف نص القرآن، وإن قيل يكونون كفارًا، فهو تكفير بغير موجب إذا لم يجعل نفس السب مكفرًا، وقول القائل أنا لا أصدقه في هذا لا يستقيم، فإن التكفير لا يكون بأمر محتمل، فإذا كان قد قال: "أنا أعتقد أن ذلك ذنب ومعصية وأنا أفعله" فكيف يكفر إن لم يكن ذلك كفر، ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿لاَ تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾(٢). ولم يقل قد كذبتم في قولكم إنما كنا نخوض ونلعب

---

(١) التوبة، آية: ٦٥.

(٢) التوبة، آية: ٦٦.

فعلم أنه لم يكذبهم في هذا العذر كما كذبهم في سائر ما أظهروه من العذر الذي يوجب براءتهم من الكفر لو كانوا صادقين، بل بَيَّن أنهم كفروا بعد إيمانهم بهذا الخوض واللعب، وإذا تبين أن مذهب سلف الأمة ومن اتبعهم من الخلف أن هذه المقالة في نفسها كفر استحلها صاحبها أو لم يستحلها، فالدليل على ذلك جميع ما قدمناه في المسألة الأولي من الدليل على كفر الساب مثل قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ﴾(١)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾(٢)، وقوله تعالى: ﴿لاَ تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾(٣).وما ذكرناه من الأحاديث والآثار فإنما هو أدلة بينة في أن نفس أذى الله ورسوله كفر مع قطع النظر عن اعتقاد التحريم وجودًا وعدمًا، بل في الحقيقة كل ما دل على أن الساب كافر وأنه حلال الدم لكفره، فقد دل على هذه المسألة، إذ لو كان الكفر المبيح هو اعتقاد أن السب حلال لم يجز تكفيره وقتله حتى يظهر هذا الاعتقاد ظهورًا تثبت بمثله الاعتقادات المبيحة للدماء». أهـ.

وقد سبق نقل باقي السياق في باب حقيقة الإيمان ابتداء من منشأ الشبهة في قوله: فعلم أن الاستخفاف والاستهانة به ينافي الإيمان منافاة الضد للضد. ولولا خشية الإطالة لذكرته هنا لما فيه من قوة الدليل على فساد تقييد حقيقة الكفر بشرط الاعتقاد.

ثم يقول شيخ الإسلام(٤): «وأما إهانة الرجل من يعتقد وجوب كرامته كالوالدين ونحوهما فلأنه لم يهن من كان الانقياد له والإكرام شرطًا في إيمانه، وإنما أهان من إكرامه شرط في بره وطاعته وتقواه وجانب الله

(١) التوبة، آية: ٦١.
(٢) الأحزاب، آية: ٥٧.
(٣) التوبة، آية: ٦٦.
(٤) الصارم المسلول، ص ٤٦٠.

ورسوله إنما كفره فيه لأنه لا يكون مؤمنًا حتى يصدقه تـصديقًا يقتـضي الخضوع والانقياد فحيث لم يقتضيه لم يكن ذلك التصديق إيمانًا بل كـان وجوده شرًا من عدمه». أهـ.

٣- حقيقة الكفر لا تتقيد بشرط الاستحلال:

قد مرَّ ما ذكرناه في الكلام عن الاعتقاد وهو منطبق على الكلام عن الاستحلال بمعني اعتقاد الحل ولكن نزيد هنا أن الاستحلال نفسه ليس هو فقط اعتقاد الحل بل يتعدى ذلك إلى غير هذا من المعاني.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية[١]: «إن العبد إذا فعل الذنب مع اعتقـاد أن الله حرَّمه عليه واعتقاد انقياده لله فيما حرَّمه وأوجبه فهذا ليس بكـافر فأما إن اعتقد أن الله لم يحرمه أو أنه حرَّمه لكن امتنع مـن قبـول هـذا التحريم وأبي أن يذعن لله وينقاد فهو إما جاحد أو معاند ولهذا قـالوا مـن عصي الله مستكبرًا كإبليس كفر بالاتفاق ومن عصى مشتهيًا لم يكفر عنـد أهل السنة والجماعة وإنما يكفره الخوارج فإن العاصي المستكبر وإن كان مصدقًا بأن الله ربه فإن معاندته له ومحادته تنافي هذا التصديق، وبيان هذا أن من فعل المحارم مستحلاً لها فهو كافر بالاتفاق فإنه ما آمن بالقرآن من استحل محارمه وكذلك لو استحلها من غير فعل والاستحلال اعتقاد أن الله لم يحرمها وتارة بعدم اعتقاد أن الله حرَّمها وهذا يكون لخلل في الإيمـان بالربوبية ولخلل في الإيمان بالرسالة ويكون جحدًا محضًا غير مبني على مقدمة وتارة يعلم أن الله حرمها ويعلم أن الرسول إنما حرَّم ما حرَّمـه الله ثم يمتنع عن التزام هذا التحريم ويعاند المحرَّم فهو أشد كفرًا ممن قبله وقد يكون هذا مع علمه أن من لم يلتزم هذا التحريم عاقبه الله وعذَّبه ثم إن هذا الامتناع والإباء إما لخلل في اعتقاد حكمة الآمر وقدرته فيعود هـذا إلـى

(١) الصارم المسلول، ص ٤٥٩.

عدم التصديق بصفة من صفاته، وقد يكون مع العلم بجميع ما يُصدَّق به تمردًا أو اتباعًا لغرض النفس وحقيقته كفر هذا لأنه يعترف لله ورسوله بكل ما أخبر به ويصدق بكل ما يصدق به المؤمنون لكنه يكره ذلك ويبغضه ويسخطه لعدم موافقته لمراده ومشتهاه ويقول أنا لا أقر بذلك ولا ألتزمه وأبغض هذا الحق وأنفر عنه فهذا نوع غير النوع الأول وتكفير هذا معلوم بالاضطرار من دين الإسلام والقرآن مملوء من تكفير مثل هذا النوع بل عقوبته أشد وفي مثله قيل «أشد الناس عذابًا يوم القيامة عالمٌ لم ينفعه الله بعلمه». وهو إبليس ومن سلك سبيله وبهذا يظهر الفرق بينه وبين العاصي فإنه يعتقد وجوب ذلك الفعل عليه ويحب أن يفعله لكن الشهوة والنفرة منعته من الموافقة فقد أتي من الإيمان بالتصديق والخضوع والانقياد وذلك قول وعمل ولكن لم يكمل العمل». أهـ.

أقول: وجه الاستدلال هنا أنه إذا كان الاستحلال يكون كفرًا في بعض صوره للامتناع عن التزام حكم الله بالتحريم أي مناقضة الخضوع والانقياد اكتفاءًا بالاعتقاد فإن كل ما يناقض الخضوع والانقياد يكون كفرًا لمنافاته للإيمان الذي هو اعتقاد وانقياد.

ولما كانت الإهانة تتنافى مع الخضوع والانقياد ولا تتنافى مع الاعتقاد لم يكفر ساب والديه لأن الإنسان قد يهين من يعتقد وجوب إكرامه فإهانته لوالديه هنا ليست دليلاً على عدم اعتقاده وجوب إكرامهما حتى يكفر بذلك ولكن الإهانة تتنافى مع الخضوع والانقياد والخضوع والانقياد للوالدين ليست شرطًا في الإيمان ولذلك قال شيخ الإسلام[١]: «وأما إهانة الرجل من يعتقد وجوب كرامته كالوالدين ونحوهما فلأنه لم يهن من كان الانقياد له والإكرام شرطًا في إيمانه وإنما أهان من إكرامه شرط في بره وطاعته

(١) الصارم المسلول، ص٤٦٠.

وتقواه وجانب الله والرسول ﷺ إنما كفر فيه بالإهانة لأن الإهانة دليل على عدم وجود الانقياد وليست دليلاً على عدم اعتقاد وجوب الإكرام والانقياد شرط في الإيمان ولذلك كان سبّ الله والرسول كفرًا لمنافاته للانقياد الذي لا يكون بغيره إسلام، ولا إيمان وعليه فإن كل ما ينافي الانقياد فهو كفر بغير شرط الاستحلال». والله ولي التوفيق، انتهى بتصرف.

يقول شيخ الإسلام[١]: «وذلك أن نقول: إن سب الله أو سب رسوله كفرٌ ظاهرٌ وباطن سواء كان الساب يعتقد أن ذلك محرم أو كان مستحلاً له أو كان ذاهلاً عن اعتقاده هذا مذهب الفقهاء وسائر أهل السنة القائلين بأن الإيمان قول وعمل». أهـ.

٤- حقيقة الكفر لا تتقيد بالجحود:

يقول شيخ الإسلام[٢]: «وقد قال الإمام أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم الحنظلي المعروف بابن راهويه وهو أحد الأئمة يعدل بالشافعي وأحمد: قد أجمع المسلمون أن من سبَّ الله أو سبَّ رسوله عليه الصلاة والسلام أو دفع شيئًا مما أنزل الله أو قتل نبيا من أنبياء الله أنه كافر بذلك وإن كان مقرًا بما أنزل الله». أهـ.

ويقول[٢]: «والكفر لا يختص بالتكذيب بل لو قال أنا أعلم أنك صادق لكن لا أتبعك بل أعاديك وأبغضك وأخالفك ولا أوافقك لكان كفره أعظم». أهـ.

ويقول[٣]: «فإذا حصل في القلب استخفاف واستهانة امتنع أن يكون فيه انقياد واستسلام فلا يكون فيه إيمان وهذا هو بعينه كفر إبليس فإنه سمع أمر الله فلم يكذب رسولاً ولكن لم ينقد للأمر ولم يخضع له واستكبر

(١) الصارم المسلوم، ص٤٥١.
(٢) كتاب الإيمان، ص٢٢٢.
(٣) المصدر السابق، ص٤٥٨.

عن الطاعة فصار كافرًا وهذا موضع زاغ فيه خلق من الخلف تخيل لهم أن الإيمان ليس في الأصل إلا التصديق ثم يرون مثل إبليس وفرعون ممن لم يصدر عنه تكذيب أو صدر عنه تكذيب باللسان لا بالقلب، وكفره من أغلظ الكفر فيتحيرون، ولو أنهم هدوا لما هدى إليه السلف الصالح لعلموا أن الإيمان قول وعمل أعني في الأصل قولاً في القلب، وعملاً في القلب فإن الإيمان بحسب كلام الله ورسالته[1]. وكلام الله ورسالته يتضمن أخباره وأوامره فيصدق القلب أخباره تصديقًا يوجب حالاً في القلب بحسب المصدَّق به. والتصديق هو من نوع العلم والقول وينقاد لأمره ويستسلم وهذا الانقياد والاستسلام هو من نوع الإرادة والعمل ولا يكون مؤمنًا إلا بمجموع الأمرين فمن ترك الانقياد كان مستكبرًا فصار من الكافرين وإن كان مصدقًا فالكفر أعمّ من التكذيب يكون تكذيبًا وجهلاً ويكون استكبارًا وظلمًا ولهذا لم يوصف إبليس إلا بالكفر والاستكبار دون التكذيب ولهذا كان كفر من يعلم مثل اليهود ونحوهم من جنس كفر إبليس وكان كفر من يجهل مثل النصارى ونحوهم ضلالاً وهو الجهل». أهـ.

يقول الشيخ حافظ حكمي[2]: «أنواع الكفر لا تخرج عن أربعة:

١- كفر جهل وتكذيب　　٢- كفر جحود

٣- كفر عناد واستكبار　　٤- كفر نفاق

فأحدها يخرج من الملة بالكلية.

فإن انتفي تصديق القلب مع عدم العلم بالحق. فكفر الجهل والتكذيب ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾[3].

---

(١) استدلال بنوع الخطاب على طبيعة الإيمان.

(٢) الشيخ حافظ حكمي، معارج القبول، ج٢، ص ١٨-١٩.

(٣) يونس، آية: ٣٩.

وإن كتم الحق مع العلم بصدقه فكفر الجحود والكتمان ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ...﴾[١]، ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[٢].

وإن انتفى عمل القلب من النية والإخلاص والمحبة، والإذعان مع انقياد الجوارح الظاهرة فكفر نفاق. ﴿وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾[٣].

وإن انتفى عمل القلب وعمل الجوارح مع المعرفة بالقلب والاعتراف باللسان فكفر عناد واستكبار ككفر إبليس وكفر غالب اليهود الذين شهدوا أن الرسول حق ولم يتبعوه». انتهى بتصرف.

٥- حقيقة الكفر لا تتقيد بالعلم:

وذلك لأن الكفر لا يقتصر على الجحد أو العناد، وإنما يدخل فيه أيضًا انتفاء تصديق القلب مع عدم العلم بالقلب فيكون كفرًا بالجهل والتكذيب. ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بعِلْمِهِ ولَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾[٤]. وذكر شيخ الإسلام عن الذين قالوا: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾[٥]. لم يعلموا أنهم يكفرون بهذا ولم يعتقدوا ما قالوه ولم يقصدوا أن يكفروا به.

ويقول صاحب كتاب "تطهير الاعتقاد"[٦]: «قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ

---

(١) النمل، آية: ١٤.

(٢) البقرة، آية: ١٤٦.

(٣) البقرة، آية: ٨.

(٤) يونس، آية: ٣٩.

(٥) التوبة، آية: ٦٥.

(٦) تطهير الاعتقاد، ص ٥٥.

تَسْتَهْزِئُونَ۝ لاَ تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾[١]. فهؤلاء لم يعتقدوا ما قالوه ولم يقصدوا أن يكفروا»[٢]. «فإن قلت هم جاهلون أنهم مشركون بما يفعلونه، قلت قد خرَّج الفقهاء في كتب الفقه في باب الردة أن من تكلم بكلمة الكفر يكفر وإن لم يقصد معناها». أهـ.

وما جاء في "الانتصار لحزب الله الموحدين" عن قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾[٣]. يقول أبو بطين رحمه الله[٤]: «فعدي ﷺ ما كان يحسب أن موافقتهم فيما ذكر عبادة منهم لهم فأخبره ﷺ أن ذلك عبادة منهم لهم مع أنهم لا يعتقدونه عبادة لهم». أهـ.

فالنصارى لا يعلمون أن موافقة الأحبار والرهبان في التحريم والتحليل بخلاف الشرع عبادة لهم يقع بها الشرك والكفر المخرج من الملة ولم يعتقدوا هذه الموافقة عبادة ولم يقصدوا بها العبادة، ومع ذلك لأن لها حقيقة العبادة وقعت عبادة منهم لهم يتحقق بها الشرك الأكبر وهو الكفر المخرج من الملة.

وقدامة بن مظعون ﷺ لم يكن يعلم أن استحلاله للخمر ردة يستتاب منها هو ومن معه، ولم يقصد بهذا الاستحلال الكفر، ولم ينشرح صدره به، ومع ذلك أجمع رأي عمر وأهل الشورى أن يستتاب هو وأصحابه فإن أقروا بالتحريم جلدوا، وإن لم يقروا به كفروا ثم إنه تاب وكاد ييأس لعظم ذنبه في نفسه حتى أرسل إليه عمر ﷺ بأول غافر.

والكلام في الجهل والعلم يطول ولنا معه وقفة أخري بعد الانتهاء من هذا الباب وإنما احتجنا هنا تأكيد أن لا يكون العلم شرطًا.

---

(١) التوبة، الآيتان: ٦٥-٦٦.

(٢) تطهير الاعتقاد، ص ١٣١.

(٣) التوبة، آية: ٣١.

(٤) الانتصار لحزب الله الموحدين، ص ٨.

٦- حقيقة الكفر لا تتقيد بشرح الصدر:

يتضح فساد هذا التقييد من قوله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنْ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(١).

يقول شيخ الإسلام(٢): «وهذه الآية مما يدل على فساد قول جهم، فإنه(٣) جعل كل من تكلم بالكفر من أهل وعيد الكفَّار إلا مَنْ أكره وقلبه مطمئن بالإيمان فإن قيل فقد قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا﴾(٤). قيل هذا موافق لأولها فإنه مَنْ كفر من غير إكراه فقد شرح بالكفر صدرًا وإلا تناقض أول الآية وآخرها ولو كان المراد بمن كفر هو الشارح صدره وذلك يكون بلا إكراه لم يستثن المكره فقط بل كان يجب أن يستثني المكره وغيره إذا لم يشرح صدره، وإذا تكلم بكلمة الكفر طوعًا فقد شرح بها صدرًا وهي كفر».

ويقول(٥): «فمن قال بلسانه كلمة الكفر من غير حاجة عامدًا لها عالمًا بأنها كلمة كفر فإنه يكفر بذلك ظاهرًا وباطنا ولا يجوز أن يقال: أنه في الباطن يجوز أن يكون مؤمنًا ومن قال ذلك فقد مرق من الإسلام قال سبحانه: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنْ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(٦). ومعلوم أنه لم يُرد الكفر هنا اعتقاد القلب فقط لأن ذلك لا يكره الرجل عليه وهو قد استثنى من أكره ولم يرد من قال واعتقد لأنه استثني المكره وهو لا يكره على العقد(٧). والقول وإنما يكره على القول فقط فعلم

(١) النحل، آية: ١٠٦.
(٢) كتاب الإيمان، ص ١٦٧.
(٣) آي القرآن.
(٤) النحل، آية: ١٠٦.
(٥) شيخ الإسلام ابن تيمية، الصارم المسلول، ص ٤٦٢.
(٦) النحل، آية: ١٠٦.
(٧) العقد هو اعتقاد القلب.

أنه أراد من تكلم بكلمة الكفر فعليه غضب من الله وله عذاب عظيم وأنـــه كافر بذلك إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن مـــن شـــرح بـــالكفر صدرًا من المكرهين فإنه كافر أيضًا فصار من تكلم بالكفر كافرًا إلا مـــن أكره فقال بلسانه كلمة الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان وقال تعالى فـــي حـــق المستهزئين: ﴿لاَ تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾(١). فبيَّن أنهم كفار بالقول مع أنهم لم يعتقدوا صحته». أهـــ.

٧- حقيقة الكفر لا تتقيد بالعناد ولا يمنعها التأويل:

ويقول ابن جرير الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ﴾(٢). وهذا من أبين الأدلة على خطأ من زعم أن الله لا يعذِّب أحدًا على معصية ركبها أو ضلالة اعتقدها إلا أن يأتيها بعـــد علـــم منه بصواب وجهها فيركبها عنادًا منه لربه فيها لأنه لو كان كذلك لم يكن بين فريق الضلالة الذي ضلّ وهو يحسب أنه مهتدى، وفريق الهدي فرق وقد فرَّق الله بين أسمائهما وأحكامهما في هذه الآية(٣).

قولـــه تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾(٤). لـــم يعتقدوا ما قالوه ولم يحسبوه كفرًا ولم يقصدوا به الكفر ولم يعاندوا وإنمـــا هَزلوا وأرادوا قطع الطريق ووعثاء السفر.

يقول أبو بطين رحمه الله(٥): «واحتج بعض من يجادل عن المشركين بقصة الذي أوصي أهله أن يحرقوه بعد موته على أن من ارتكـــب الكفـــر جاهلاً لايكفر ولايكفر إلا المعاند والجواب عن ذلك كلـــه، أن الله ســـبحانه

(١) التوبة، آية: ٦٦.
(٢) الأعراف، آية: ٣٠.
(٣) ابن كثير، ج٢، ص ٢٠٩.
(٤) التوبة، آية: ٦٥.
(٥) الانتصار لحزب الله الموحدين، ص ١٣.

وتعالى أرسل رسله مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وأعظم ما أرسلوا به ودعوا إليه عبادة الله وحده لا شريك له، والنهي عن الشرك الذي هو عبادة غيره فإن كان مرتكب الشرك الأكبر معذورًا لجهله فمن هو الذي لا يُعذَر؟!! ولازم هذه الدعوى أنه ليس لله حجة على أحد إلا المعاند مع أن صاحب هذه الدعوى لا يمكن طرد أصله بل لابد له أن يتناقض فإنه لا يمكنه أن يتوقف في تكفير من شك في رسالة محمد ﷺ أو شك في البعث أو غير ذلك من أصول الدين والشاك جاهل. والفقهاء رحمهم الله يذكرون في كتب الفقه حكم المرتد وأنه المسلم الذي يكفر بعد إسلامه نطقًا أو فعلاً أو شكًا أو اعتقادًا وسبب الشك الجهل ولازم هذا لا يَكفُرْ جهلة اليهود والنصارى ولا الذين يسجدون للشمس والقمر والأصنام لجهلهم، ولا الذين حرَّقهم علي بن أبي طالب ﷺ بالنار لأننا نقطع أنهم جهَّال وقد أجمع العلماء رحمهم الله على كفر من لم يكفِّر اليهود والنصارى أو يشك في كفرهم ونحن نتيقن أن أكثرهم جهَّال وقال الشيخ تقي الدين: مَنْ سبَّ الصحابة أو واحدًا منهم واقترن بسببه دعوى أن عليًا إله أو أن جبرائيل غلط فلا شك في كفر هذا بل لا يُشك في كفر من توقف في تكفيره قال ومن زعم أن الصحابة ارتدوا بعد رسول الله ﷺ إلا نفرًا قليلاً لا يبلغون بضعة عشر أو أنهم فسقوا فلا ريب في كفر قائل ذلك بل من شك في كفره فهو كافر قال ومن ظن أن قوله ﷻ: ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾[1]. بمعني قدَّر وأن الله ما قدَّر شيئًا إلا وقع وجعل عبَّاد الأصنام ماعبدوا إلا الله فإن هذا من أعظم الناس كفرًا بالكتب كلها.

ولا ريب[2] أن أصحاب هذه المقالة أهل علم وزهد وعبادة وأن سبب دعواهم هذه الجهل، وقد أخبر الله سبحانه عن الكفار أنهم في شك مما

---

(١) الإسراء، آية: ٢٣.

(٢) الكلام مستمر لأبي بطين.

تدعوهم إليه الرسل وأنهم في شك من البعث فقالوا لرسلهم ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾[١]، وقال ﷻ: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾[٢]، وقال إخبارًا عنهم: ﴿إِنْ نَظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾[٣]، وقال عن الكفار: ﴿إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً۝ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[٥]. ووصفهم بغاية الجهل كما في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[٦]، وقد ذمَّ الله المقلدين بقوله عنهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾[٧]. الآيتين ومع ذلك كفَّرهم سبحانه وتعالى واستدل العلماء بهذه الآية ونحوها على أنه لا يجوز التقليد في معرفة الله والرسالة، وحجة الله سبحانه قائمة على الناس بإرسال الرسل إليهم وإن لم يفهموا حجج الله وبيناته.

قال الشيخ موفق الدين أبو محمد بن قدامة رحمه الله لما أنجز كلامه في مسألة، هل كل مجتهد مصيب؟ ورجَّح قول الجمهور أنه ليس كل مجتهد مصيبًا بل الحق في قول واحد من أقوال المجتهدين. قال: «وزعم الجاحظ أن مخالف ملة الإسلام إذا نظر فعجز عن إدراك الحق فهو معذور غير آثم. إلى أن قال: أما ما ذهب إليه الجاحظ فباطل يقينًا وكفر بالله وردٌّ عليه وعلي رسوله، فإنَّا نعلم قطعًا أن النبيَّ ﷺ أمر اليهود

---

(١) إبراهيم، آية: ٩.
(٢) هود، آية: ١١٠.
(٣) الجاثية، آية: ٣٢.
(٤) الأعراف، آية: ٣٠.
(٥) الكهف، آيتان: ١٠٣-١٠٤.
(٦) الأعراف، آية: ١٧٩.
(٧) الزخرف، آية: ٢٢.

والنصارى بالإسلام وإتباعه، وذمهم على إصرارهم وقاتلهم جميعهم يقتل البالغ منهم، ونعلم أن المعاند العارف ممن يقل، وإنما الأكثر مقلدة اعتقدوا دين آبائهم تقليدًا ولم يعرفوا معجزات الرسول وصدقه والآيات الدالات في القرآن على هذا كثيرة كقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾[1]، وقال ﷻ: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[2]، ﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾[3]، وقوله ﷻ: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾[4]، ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾[5]، ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا۝ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ﴾[6] وفي الجملة ذمّ المكذبين للرسول مما لا ينحصر في الكتاب والسنة. انتهى.

والعلماء يذكرون أن من أنكر وجوب عبادة من العبادات الخمس أو قال في واحدة منها أنها سنة لا واجبة أو جحد حل الخبز ونحوه أو جحد تحريم الخمر أو نحوه أو شك في ذلك ومثله لا يجهله كفر، وإن كان مثله يجهله عرّف ذلك فإن أصرَّ بعد التعريف كفر وقتل، ولم يقولوا إذا تبين له الحق وعاند كفر. إلى أن يقول: وقد ذكر العلماء من أهل كل مذهب أشياء كثيرة لا يمكن حصرها من الأقوال والأفعال والاعتقادات أنه يكفر صاحبها ولم يقيدوا ذلك بالمعاند.

فالمدعي أن مرتكب الكفر متأولاً أو مجتهدًا أو مخطئًا أو مقلدًا أو جاهلاً معذور مخالف للكتاب والسنة والإجماع بلا شك مع أنه لابد أن

---

(١) ص ، آية: ٢٧.
(٢) فصلت، آية: ٢٣.
(٣) الجاثية، آية: ٢٤.
(٤) المجادلة، آية: ١٨.
(٥) الأعراف، آية: ٣٠.
(٦) الكهف، الآيتان: ١٠٤-١٠٥.

ينقض أصله فلو طرد أصله كفر بلا ريب كما لو توقف في تكفير من شك في رسالة محمد ﷺ ونحو ذلك». أهـ.

يقول صاحب "الانتصار"[١] أيضًا بعد ذكر كلام شيخ الإسلام بن تيمية عن كفر المشركين: «فقد جزم رحمه الله[٢] في مواضع كثيرة بكفر من فعل ما ذكره من أنواع الشرك وحكي إجماع المسلمين على ذلك ولم يستثن الجاهل ونحوه، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾[٣]. وقال عن المسيح أنه قال: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾[٤]. فمن خصَّ ذلك الوعيد بالمعاند فقط وأخرج الجاهل والمتأول والمقلد فقد شاق الله ورسوله وخرج عن سبيل المؤمنين، والفقهاء يصدرون باب حكم المرتد لمن أشرك بالله ولم يقيدوا ذلك بالمعاند وهذا أمر واضح ولله الحمد وقد قال الله تعالى: ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾[٥]». أهـ.

٨- حقيقة الكفر لا تتقيد بقصد الكفر:

يقول ابن القيم رحمه الله[٦]: «فإن المتكلم عليه أن يقصد بتلك الألفاظ معانيها والمستمع عليه أن يحملها على تلك المعاني فإن لم يقصد المتكلم بها معانيها بل تكلم بها غير قاصد لمعانيها أو قاصدًا لغيرها أبطل الشارع عليه قصده فإن كان هازلاً أو لاعبًا لم يقصد المعني ألزمه الشارع المعني كمن هزل بالكفر والطلاق والنكاح والرجعة بل لو تكلم الكافر بكلمة الإسلام هازلاً ألزمه به وجرت عليه أحكامه ظاهرًا». أهـ.

(١) الأنتصار لحزب الله الموحدين،ص ٢٣.
(٢) شيخ الإسلام ابن تيمية.
(٣) النساء، آية: ٤٨.
(٤) المائدة، آية: ٧٢.
(٥) النساء، آية: ١٦٥.
(٦) أعلام الموقعين، ج٣، ص١٠٦.

ويقول الإمام الشاطبي عن مانعي الزكاة[١]: «من لم يرتد من المانعين، إنما منع تأويلاً وفي هذا القسم وقع النزاع بين الصحابة ﷺ لا فيمن ارتد رأسًا ولكان أبا بكر لم يعذر بالتأويل والجهل ونظر إلى حقيقة ما كان عليه الأمر فطلبه إلى أقصاه حتى قال والله لو منعوني عقالاً». أهـ.

وجاء في تطهير الاعتقاد[٢]: «قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُون َ۞ لاَ تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾[٣] فهؤلاء لم يعتقدوا ما قالوه ولم يقصدوا أن يكفروا فإن قلت هم جاهلون أنهم مشركون بما يفعلونه قلت قد خرج الفقهاء في كتب الفقه باب "الردة" إن من تكلم بكلمة الكفر يكفر وإن لم يقصد معناها». أهـ.

ويقول أبو بطين[٤]: «وقد أخبر سبحانه في مواضع من كتابه عن المشركين أنهم يقرون بتوحيد الربوبية ويحتج عليهم سبحانه بإقرارهم بتوحيد الربوبية على إشراكهم في توحيد الإلهية قال سبحانه: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنْ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنْ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُون َ۞ فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ﴾[٥]. قال البكري الشافعي في تفسيره على هذه الآية إن قلت إذا أقروا بذلك فكيف عبدوا الأصنام؟ قلت كلهم كانوا يعتقدون بعبادتهم الأصنام عبادة الله والتقرب إليه لكن من طرق مختلفة ففرقة قالت: ليست لنا أهلية عبادة الله بلا واسطة لعظمته فعبدناها لتقربنا إليه زلفى، وفرقة قالت: الملائكة ذوو وجاهة عند الله فاتخذنا أصنامًا على هيئة الملائكة لتقربنا إلى الله زلفى، وفرقة قالت: جعلنا الأصنام قبلة لنا في

---

(١) الاعتصام، ج٢، ص٣٥٦.
(٢) تطهير الاعتقاد، ص٢٢.
(٣) التوبة، الآيتان: ٦٥-٦٦.
(٤) الانتصار لحزب الله الموحدين، ص ٧.
(٥) يونس، آية: ٣١.

العبادة كما أن الكعبة قبلة في عبادته وفرقة اعتقدت أن لكل صنم شيطانًا وكلاً بأمر الله فمن عبد الصنم حقَّ عبادته قضي الشيطان حوائجه بأمر الله وإلا أصابه شيطانه بنكبة بأمر الله.

وقال ابن كثير عن قوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾[1]. إنما يحملهم على عبادتهم أنهم عمدوا إلى أصنام اتخذوها على صور الملائكة المقربين في زعمهم فعبدوا تلك الصور تنزيلاً لذلك منزلة عبادتهم الملائكة ليشفعوا لهم عند الله في نصرهم ورزقهم وما ينوبهم من أمر الدنيا. قال قتادة والسدي ومالك عن زيد بن أسلم وابن زيد ﴿ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾. أي ليشفعوا لنا وليقربونا عنده». أهـ.

أقــول:

هؤلاء جميعهم لم يقصدوا أن يكفروا بما فعلوا وبما أشركوا ولكنهم كفروا بما فعلوا وبما أشركوا.

ويقول صاحب "الانتصار"[2]: «فالدِّين كله داخل في العبادة فإذا علم الإنسان وتحقق معنى الإله وأنه المعبود وعرف حقيقة العبادة تبين له أنه من جعل شيئًا من العبادة لغير الله فقد عبده واتخذه إلهًا وإن فرَّ من تسميته معبودًا أو إلهًا وسمى ذلك توسلاً وتشفعًا والتجاءًا أو نحو ذلك.

فالمشرك مشرك شاء أم أبي كما أن المرابي مرابي شاء أم أبى وإن لم يسم ما فعله ربًا وشارب الخمر شارب للخمر وإن سماها بغير اسمها وفي الحديث عن النبيّ ﷺ: «يأتي أناس من أمتي يشربون الخمر يسمونها بغير اسمها ...» الحديث.

---

(١) الزمر، آية: ٣.

(٢) الانتصار، ص ٧-٨.

فتغيير الاسم لا يغير حقيقة المسمي ولا يزيل حكمه كتسمية البوادي سوالفهم الباطلة حقًا وتسمية الظلمة ما يأخذونه من الناس بغير اسمه، ولما سمع عدي بن حاتم ــ وهو نصراني ــ قول الله تعالى: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّه﴾[1] قال للنبيُّ ﷺ: لسنا نعبده!! فقال: «أليس يحرمون ما أحلَّ الله فتحرمونه ويحلون ما حرَّم الله فتحلونه. قال: قلت: بلي. قال: فتلك عبادتهم» فعدي ﷺ ما كان يحسب أن موافقتهم فيما ذكر عبادة منهم فأخبرﷺ أن ذلك عبادة منهم لهم مع أنهم لا يعتقدونه عبادة لهم وكذلك ما يفعله عُبَّاد القبور من دعاء أصحابها وسؤالهم قضاء الحاجات وتفريج الكربات والتقرب إليهم بالذبائح والنذور عبادة منهم للمقبورين وإن كانوا لا يسمونه ولا يعتقدونه عبادة لهم». أهـ.

ويقول في موضع آخر من الكتاب[2]: «ومن كيد الشيطان لمبتدعة هذه الأمة من المشركين بالبشر من المقبورين وغيرهم ولمَّا علم عدو الله أن كل من قرأ القرآن أو سمعه ينفر من الشرك ومن عبادة غير الله، ألقي في قلوب الجهال أن هذا الذي يفعلونه مع المقبورين وغيرهم ليس عبادة لهم وإنما هو توسل وتشفع بهم والتجاء إليهم، ونحو ذلك، فسلب العبادة والشرك اسمهما من قلوبهم وكساهما أسماء لا تنفر عنها القلوب ثم ازداد اغترارهم وعظمت الفتنة بأن صار بعض من ينسب إلى علم ودين يسهل عليهم ما ارتكبوه من الشرك ويحتج لهم بالحجج الباطلة، فإنا لله وإنَّا إليه راجعون».

ويقول في موضع آخر من الكتاب[3]: «ومن العجب قول بعض من ينتسب إلى علم ودين أن طلبهم من المقبورين والغائبين ليس دعاءً لهم بل هو نداء!! أفلا يستحي هذا القائل من الله إذا لم يستح من الناس من هذه

(١) التوبة، آية: ٣١.

(٢) الإنتصار، ص١٠.

(٣) المصدر السابق، ص١٨.

الدعوى الفاسدة السمجة التي يروج بها على رعاع الناس والله سبحانه قد سمى الدعاء نداء في قوله تعالى: ﴿ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾[1]، وقوله: ﴿ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنْ الظَّالِمِينَ﴾[2] وأي فرق بين ما إذا سأل العبد ربَّه حاجة وبين ما إذا طلبها من غيره ميت أو غائب، بأن الأول يسمى دعاءً، والثاني نداءً. وما أسمج هذا القول وأقبحه وهو قول يستحى من حكايته لولا أنه يروج على الجهال، لاسيما إذا سمعوه ممن يعتقدون علمه ودينه. وأي فرق بين سؤال الميت حاجة وبين سؤالها من صنم ونحوه بأن الثاني يسمى دعاءً والأول نداءً؟!! فإن قال: الكل يسمى نداءً لا دعاء فهذا مشاقة للقرآن ومحادة لله ورسوله. وما أظن عاقلاً يحيك هذا في نفسه، وإنما هو عناد ومكابرة إنما تروج على أشباه البهائم، أما يخاف هذا أن يتناوله قوله تعالى: ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾[3]. والله سبحانه سمَّى سؤال غيره دعاء في غير موضع من كتابه: ﴿ إِنْ تَدْعُوهُمْ لاَ يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾[4]. والدعاء في القرآن يتناول دعاء العبادة ودعاء المسألة». أهـ.

وحقيقة[5] الفرق في النداء والدعاء والاستعانة وغير ذلك أن الاستغاثة تجوز في الأسباب الظاهرة العادية من الأمور الحسية في قتال أو إدراك عدو أو سبع ونحوه كقوله يا لزيد، يا لقومي، يا للمسلمين، كما ذكروا في كتب النحو بحسب الأسباب الظاهرة بالفعل وأما الاستعانة بالقوة والتأثير أو في الأمور المعنوية من الشدائد وكالمرض وخوف الغرق

---

(١) مريم، آية: ٣.

(٢) الأنبياء، آية: ٨٧.

(٣) غافر، آية: ٥.

(٤) فاطر، آية: ١٤.

(٥) مستفاد من السياق.

والضيق والفقر وطلب الرزق ونحوه، فمن خصائص الله فلا يطلب فيهــا غيره هذه هى حقيقة الفرق، فكل ما يرجع إلى الاستغاثة بالقوة والتأثير في المعنوية فهو عبادة لكونه راجع إلى أمر غيبي غير معقول المعنى فيكون تعبديًا سواء سميناه دعاءً أو نداءً أو استعانة أو استغاثة أو دعاء عبــادة أو دعاء مسألة فكله عبادة بهذا الاعتبار وهو لغير الله شرك ولكونــه شــركًا يكون كفرًا قصد به صاحبه ذلك أم لا.

يقول أبو بطين في موضع آخر من الكتاب(١): «قال ابن القيم: ومــن ذبح للشيطان ودعاه واستعاذ به وتقرب إليه بما يُحب فقد عبده وإن لم يسم ذلك عبادة ويسميه استخدامًا وصدق هو استخدام من الشيطان له». أهــ.

وينقل أبو بطين عن شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم: «فعلى هذا فلو ذبح لغير الله متقربًا إليه لحرم وإن قال فيه بسم الله كما قد يفعله طائفة مــن منافقي هذه الأمة الذين يتقربون إلى الكواكب بالذبح والنذور ونحو ذلك وإن كان هؤلاء مرتدين لا تباح ذبيحتهم بحال لكن يجتمع في الذبيحــة مانعــان ومن هذا الباب ما يفعله الجاهلون بمكة من الذبح للجن. ويقول نقلاً عن ابن القيم في نقله عن شيخ الإسلام ابن تيمية: وقال في موضع آخر المــسلم إذا ذبح لغير الله أو ذبح بغير اسمه لم تبح ذبيحته وإن كان يكفر بذلك». أهــ.

أقــول: والمانعان كونهما ذبيحة مرتد وكونها ذبحــت لغيــر الله أو ذبحت بغير اسمه، والشاهد هنا هو الردة مع عدم القصد إلى الكفر بالــذبح لغير الله والذبح بغير اسمه عزَّ وجل.

يقول ابن تيمية(٢): «والغرض هنا أنه كما أن الردة تتجرد عن السب فكذلك قد تتجرد عن قصد تبديل الدين وإرادة التكذيب بالرسالة كما تجــرد

---

(١) الانتصار لحزب الله الموحدين، ص ٢٧.

(٢) الصارم المسلول، ص٣٢٥.

كفر إبليس عن قصد التكذيب بالربوبية وإن كان عدم هذا القصد لا ينفعه كما لا ينفع من قال[1] الكفر أن لا يقصد أن يكفر».

ويقول أيضًا في "الصارم"[2]: «السنة الثالثة عشرة ما رويناه من حديث أبي القاسم عبد الله بن محمد البغوي قال حدثنا يحيي بن عبد الحميد الحماني حدثنا على بن مسهر عن صالح بن حيان عن ابن بريدة عن أبيه أن النبيّ ﷺ بلغه أن رجلاً قال لقوم أن النبيَّ ﷺ أمرني أن أحكم فيكم برأيي وفي أموالكم كذا وكذا وكان خطب امرأة منهم في الجاهلية فأبوا أن يزوجوه ثم ذهب حتى نزل على المرأة فبعث القوم إلى رسول الله ﷺ فقال: «كذب عدو الله، ثم أرسل رجلاً فقال: إن وجدته حيًا فاقتله وإن أنت وجدته ميتًا فحرّقه بالنار» فانطلق فوجده قد لدغ فمات فحرَّقه بالنار فعند ذلك قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كذب على متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار» ورواه أبو أحمد بن عدي في كتابه "الكامل". قال: حدثنا الحسين بن محمد بن عنبر حدثنا حجاج بن يوسف الشاعر حدثنا زكريا بن عدي حدثنا على بن مسهر عن صالح بن حيان عن ابن بريده عن أبيه قال كان حي من بني ليث من المدينة على ميلين وكان رجل قد خطب منهم في الجاهلية فلم يزوجوه فأتاهم وعليه حُلة فقال إن رسول الله ﷺ كساني هذه الحلة وأمرني أن أحكم في أموالكم ودمائكم ثم انطلق فنزل على تلك المرأة التي كان يحبها فأرسل القوم إلى رسول الله ﷺ فقال: «كذب عدو الله، ثم أرسل رجلاً فقال: إن وجدته حيًا وما أراك تجده حيًا فاضرب عنقه، وإن وجدته ميتًا فأحرقه بالنار». فقال: فذلك قول رسول الله ﷺ «من كذب على متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار» هذا إسناده صحيح على شرط الصحيح لا نعلم له علة.

(١) من تلفظ بالكفر.
(٢) الصارم المسلول، ص ١٤٦- ١٤٧.

إلى أن يقول شيخ الإسلام[١]: وللناس في هذا الحديث قولان: أحدهما: الأخذ بظاهره في قتل مَنْ تعمد الكذب على رسول الله ﷺ ومن هؤلاء مــن قال يكفر بذلك. إلى أن يقول: القول الثاني: أن الكاذب عليه تغلّــظ عقوبتــه لكن لا يكفر ولا يجوز قتله لأن موجبات الكفر والقتل معلومة ولــيس هــذا منها فلا يجوز أن يثبت ما لا أصل له. ومن قال هذا فلابد أن يقيد قوله بأنه لم يكن الكذب عليه متضمناً لعيب ظاهر، فأما إن أخبر أنه سمعه يقول كلامًا يدل على نقصه وعيبه دلالة ظاهرة مثل حديث عرق الخيــل ونحــوه مــن الترهات فهذا مستهزئ به استهزاءًا ظاهرًا ولا ريب أنه كافر حلال الدم.

وقد أجاب من ذهب إلى هذا القول عن الحديث بأن النبيّ ﷺ علم أنه كان منافقًا فقتله لذلك لا للكذب وهذا الجواب ليس بشيء. لأن النبيّ ﷺ لم يكن من سنته أن يقتل أحدًا من المنافقين الذين أخبر الثقة عنهم بالنفــاق أو الذين نزل القرآن بنفاقهم فكيف يقتل رجلاً لمجرد علمه بنفاقه؟ ثم إنه سمَّى خلقًا من المنافقين لحذيفة وغيره ولم يقتل مــنهم أحــدًا وأيــضًا فالــسبب المذكور في الحديث إنما هو كذبه على النبيّ ﷺ كذبًا له فيه غرض وعليه رتب القتل فلا تجوز إضافة القتل إلى سبب آخر وأيضًا فإن الرجل إنمــا قصد بالكذب نيل شهوته ومثل هذا قد يصدر من الفسَّاق كما يصدر مــن الكفار وأيضًا فإمَّا أن يكون نفاقه لهذه الكذبة أو لسبب ماض فإن كان لهذه فقد ثبت أن الكذب عليه نفاق والمنافق كافر، وإذا كان النفاق متقدمًا وهــو المقتضي للقتل لا لغيره فعلام يؤخر الأمر بقتله إلى هذا الحين وعلام لــم يؤاخذه الله تعالى بهذا النفاق حتى فعل ما فعل وأيضًا فإن القــوم أخبــروا رسول الله ﷺ بقوله فقال: «كذب عدو الله» ثم أمر بقتله إن وجد حيًــا ثــم قال: «ما أراك تجده حيًا» لعلمه ﷺ بأن ذنبه يوجب تعجيل العقوبة، والنبيّ

---

(١) الصارم المسلول، ص١٤٨.

ﷺ إذا أمر بالقتل أو غيره من العقوبات والكفَّارات عقب فعل وُصِفَ لــه صالح لترتب ذلك الجزاء عليه كان ذلك الفعل هو المقتضي لذلك الجــزاء لا غيره كما أن الأعرابي لمَّا وصف له الجماع في رمضان أمره بالكفَّارة ولما أقر عنده ماعز والغامدية وغيرهما بالزنا أمر بالرجم وهــذا ممــا لا خلاف فيه بين الناس نعلمه نعم قد يختلفون في نفس الموجــب هــل هــو مجموع تلك الأوصاف أو بعضها وهو نوع من تنقيح المناط فأما أن يجعل ذلك الفعل عديم التأثير والموجب لتلك العقوبة غيره الذي لم يــذكر وهــذا فاسد بالضرورة لكن يمكن أن يقال فيه ما هو أقرب من هذا وهو أن هــذا الرجل كذب على النبيّ ﷺ كذبًا يتضمن انتقاصه وعيبه لأنه زعم أن النبيّ ﷺ حكمه في دمائهم وأموالهم وأذن له أن يبيت حيث شــاء مــن بيــوتهم ومقصوده بذلك أن يبيت عند تلك المرأة ليفجر بها ولا يمكنهم الإنكار عليه إذا كان محكمًا في الدماء والأموال، ومعلوم أن النبيّ ﷺ لا يحلل الحــرام ومن زعم أنه أحل المحرمات من الدماء والأموال والفواحش فقد انتقــصه وعابه ونسب للنبيّ ﷺ إلى أنه يأذن له أن يبت عند امرأة أجنبية خاليًا بها وأنه يحكم بما شاء في قوم مسلمين وهذا طعن على النبيّ ﷺ وعيب له.

وعلي هذا التقدير فقد أمر بقتل من عابه وطعن عليــه مــن غيــر استتابة وهو المقصود في هذا المكان فثبت أن الحديث نــصٌ فــي قتــل الطاعن عليه من غير استتابة على كلا القولين، ومما يؤكد القول الأول أن القوم لو ظهر لهم أن هذا الكلام سبّ وطعن لبادروا إلــى الإنكــار عليــه ويمكن أن يقال رابهم أمره فتوقفوا حتى استثبتوا ذلك من النبــيّ ﷺ لمــا تعارض وجوب طاعة الرسول وعظم ما أتاهم به هذا اللعين، ومن نــصر القول الأول قال: كل كذب عليه فهو متضمن للطعن عليه كما تقدم ثــم إن هذا الرجل لم يذكر في الحديث أنه قصد الطعن والازدراء وإنمــا قــصد تحصيل شهوته بالكذب عليه وهذا شأن كل من تعمد الكذب عليه فإنه إنما

يقصد تحصيل غرض له إن لم يقصد الاستهزاء به والأغراض في الغالب إما مال أو شرف كما أن المسيء إنما يقصد إذا لم يقصد مجرد الإضلال، إما الرياسة بنفاذ الأمر وحصول التعظيم أو تحصيل الشهوات الظاهرة، وبالجملة فمن قال أو فعل ما هو كفر كفر بذلك وإن لم يقصد أن يكون كافرًا إذ لا يقصد الكفر أحد إلا ما شاء الله»[1]. أهـ.

ونقول: ابن قدامة ومن معه من أهل الشام ممن استحل الخمر بتأويل على عهد عمر رضى الله عنهما لم يقصد الكفر ولم ينشرح صدره به نحن نقطع بذلك بل نقول إنه من قوة شعوره بالإيمان ظَنَّ أن الآية تستثنيه من التحريم ومن يمكن أن يكون على شاكلته من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ومع ذلك رأي عمر ﷺ ومن معه من أهل الشوري أنها ردّة يستتابون منها فإن تابوا وأقروا بالتحريم جُلدوا، وإن لم يتوبوا قتلوا عليها فاستتابوهم، فتابوا.

يقول الإمام الشاطبي في "الاعتصام" [2]: «ذكر إسماعيل بن إسحق عن على ﷺ قال شرب نفرٌ من أهل الشام الخمر وعليهم يزيد بن أبي سفيان فقالوا هى لنا حلال، وتأولوا هذه الآية: ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا...﴾[3] قال: فكتب فيهم إلى عمر. قال: فكتب عمر إليه: أن ابعث بهم إلى قبل أن يفسدوا من قبلك، فلما قدموا إلى عمر استشار فيهم الناس، فقالوا: يا أمير المؤمنين نرى أنهم قد كذبوا على الله وشرعوا في دينه ما لم يأذن به فاضرب أعناقهم، وعليٌّ ﷺ ساكت، قال: فما تقول يا أبا الحسن؟ فقال أري أن تستتيبهم فإن تابوا جلدتهم ثمانين لشربهم الخمر، وإن لم يتوبوا ضربت أعناقهم، فإنهم قد كذبوا على الله وشرعوا في دين الله ما لم يأذن به. فاستتابهم فتابوا، فضربهم ثمانين ثمانين». أهـ.

---

(١) الصارم المسلول، ص١٥٤.
(٢) الاعتصام، ج٣، ص٤٦.
(٣) المائدة، آية: ٩٣.